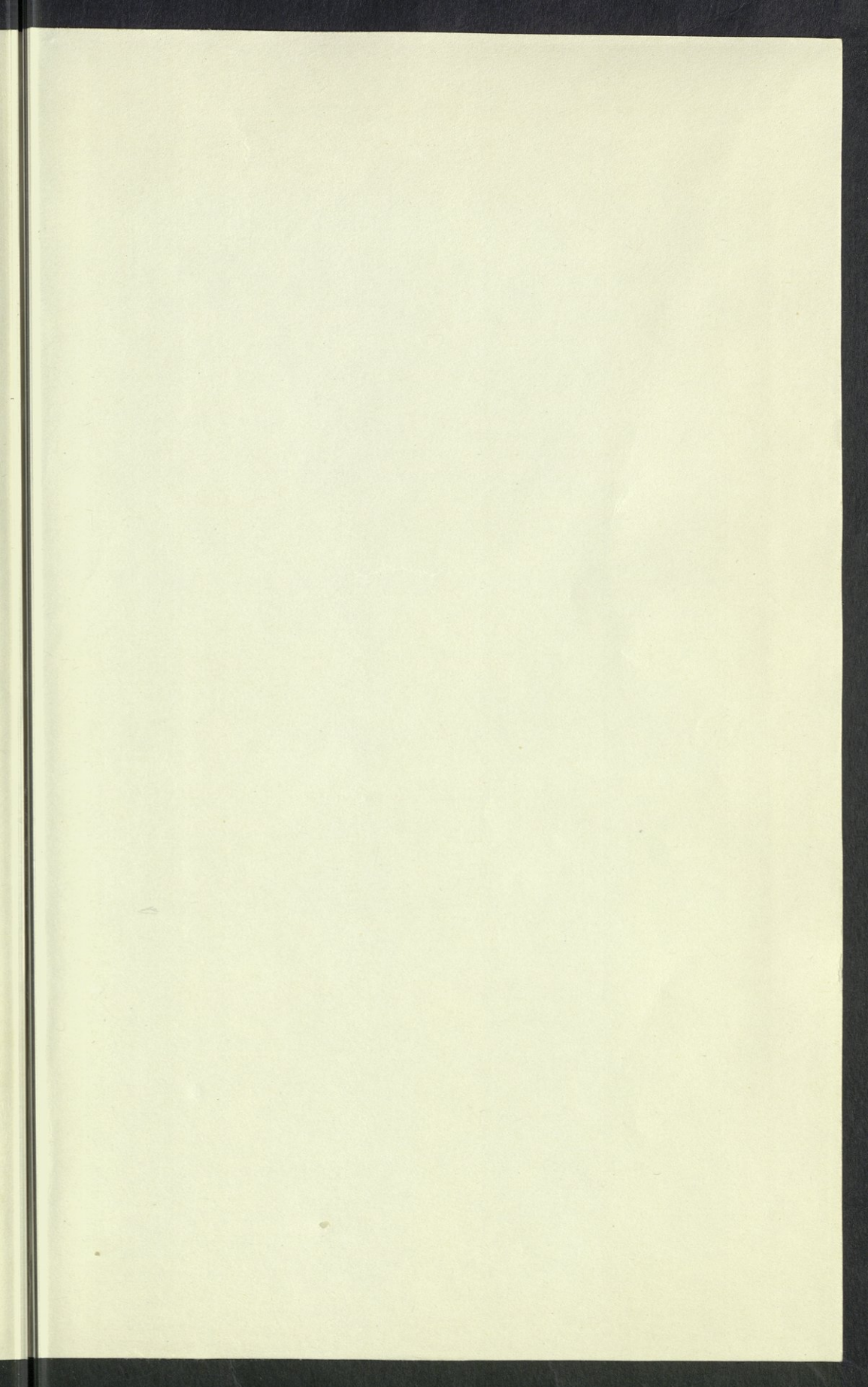
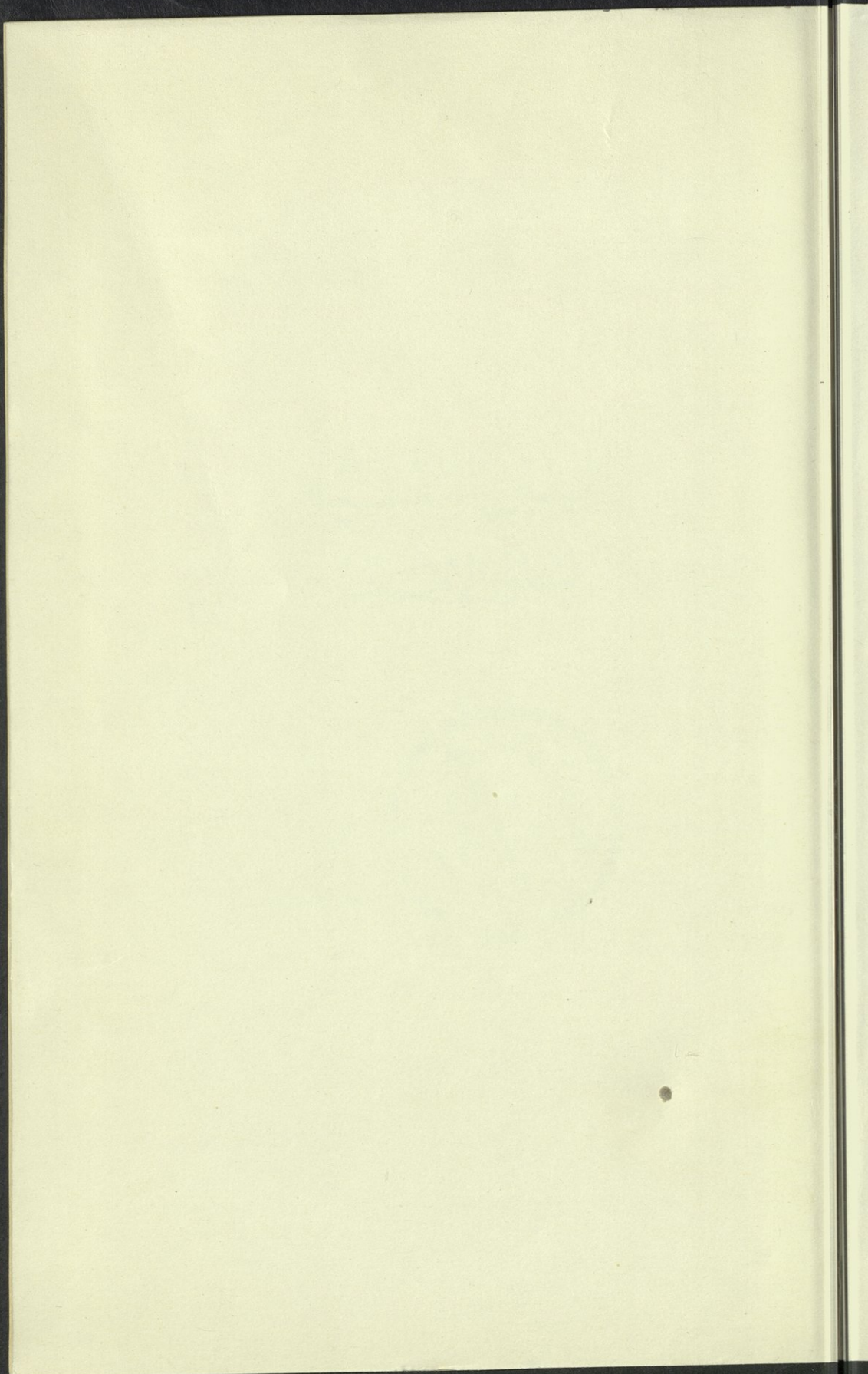


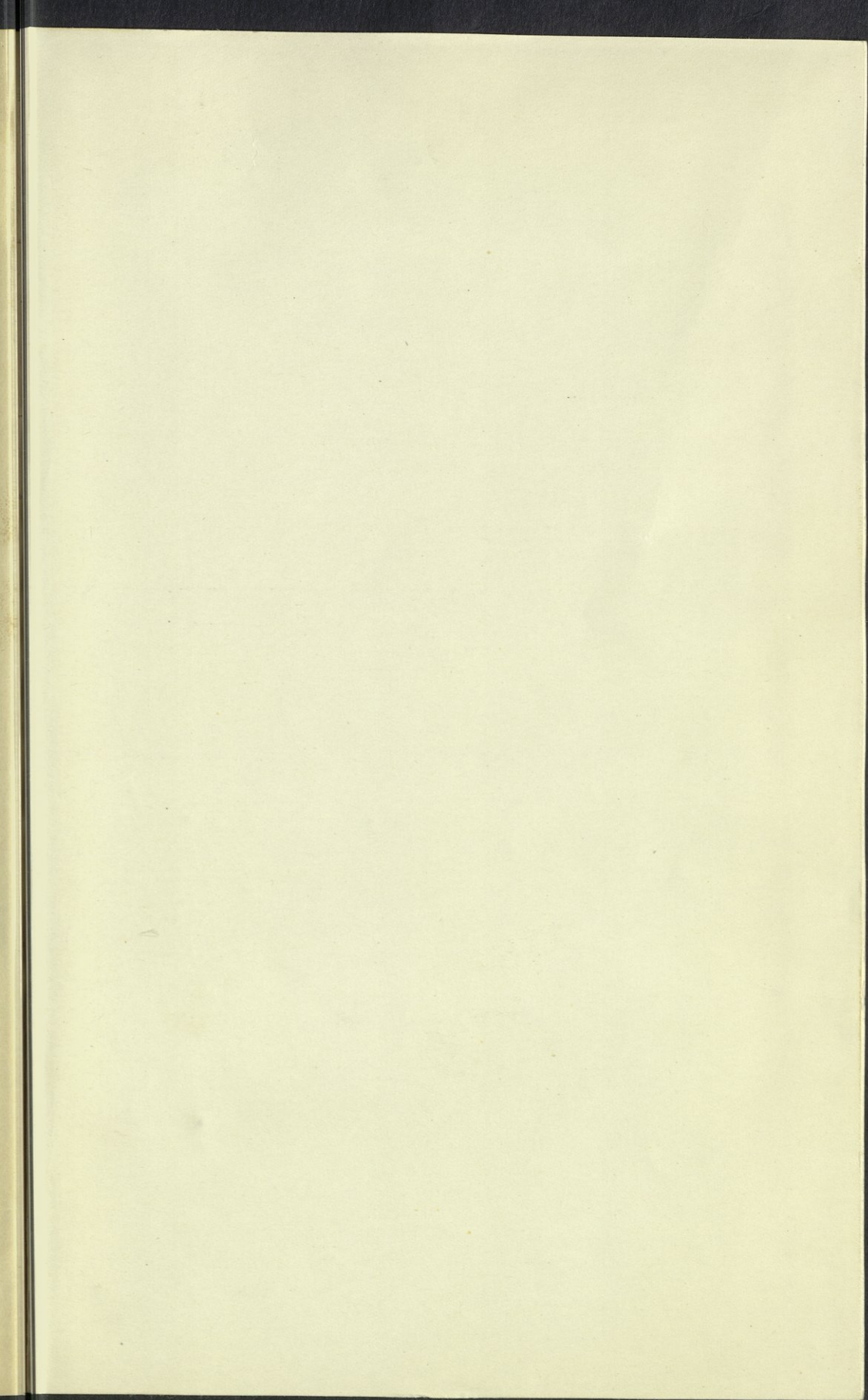
30
L
C

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

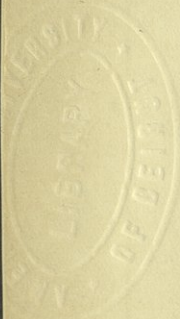
N. MAKHOUL
BINDERY
12 MAY 1972
Tel. 260458







A S.



السُّنَنُ النَّفْسِيَّةُ
لِنُظُورِ الْأَمَمِ





Oct. 12 June 153

301.15
L442A
c.1

السُّنَنُ النَّفْسِيَّةُ لِنُطُورِ الْأُمَمِ

تَأَلَّفَتْ
الذِّكْرُوعُوسَتَا فُلُؤُونُ

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ
عَادِلُ زُعَيْتَرُ



مَنْزَمَةُ الصَّحَابَةِ
دَارُ الْمَعَارِفِ مَبْرُورُ

١٩٥٠

Cat. 12 June 1953



تَيْسِفْنَا انْ نَسْنَا

نَمَّه لَافْلَافَا

نَمَّه لَافْلَافَا

نَمَّه لَافْلَافَا



نَمَّه لَافْلَافَا

مقدمة المترجم

يَسِيحُ الفيلسوف الاجتماعيُّ غوستاف لوبون في الأرض كثيراً فيَضَعُ في سنة ١٨٨٤ كتابَه الخالد « حضارة العرب » ، وَيَضَعُ في سنة ١٨٨٧ كتابَه الخالد « حضارات الهند » ، وفي سنة ١٨٨٩ يُعَزِّزُهَا بثالث ، يُعَزِّزُهَا بكتاب « الحضارات الأولى » ، ونترجم السَّفرين الأوَّلين اللذين هما أهمُّ من السَّفر الثالث ، ومن السَّفر الثالث هذا ننقل إلى العربية الجزء الخاصَّ باليهود ، وهو أطرف أجزائه .

وفي تأليف تلك الكتب يعتمد لوبون على ما لاحظَ وتَرَصَّد في رِحلاته ، ومن تلك الكتب على الخصوص يستنبط ما بدأ له من سُنَنِ الاجتماع فيَضَعُ في سنة ١٨٩٤ كتابَ « السُّنَنِ النفسية لتطور الأمم » ، ويضع في سنة ١٨٩٥ كتابَ « روح الجماعات » ، وفي كلا الكتابين يتحرر لوبون من جميع المذاهب الاجتماعية فينتهي إلى نتائج مخالفةٍ لِمَا أَلْفَهُ العلماء من المبادئ والآراء فيُعَدُّ بحقٍّ مُجَدِّداً في علم النفس وعلم الاجتماع ، إماماً مُوجِّهاً فيهما .

ولامراء في عبقرية لوبون ، وهو قد عالج جميع الموضوعات التي تناولها بالبحث في كُتُبِهِ ببراعةٍ ودقةٍ فَوَصَلَ إلى حقائقَ رائعةٍ ، ولوبون قد امتاز في ذلك بمعرفته للإنسان وتعبيره عما يُوحِي به العقلُ والنوق السليم من المناحي ، ولوبون قد ظهر

في كلِّ ما كَتَبَ مبتكراً حُرَّ الفكر مستقلاًّ لَبِيقاً إلى الغاية ، ولذلك كان من الصواب أن قيل : « لا جدال في أن لوبون أعظمُ عالمٍ نفسىّ فرنسىّ في الزمن الحاضر بما تذرَّع به من صبر وما اتَّفَقَ له من بصيرة نفَذَ بها روحَ العصر » .

وفي كتاب « الشُّنن النفسية لتطور الأمم » بحث لوبون في صفات العروق النفسية وتغيُّر أخلاقها ومراتبها وفي تفاوت الأفراد والعروق ، وفي تكوين العروق التاريخية ، وفي كون عناصر الحضارة مظهرًا خارجيًا لروح الأمة ، وفي تحوُّل النُظم والمعتقدات والفنون ، وفي تأثير المبادئ في حياة الأمم ، وفي تأثير الديانات في تطور الحضارات ، وفي شأن العظماء في تاريخ الأمم ، وفي ذُوى الحضارات وانطفائها .

ويَعُدُّو مبدأ تساوى الأفراد والعروق الذى بَشَّرَ به فلاسفة القرن الثامن عشر من العقائد الثابتة لدى أكثر شعوب أوربة على الخصوص ، ويَبْلُغُ هذا المبدأ من النفوذ والتأثير في هذه الشعوب ما قَلِبَ به العالمُ الغربىُّ رأساً على عَقِب ، وعلى هذا المبدأ تقوم نظريات الاشتراكية ، وعلى ما دلَّ عليه العلم الحديث من وهنٍ في ذلك المبدأ لم يَجْرُؤْ أحد على مناهضته سوى قليل من العلماء ، ولاح لوبون على رأس هؤلاء فَبَيَّنَ في كتابه « الشُّنن النفسية لتطور الأمم » أن الحضاراتِ كلما تقدمت تفاوتت الشعوب والأفراد وأن البشرية تَسِيرُ إلى التفاوت لا إلى المساواة ، ومما وَجَدَهُ لوبون أن العروق تختلف فيما بينها بما تشتمل عليه من صَفْوَةِ الرجال ، وأن الحضاراتِ تُؤدِّي إلى تفاوت الأفراد بالتدرج من الناحية الذهنية ، وأن الأمم كلما تَقَدَّمَت في ميدان الحضارة تَفَاوَتَ الجنسان فيها بِنِسْبَةِ هذا التقدم .

وكتابُ « الشُّنن النفسية لتطور الأمم » لِمَا له من حُطُورَةٍ عظيمة اتَّفَقَ له من الأثر البالغ في أقطاب السياسة ما رَأَوْا اتِّخَاذَهُ خَيْرَ رفيق لهم ، حتى إن رئيس

جُمهورية الولايات المتحدة الأمريكية ثيودور رُوزفِلْت كان يستصحبه في حِلِّهِ وتِرْ حاله مستلهماً إياه في سياسته كما صرَّح بذلك غيرَ مرة .

وأروعُ كُتُبِ لوبونَ الاجتماعيةِ هو ما وَضَعَه قبل الحرب العالمية الأولى ، وما وَضَعَه لوبونُ بعد تلك الحرب فقد اعتمد فيه على مؤلفاته السابقة مكرِّراً ما جاء فيها من المبادئ والنظريات ، وقد نقلنا إلى العربية مُعْظَم تلك المؤلفات ولا سيما « حضارة العرب ، وحضارات الهند ، واليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، وروح التربية ، وحياة الحقائق ... » ، فأينما أن تُتِمَّ عملنا فترجم كتاب « الشُّنن النفسية لتطور الأمم » وكتاب « روح الجماعات » أيضاً ، وهذا ما قُيِّمنا به فعلاً ، فبذلك نكون قد أدخلنا إلى المكتبة العربية أُمَمَاتٍ كتب لوبون التاريخية والاجتماعية والنفسية .

وكان لوبون قد وَضَعَ كتاب « الإنسان والمجتمعات وتاريخهما وأصولهما » في مجلدين قبل سياحاته العظيمة وقبل تأليفه كتاب « حضارة العرب » وغيره من تلك الكتب ، فاستند في كُتُبِ الحضارات تلك إلى بعض القواعد المُقرَّرة في ذلك الكتاب ، وقد كُنَّا راغبين في ترجمة ذلك الكتاب أيضاً لو لم نَرَ لوبون غيرَ كثيراً من آرائه وأفكاره فيه بعد رِحلاته تلك وعند تأليفه للكتب التي نقلناها ، وفي هذه الكتب المترجمة ، ومنها كتاب « الشُّنن النفسية لتطور الأمم » على الخصوص ، تَجِدُ عَرَضاً وتلخيصاً لما في كتاب « الإنسان والمجتمعات » ذلك من مبادئ مُعدَّلةٍ ، فلا اضطرارَ إلى ترجمته إذن .

وفي سنة ١٩١٣ يترجم المرحوم أحمد فتحي زغلول باشا كتاب « الشُّنن النفسية لتطور الأمم » هذا بعنوان « سِرُّ تطور الأمم » والموضوعات الاجتماعية كانت في

ذلك الحين ، كما هي الآن ، غير مطروقة كثيراً ، وتقابل بين الأصل الفرنسى وتلك الترجمة فنجد أن زغول باشا ، وإن بذل جهداً مشكوراً في المحافظة على المعانى ، لم تخلُ ترجمته تلك من التجوُّز والعُجْمة والغموض ، فلذلك ، ولنفاذ ما طبعه زغول باشا من نسخ ترجمته ، ولما وجدتُ من ضرورة ترجمة كتاب « الشُّنن النفسية لتطور الأمم » ترجمةً تتساقق هي وما ترجمته من كتب لوبون في السنوات الأخيرة على الخصوص معتمداً على النصِّ الفرنسى الأخير الذى توفَّى لوبون مُعَوِّلاً عليه ، نقلتُ هذا الكتاب النفيس على الوجه الذى أعرِضه به على القراء ، والله الموفق .

عادل زعيتر

« نابلس »

مُقَدِّمَةُ الْمُؤَلِّفِ فِي الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ

تطبيق ما جاء في هذا الكتاب من المبادئ

على بعض حوادث الحرب الأوربية

نُشِرَ هذا الكتاب للمرة الأولى منذ عشرين سنة ، ولم تَنْهَ يدُ التغير قَطَّ في تلك الأثناء ، وكانت غايته تعيين بعض الشُّنن النفسية لتطور الأمم .

وما كان يُفْتَرَضَ حينئذٍ أن انقلاباً عالمياً سيُجىء مصداً لما اشتمل عليه هذا الكتاب من الشُّنن التي استنبطها فيلسوفٌ من عُقَدَةِ التاريخ .

وتلك الشُّنن تدلُّ على أن عدداً قليلاً من العوامل النفسية الثابتة يسيطر على حياة الأمم فضلاً عن سيطرة بعض المؤثرات التي هي وليدة تقدم الحضارة ، ومن خلال الزمان والمكان يُرى تأثيرُ تلك الشُّنن في كلِّ زمان ومكان ، وكان لتلك الشُّنن الأثرُ البالغ في قيام أعظم الدول وسقوط هذه الدول .

ولم تكن القوى النفسية التي لها ذلك التأثيرُ الكبير صادرةً عن العقل ، وهذه القوى هي التي تسيطر على جميع العقول ، وفي الكتب وحدها تجدُ أن العقول يَقُودُ التاريخ .

وإذ كانت عِلَلُ ما يملأ حياة الأمم من اضطراع غريبة عن العقل فإنك ترى أن أيَّ تقدم في العلم لا يُلطِّفُ ضراوته ، وعلى ما تُبصر من نمو العقل باتساع أفق المعرفة تجدُ المشاعر والأوهام والشهوات التي سَيَّرَتِ الناس منذ دور الكهوف الأولى ظلت ثابتة كما هي ، فالحقُّ أنه لا دورَ للحقد والحُبِّ والحرص والطمع والعجب .

والأُمُّ ، وهى لا كبيرَ تأثيرٍ للعقل فيها ، مُسَيَّرَةٌ بأخلاق عِرْقِهَا ، أى بمجموع
المشاعر والاحتياجات والعادات والرغبات التى هى دعائمُ روحها الأساسية ، وتمنُّ
هذه الروح القومية على الأُمِّ ثبات دائم مع تقلُّباتِ الحوادث على الدوام .
(وهنا نلْمِسُ سرَّ التاريخ ، وهنا نلْمِسُ القُوَى الخفية التى تُوجِّه مجراه .
والعِرْقُ بالحقيقة هو الذى يُعيِّن الوجه الذى تسير به الأُمُّ بفعل الحوادث
وتقلُّبات البيئة .

وروحُ العِروق تهيمن على مقادير الأُمِّ حين تسيطر على النظم والقوانين وعلى
عزائم الطُّغاة .

ومعرفةُ روح العِروق تُعيِّنُ على حلِّ ألغاز التاريخ ، ومعرفةُ روح العِرق تُخبرنا
بأسباب العظمة والانحطاط وبالعلقة فى تمازج أُمِّ وعجز أُمِّ عن ذلك ، والعِرْقُ هو
حجر الزاوية الذى يقوم عليه توازن الأُمِّ ، والعِرْقُ هو الذى يُعيِّن الحدَّ النفسى
لطموح الفاتحين ولما يتدعون من أُخيلة العظمة والتَّصدُّر .

وشأن العِرْق يَرْمُخُ فى حياة الأُمِّ رسوخاً عظيماً على الدوام فلا يَجُوزُ جهله ،
وعلى ما تراه من بيان الكتب الدينية القديمة لقوة هذا الشأن تُبْصِرُ الثورين
الغافلين عن الماضى يجادلون فى هذه القوه .

يَبْدُ أن على مَنْ يرغب فى اكتناه مبدأ العِرْق أن يَعْرِفَ ما أسفر عنه علم الحياة
الحديثُ من الاكتشافات .

ويكفى الاضطراعُ الأوربى لإثبات خطأ النظريين الذين يحاولون إنكار روح
العِروق ، ومصدرُ هذا الاضطراعِ الرئيسُ بالحقيقة هو ادعاء إحدى الأُمِّ بالصدارة

لما افترضته من خصال عرقها فاعتقدت أنها مدعوّة إلى السيطرة على العالم ،
ومن أسباب هذا الاضطراع أيضاً ما كان من الحقد الموروث المُفرّق بين أمم مختلفة
الأصول كالنمساويين والصرب والروس على الخصوص .

وذلك الاضطراع يُنشأ بوجه خاصّ عن الأوهام التي نَبَتَتْ في روح مؤرخي
الألمان ومؤلفيهم بفعل تصورهم لمبدأ العرق تصوراً خاطئاً .

وذلك التصور قد وَقَعَ في زمن كان نقص المعارف الأنتروپولوجية يؤدي فيه إلى
الظن بأن بعض العروق في أوربة ظلّ خالصاً من شائبة الاختلاط مع تعاقب القرون .
ولم تظلّ الأفكار التي نشأت عن النظريات الوهمية قائمةً بعد نقض هذه النظريات
ما وجدتْ مثلَ ذلك الخطأ باقياً في أيامنا ، والحق أن ما أدّت إليه الأنتروپولوجية
الدقيقة من ملاحظات يُثبت عدم وجود عروق خالصة لدى الأمم المتمدنة .

أجلّ ، لا يزال كثير من البقاع في إفريقية وآسية مشتملاً على عروق خالصة ،
غير أن أوربة لا تحتوى سوى ما سَمَّيْتُهُ بالعروق التاريخية ، وهذه العروق التاريخية
هي وليدة انصهاراتٍ مختلفة نشأت عن مصادفاتِ الهجرة والفتوح ، وإذا كانت
صفات هذه العروق النفسية الموروثة قد غَدَتْ كثيرة الثبات فلأن حواصل مثل
تلك الانصهارات قد خضعت في قرون كثيرة حياة جامعة منطوية على نُظُم مشتركة
وعلى مصالح مشتركة بوجه خاصّ .

وإذ تكررت مؤثراتٌ كذلك منذ الدور الذي تخلصت فيه الأمم من مغازى الفتح ،
فانتهت إلى الوحدة السياسية ، فإنها أوجبت حدوث أخلاق العروق الراهنة ، واليوم
قد تَوَلَّدَت هذه الأخلاق لدى مُعْظَم الأمم وإن لم يَرْجِع زمن ظهورها إلى أجيال
ما قبل التاريخ .

وإذ ان صفات العروق النفسية متباينةً أشدَّ التباين فإنها تتأثر تأثراً مختلفاً بفعل المؤثرات الواحدة ، وفي الغالب ينشأ عن ذلك عدم تفاهم مُطلق ، وبدا عدم التفاهم هذا منذ أدت سهولة الصلات السريعة إلى تماسُّ الأمم .

وكانت النتيجة الأولى لهذا التقارب هي إظهار الفروق النفسية التي تَفْصِل بين الأمم وما ينشأ عن ذلك من تباين في إدراك الأمور .

وأنت الحرب الأوربية بدليل آخر على درجة ما يمكن أن يكون من تباين نفسي بين أمم ذات حضارة واحدة في الظاهر صاحبة أفكار متقابلة منذ طويل زمنٍ حائرة لبعض المصالح المتماثلة .

وتلك الأمم غير متعارفة بالحقيقة ، وليست حكوماتها أحسن معرفة لها من ذلك مع ما يُروّدها به من المعلومات سفراؤها وملحقوها العسكريون ووثائقها الكثيرة ، وكانت المانية تحبل روح إنكلترة ، ولم يكن جيل فرنسة لروح المانية أقل من ذلك ، وخفيت نفسية سكان البلقان على مُعظم السياسيين الأوربيين ، فاقترف هؤلاء السياسيون أفذح الأغاليط لما كان من تفسيرهم لتلك النفسية بأفكارهم التي هي أفكار رجال متمدين ، فلروح العروق من الحدود ما يتعذر اقتحامه .

وعدم الإدراك ذلك لأنه يسود ما بين مختلف الأمم من صلات ، ونحن لأننا نوّد أن نحكم في أمر تلك الأمم بمشاعرنا وأفكارنا الشخصية كان من الصعب أن يُبصر سير الأمم الأجنبية وسادتها في حال ما ، ولنا في الحرب الأوربية عدّة أمثلة ، ومنها أن ما لدى أولياء الأمور بألمانية من غفلة نفسية أدى إلى تأليب بلاد كالنكلترة وإيطالية عليها طائنين أن هذه البلاد مما يجب أن يُعتمد على صداقته أو حياده .

وما كان لروح التوتون (الألمان) النفعية أن تُبصر أن احترام إمضاء المعاهدات الذي هو أساسُ جميع الحياة التجارية بإنكلترة مما يوجب قيام هذه الأمة المسالمة ضدَّ ألمانية وأن اضطرار بلجيكة الضعيفة إلى الدفاع عن نفسها يَحْمِلُها على الوقوف في وجه قاهرها القويّ .

وعدم إدراكٍ مثل ذلك قد تجلّى فينا أيضاً ، فقد نسينا ما يكون لروح الأموات من السلطان الهائل على الأحياء فاعترانا الدهش من صولة تلك الجيوش الهمجية التي حرقت المدن والآثار بدم بارد وقتلت السكان العزل من السلاح بدم بارد ، وما كان الألمان في ذلك إلا مُكرّرين أعمال أجدادهم في ذلك ، نعم ، لاح أن الحضارة ألأنت طبائع الألمان ، بيد أن ما كان منسياً من القسوة في أيام السلم لتعذر إبدائه لم يزُلْ ، فظلَّ التراثُ سليماً .

ومن الطبيعي أن تظلَّ المُعضلة التي أثارها اختلاف العروق وما ينبجم عنه من نفورٍ باقين بعد الحرب ، فيكون أشدَّ المصاعب في المستقبل تعديل زمر الأمم المتحاربة في جميع أوربة ولا سيما بلاد البلقان .

وتبدو صعوبة تلك المُعضلة عند النظر إلى وحدة الدين واللغة والمصالح بأشدَّ مما قد تبدو في قيام القومية على العرق وإن كان على وجه أبسط من ذلك في هذه الحال ، ومما يؤسف عليه في أمر دوام السلم الأوربية القادمة أن كان من النادر اجتماع هذه العناصر الأربعة في أمة واحدة .

ولطويل زمن سيظلُّ تباين العروق مصدرَ اصطراع بين الأمم الناقصة التمدن على الخصوص كأهم البلقان التي لم يسطع شئ أن يسكن أحقادها المتأصلة .

ولا يُؤثِّرُ الزمان في تباين العروق إلا بأقصى البطوء ، وإذا لاح أحياناً تَغْيَرُ أمة فإن بعض الأحوال لا يَلْبَثُ أن يكشف أن هذه التغيرات لم تكن في غير الظاهر وأنها لم تتناول غيرَ ما في الشخصية من النواحي الثانوية .

ولا تكفى تَقَلُّبَاتُ البِيئَةِ ولا الفُتُوحُ لتغْيِيرِ روح الشعب ، ولا يمكن تَحَوُّلُ الشعب إلا بالتوالد المكَرَّر ، وما كانت الأرض ولا النُظُم ولا الدِّيانة لتغْيِيرِ روح العِرْق .

على أن التوالد لا يكون مؤثراً إلا إذا وقع بين أم ذاتِ نفسية متقاربة ، والتوالد لا يكون إلا مُضْراً بين أم ذاتِ نفسية شديدة الاختلاف ، ولا يكون لتزاوج البيض والسود والهندوس والپُورُوج (أصحابِ الجلود الحُمْر) نتيجة سوى انحلال ما في حصائل هذا التزاوج من عناصر الثبات النفسى الموروثة ، وذلك من غير إحداث ما يقوم مقامها ، وتظلُّ قيادة الأمم المُولدة ، كأمم المكسيك وأمم الجمهوريات الإسبانية الأمريكية ، أمراً متعذراً لأنها مُولدة فقط ، وقد أثبتت التجربة أن أىَّ نظام أو تربية لم يَقْدِرْ على إخراج هذه الأمم من القوضى .

قلنا آنفاً إن من أسباب الحرب الأوربية الرئيسة هو ما تَسَرَّبَ في أدمغة الألمان بالتدريج من الفكر القاتل إن الألمان قومٌ عَالُونَ أُعِدُّوا لفتح العالم .

وإني ، حين درست في أحد فصول هذا الكتاب أمر انتشار الأفكار وتأثيرها في حياة الأمم ، بَيَّنْتُ كيف أن الفكر لا يُعَمَّمُ أن يكون ذا سلطان على طبقات الأمة العميقة قِيَعْدُوْ كالسيل المنهر بعد أن يلزم المِنطَقَةُ النظرية المُتَحَوِّلة للرأى الصَّرف ، وهناك لا يستطيع الزعماء الذين أَبْدَوْهُ أن يَسُدُّوا مجراه ، والزعماء هم الذين يأتون

بناحية الفكر المجردة ، والجماعة هي التي تُحوّل الفكر إلى أعمال .

وبذلك الجهاز قام اعتقادُ ألمانية الحديثة بأفضليتها كما قامت عبادتها للقوة ، وما انفكت كتيبة من الأساتذة والفلاسفة والكتّاب والجمعيات الوطنية تنشر في ألمانية مثل الصدارة الأعلى والتعطش إلى الفتح منذ خمسين سنة .

وببطء ، ولكن مع قوة ، نفذت تلك النظريات في روح الشعب الألماني فلم تنشب أن صارت من العقائد ذات المسحة الدينية ، وما فتئت ألمانية تبدو قناعة بأن الله دعاها إلى تجديد العالم واستغلاله .

نمّا ذلك المعتقد ، واتفق له من القدرة ما شهّر الإمبراطور به الحرب في زمن لو نظر فيه إلى أن أسطوله أدنى من أسطول إنكلترة لرأى عدم استعدادها ولوجد أن الانتظار خير من الإقدام عليها لاريب .

وأظهرت الحوادث الحاضرة صواب كثير من المبادئ الأخرى المعروضة في هذا الكتاب ، ومن ذلك أنني حين درست ما تمّ في القرون القديمة من مختلف الفتوح ، ولا سيما فتح الرومان لبلاد اليونان ، سألت عن استطاعة بعض الملكات المتوسطية إذا ما تصرف فيه مثل عالٍ قوى أن يمنح إحدى الأمم قدرة على تقويض حضارات رفيعة عند ما يكون نمو هذه الحضارات الذهني قد أبطل صفات الخلق .

والمستقبل سيخبرنا بقدرة ألمانية على تحقيق تلك السّنة التاريخية التي وردها كثير من البلدان القديمة كمصر وفارس واليونان وإيطالية إلخ .

أَجَلٌ ، إنك لا تجدُ خلفاء للعطاء الذين شَرُفَتْ بهم أُمَانِيَة فِيمَا مَضَى ، بَيِّنْ أَن أُمَانِيَة عَلِمَتْ نِظَامَ المَرَاتِبِ وَعَرَفَتْ أَن تَنْتَفِعَ بِجَمِيعِ قُوَاهَا مَهْمَا صَغُرَتْ ، وَأُمَانِيَة اسْتَطَاعَتْ بِفَضْلِ نِظَامِهَا الحَرْبِيَّ الشَّدِيدِ أَن تَجْعَلَ مِنْ تَقَعِ أُنْسَانُهَا المَتَوَسِّطِينَ كِتْلَةً هَائِلَةً مَهْدَدَةً لِسَلَمِ العَالَمِ .

وَفِي المَسْتَقْبَلِ سَتَكُونُ مُعْضِلَةُ الحَيَاةِ لَدَى الأُمَمِ ذَاتِ الحَضَارَاتِ الرَفِيعَةِ أَن تُنْضِدَ فَوْقَ ثَقَافَتِهَا الذَهْنِيَّةِ تَرْبِيَةً لِلخَلْقِ صَارِمَةً وَتَدْرِييًّا لِلإِرَادَةِ عَلَى الخُصُوصِ ، تَبِينُكَ القُوَّتَيْنِ القَادِرَتَيْنِ عَلَى ضَمَانِ اسْتِقْلَالِ الأُمَمِ .

وَمِمَّا قَلَّتْهُ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي هَذَا الكِتَابِ وَفِي كُتُبٍ لَاحِقَةٍ أُخْرَى أَن قُوَّةَ الأُمَمِ بِأَخْلَاقِهَا لَا بِذِكَائِهَا ، وَالذِّكَاؤُ يُسَاعِدُ عَلَى البَحْثِ فِي أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ وَالاِتِّفَاعِ بِقُوَاهَا ، وَالأَخْلَاقُ تُعَلِّمُ السَّيْرَ وَمُكَافَحَةَ ضُرُوبِ الِاعْتِدَاءِ بِنِجَاحٍ .

وَمِنْ رُكَاةٍ خَفِيٍّ مَوْرُوثٍ تَتَكُونُ صِفَاتُ الخُلُقِ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْ مَجْمُوعِهَا مَا لِإِحْدَى الأُمَمِ مِنْ رُوحٍ قَوْمِيَّةٍ ، وَمِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ تَتَرَكَّبُ مَجْمُوعَةٌ ثَابِتَةٌ مِنَ المِشَاعِرِ وَالتَّقَالِيدِ وَالمَعْتَقَدَاتِ مُشْتَرَعَةٌ فِي غَضُونِ الأَجْيَالِ لِمُضْرُورَاتٍ تَخْضَعُ لَهَا حَيَاةُ كُلِّ أُمَّةٍ .

وَيَتَطَلَّبُ بِنَاءُ الرُّوحِ القَوْمِيَّةِ عِدَّةَ قُرُونٍ عَلَى العُمُومِ ، وَالرُّوحُ القَوْمِيَّةُ إِذَا مَا رَسَخَتْ ظَلَّتْ فِي مَا مَنَّ مِنْ كُلِّ مَسٍّ طَوِيلَ زَمَنِ ، وَقَدْ حَاطَ عَمَلُ الثَّوْرَةِ الفَرَنْسِيَّةِ الكُبْرَى فِي تَغْيِيرِ رُوحِ فَرَنْسَا عَلَى مَا تَذَرَعَتْ بِهِ هَذِهِ الثَّوْرَةُ مِنْ أَقْسَى الوَسَائِلِ ، فَلَمْ تُعَمِّمْ مَوْثِرَاتِ المَاضِي أَن بَدَتْ ثَانِيَةً فَأَدَّتْ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ رَجْعَةٍ بَعْدَ دَوْرِ الِانْقِلَابَاتِ .

وحوادث مهمة كتلك تترك بعض الأثر في روح الأمة لا ريب ، غير أن التحولات لا تكون عميقة إلا بفعل تقلبات البيئة .

وقد ألمعت إلى سبب ذلك في هذا الكتاب بأن ذكرت وجود عناصر ثانوية بجانب جهاز روح العرق الأساسي تُوجب ظهور شخصيات جديدة ، ولنا في الثورة الفرنسية وفي الحرب الأوربية أمثلة كثيرة على ذلك .

وفي تلك الحرب ظهر تحول الشخصيات ذلك واضحاً إلى الغاية ، وبدا ذلك التحول في فرنسة بغتة ، ففيها صرت تبصر أسمى الثوريين قد غداً من ذوى الحمية الوطنية ، وفيها صرت تبصر أشد الناس وجلاً قد غداً من ذوى الإقدام ، وفيها صرت تبصر الأحزاب المتناحرة قد جمع بينها فكر عام .

وما كان التحول أقل عمقاً من ذلك في إنكلترة ، وإن كان أكثر ثوذة ، فقد عدلت إنكلترة التي هي أشد الأمم تمسكاً بالتقاليد عن كل نفرة من الحياة العسكرية ونسيت منازعها إلى الحرية متخذة روحاً جديدة ملائمة لمقتضيات الساعة ، والحق أن ملائمة أحوال العيش المفاجئة لا تكون إلا وئيدة في أمة استقرت روحها بعوامل موروثة كررت زمناً طويلاً على معنى واحد .

أجل ، يَمْنَح ذلك الثبات في الروح القومية الأمة قوة عظيمة ، ولكنه قد يصبح شؤماً عليها إذا ما استقر كثيراً فيها ، فالأمة التي لا تقدر على ملائمة مقتضيات العيش الجديدة تنحط لعدم المرونة .

ومن الطبيعي أن تتضمن الملائمة اكتساب أفكار جديدة ومشاعر جديدة ، ومن ثم طابع جديدة ، والتحولات التي تنشأ على هذا الوجه لا تدوم إلا إذا

ثَبَّتَتْ مادامت وليدة تَقْلِبَاتِ البيئَةِ ، وكلُّ يَعْلَمُ درجةَ انزواءِ الشخصياتِ التي صَدَرَتْ عن تلكِ الروايةِ الثَّوْرِيَةِ الفاجعةِ ، فلما هَدَأَتْ تلكِ الزَّوْبَةُ لم يَلْبَثْ أولئكُ الذينِ نَعَتَهُمُ الأُسْطُورَةُ بالجَبَابِرَةِ لِمَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ أَقْسَى أَعْمَالِ القَتْلِ نَصْراً لِفَرَضِهِمْ أَنْ عَادُوا مِنْ أبنَاءِ الطَّبَقَةِ الوَسْطَى المَسَالِمِينَ والتَّجَارِ المَهادِّينَ والموظِّفِينَ الوَادِعِينَ وَبَدَّوْا أَوَّلَ مَنْ دُهِشَ مِنَ التَّحَوُّلِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى رُوحِهِمْ .

ومِمَّا لَامَرَاءُ فِيهِ أَنْ تَحَوَّلَ الشَّخْصِيَّاتِ الَّذِي أدَّتْ إِلَيْهِ الحَرْبُ الأُورِيبِيَّةُ سَيَكُونُ ذَا نَتَائِجٍ أَكْثَرَ دَوَاماً مِنْ ذَلِكَ لَمَسَّ جَمِيعَ المَصَالِحِ فِي الحَاضِرِ وَتَهْدِيدِهَا فِي المُسْتَقْبَلِ ، وَسَيَكُونُ التَّهْدِيدُ القَادِمُ هَذَا عَامِلاً قَوِيّاً فِي تَحْوِيلِ رُوحِ كَثِيرٍ مِنَ الأَجْيَالِ .

وسَيُظَلُّ التَّهْدِيدُ قَائِماً زَمَناً طَوِيلاً لَارِيبَ ، وَسُتَكْرَّرُ الحُرُوبُ بَيْنَ الأُمَمِ ذَاتِ الرُّوحِ والأَمَانِي والاحتِياجَاتِ المتبَايِنَةِ حَتَّى ، وَسَتَعْقِبُ المَنَافَسَاتُ الاقْتِصَادِيَّةُ المَنَازَعَاتِ الحَرِيَّةَ فِي المُسْتَقْبَلِ مَنَاقِبَةً .

وَقَدْ بَدَتْ ضَرُورَاتٌ جَدِيدَةٌ فَتَجِبُ مَلَأَتُهَا خَشْيَةُ الزَّوَالِ .

وَهَلْ يَدُومُ بَعْدَ السَّلْمِ مَا فَرَضَتْهُ الحَرْبُ مِنَ الاتِّحَادِ ؟ وَهَلْ يُغْلَقُ إِلَى الأَبَدِ دَوْرُ الانْقِسَامَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ المُقَدَّرِ ؟ وَهَلْ نَرَى ظُهُورَ الأَحْقَادِ الفُظْيَعَةِ الَّتِي أَوْجِبَهَا المُنْفِيهِقُونَ المَشْؤُومُونَ المُضْحَكُونَ بِمَصْلَحَةِ الوَطَنِ فِي سَبِيلِ مَآرِبِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ ؟ إِنْ إلْغَاءُ المَنَازَعَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ هُوَ شَرْطُ أُسَامَى حَيَاتِنَا القَوْمِيَّةِ ، وَنَحْنُ نَكُونُ عَاجِزِينَ عَنِ مَقَاتِلَةِ أَعْدَائِنَا فِي الخَارِجِ إِذَا مَا وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَقَاتِلَ أَعْدَاءَنَا فِي الدَّاخِلِ .

وإذا ما وازنت خصائلُ عرقنا مساوئَه قرَّرتجاهُه مصيرَه ، ولا حياة لنا بغير
محالفات متينة في الخارج وسِلْم ثابتة في الداخل ، وما ينبغي لمجتمع لا يتمتع بالسِّلْم
الداخلية أن يعيش طويلَ زمن ، وارْجِعِ البصرَ إلى أغارقة القرون القديمة فإلى
بولوني الزمن الحديث تجدِ الأممَ التي لم تَعْرِفْ أن تَكُفَّ عن انقساماتها قد غرقت
في العبودية وأضاعت حتى حقَّها في أن تكون ذاتَ تاريخ .

مايو سنة ١٩١٦

المقدمة

مبادئ المساواة في الزمن الحاضر

وعوامل التاريخ النفسانية

ظهور مبدأ المساواة وتقدمه — نتائجه — ماذا كلف تطبيقه —
تأثيره الراهن في الجماعات — المسائل التي نعالجها في هذا الكتاب —
البحث عن أهم العوامل في تطور الأمم العام — أيشق هذا التطور من
النظم؟ — أليس لعناصر كل حضارة من نظم وفنون ومعتقدات إلخ، أسس
نفسية خاصة بكل أمة؟ — مصادقات التاريخ والسنن الثابتة.

تقوم حضارة كل أمة على عدد قليل من المبادئ الأساسية، ومن هذه المبادئ
تُسَمَّى نُظُمُهَا وآدابها وفنونها، وهذه المبادئ تتكون ببطء كبير كما أنها تزول ببطء
كبير، وهي إذا غدت منذ زمن طويل من الأغاليط الواضحة لدى أصحاب النفوس
المتفككة ظلت عند الجماعات من الحقائق التي لا جدال فيها واستمرت على عملها في
أعمق طبقات الأمم، والمبدأ الجديد وإن صعب فرضه لا يقلُّ فرضه هذا صعوبة عن
القضاء على مبدأ قديم، فالبشرُ يَتَشَبَّثُونَ تشبثاً قاطعاً بالمبادئ الميتة والآلهة الميتة
على الدوام.

ولم يكد يمرُّ قرنٌ ونصفُ قرنٍ على الزمن الذي قَدَفَ العالمَ فيه بمبدأ المساواة
بين الأفراد والشعوب فلاسفةٌ جاهلون كلَّ الجهل لتاريخ الإنسان القُطْرِيِّ واختلافِ
مزاجه النفسيِّ وسُنَنِ الوِراثة.

✓ وقد انجذبت الجماعاتُ إلى ذلك المبدأ كثيراً فلم يَلْبَثْ أن رَسَخَ في نفوسها وآتى أكله ، أى إنه زَعَزَعَ أُسُسَ المجتمعات القديمة وأدى إلى أشدِّ الثورات هَوَلاً ، ورَمَى العالمَ الغربىَّ فى سلسلة من الاضطرابات العنيفة التى تستحيل معرفة مَدَاهَا .
ومما لا ريب فيه أن بعض الفروق التى تَفْصِلُ الأفراد والعروق كانت من الوضوح ما لا تحتل الجدَل الجدِّىَّ معه ، ولكنه اعتُقِدَ بسهولة أن تلك الفروق هى وليدة اختلاف فى التربية ، وأن الناس يُؤَلِّدُونَ متساوين صالحين ، وأن النُّظْمُ هى التى أَفْسَدَتْهُمْ ، ولذلك بَدَأَ الدواء بسيطاً ، وهو أن تُجَدِّدَ النُّظْمُ وَيُمنَحَ الناسُ تعليمًا واحداً ، وهكذا لم تُعَمِّمِ النُّظْمُ والتعليم أن صارَا تَرْيَاقَ الديمقراطية الحديثة ووسيلةَ معالجة التفاوت المناقض للمبادئ الخالدة التى هى آخرُ الآلهة فى الزمن الحاضر .

والعلمُ قد تقدم بالحقيقة فأثبت فساد نظريات المساواة وأنه لا يمكن مَلءُ الهُوَّةِ النفسية التى أوجدها الماضى بين الأفراد والعروق إلا بتراكم الوِراثة البطيء إلى الغاية ، ومما دَلَّنَا عليه علم النفس الحديث بجانب دروس التجربة القاسية هو أن النُّظْمَ والتربية التى تَلَأُمُ بعض الأفراد والأمم تكون بالغة الضرر لأفراد آخرين وأمم أخرى ، وليس مما يَقْدِرُ عليه الفلاسفة أن يُبْطِلُوا مبادئ سَرَتْ فى العالم إذا ما قالوا بفسادها ، فالفكرُ يتبع سَيْرَه المَخْرَبُ ، ولا شىء يَعُوقُ مجراه ، وهو فى ذلك كالنهر الزاخر الذى لا يَحْبِسُهُ سَدٌّ .

ومبدأ مساواة الناس الوهمىُّ ذلك هو الذى قَلَبَ الدنيا وأحدث فى أوربة ثورةً عظيمة وأوقع أمريكا فى حرب الانفصال الدامية وساق جميع المستعمرات الفرنسية إلى حال محزنة من الانحطاط ، ولا تَجِدُ عالِماً نفسياً ولا سائحاً ولا رجلاً سياسياً على

شئ من الثقافة لا يعلم خطأ ذلك المبدأ ، وقليل من هؤلاء من يجروا على مكافئته مع ذلك .

ويداوم مبدأ المساواة على نموه ، وهو لا يزال بعيداً من دخوله دور الأفلو ، وباسم هذا المبدأ تزعم الاشتراكية التي تُعبدُ مُعظم أمم الغرب عما قليل كما يظهر أنها تنشر ألوية السعادة بين هذه الأمم ، وباسم هذا المبدأ أيضاً تطالب المرأة بمثل حقوق الرجل وبمثل تعليمه غافلة عن الفروق النفسية العميقة التي تفصلها عنه ، والمرأة إذا ما كُتِب لها النصر في ذلك جعلت من الأوربي بدوياً لا منزل له ولا أسرة .

ولا تبالي الأمم أبداً بما أسفرت عنه مبادئ المساواة من الانقلابات السياسية والاجتماعية ، كما أنها لا تبالي بما تتمخض عنه هذه المبادئ من نتائج أشدّ خطراً من تلك ، واليوم غدت الحياة السياسية لرجل الدولة من القصر ما لا يبالي هذا الرجل معه بها أكثر من مبالاة الأمم تلك ، على أن الرأي العام صار صاحب السيادة فأصبح من المتعذر عدم اتباعه .

وليس لأهمية الفكر الاجتماعية مقياسٌ حقيقى غير ما يكون له من السلطان على النفوس ، وليس لدرجة ما فى الفكر من الصواب أو الخطأ نفعٌ إلا من الناحية الفلسفية ، والفكر الصائب أو الخاطئ إذا ما اكتسب فى الجماعات طوراً المشاعر وجب أن يخضع بالتتابع لجميع النتائج التى تصدر عنه .

إذن ، يسار إلى تحقيق خيال المساواة الحديث بطريق التعليم والنظم ، ونحن حين نزعم تقويم ما فى سنن الطبيعة من جور بفضل التعليم والنظم ، نحاول أن نصب فى قالب واحد أدمغة زنوج المارتينيك والغوادلوپ والسِنغال وأدمغة عرب الجزائر وأدمغة سكان آسية ، وما لا شك فيه أن تحقيق هذا الخيال أمر متعذر ،

ولكن التجربة وحدها هي التي تكشف عما في الأوهام من خطر ، والعقل يبدو على الدوام عاجزاً عن تحويل عقائد الناس .

وغاية هذا الكتاب هي وصف الأخلاق النفسية التي تتألف منها روح العروق ، وبيان كيفية اشتقاق تاريخ الأمة وحضارتها من تلك الأخلاق ، ونحن ، إذ ندع الجزئيات جانباً أو لا نلجأ إليها إلا عند الضرورة تسويغاً للمبادئ المعروضة ، نبحث في تكوين العروق التاريخية ومزاجها النفسي ، أي في العروق المصنوعة التي تكونت منذ أزمنة ما قبل التاريخ بفعل مصادفات الفتوح أو بفعل الهجرة أو بفعل التحولات السياسية ، ونسعى في إثبات صدور تاريخها عن ذلك المزاج النفسي ، وسنحاول اكتشاف سيرة الأفراد والأمة نحو المساواة أو ميل الأفراد والأمة إلى التفاوت مقداراً فمقداراً ، وسنرى بعد ذلك : هل تكون العناصر التي تتألف منها الحضارة أي الفنون والنظم والمعتقدات مظاهر مباشرة لروح العروق وأن تلك العناصر لا تستطيع أن تنتقل من أمة إلى أخرى لهذا السبب ؟ ثم نختم كتابنا بأن نسعى في تعيين الضرورة التي تدوى بها الحضارات وتنطفئ ، وقد أسهبت في إيضاح هذه المسائل في كتيبي عن حضارات الشرق فلا أصنع في هذا الكتاب غير إجمالها .

وأوضح انطباع اتفاق لي من سياحاتي البعيدة في مختلف البلدان هو أن لكل أمة مزاجاً نفسياً ثابتاً ثابت صفاتها التشريحية فنشتق منه مشاعرهم وأفكارهم ونظمهم ومعتقداتهم وفنونهم ، ومما اعتقدهم ثوكفيل وغيره من المفكرين المشهورين وجود سبب تطور الأمم في نظمها ، وتراني أرى العكس فأرجو أن أثبت أن للنظم في تطور الحضارات تأثيراً ضعيفاً إلى الغاية ، فالنظم معلولات في الغالب ، وهي قلما تكون عللاً . ولا مرأى في أن هنالك عوامل مختلفة تعين تاريخ الأمم ، وأن التاريخ مملوء

بأحوال خاصة وبعوارض كانت وكان من الممكن ألا تكون، بيد أنه وجد بجانب هذه المصادفات وهذه الأحوال العارضة سُنَنٌ عظيمة ثابتة توجّه سير كل حضارة، وأكثر هذه السُنَن شمولاً وأشدّها قسراً هو ما يصدر عن مزاج العروق النفسى، وما حياة الأمة ونُظُمها ومعتقداتها وفنونها إلا لُحْمَةٌ ظاهرة لروحها الخفية، وما على الأمة التى تودّ تحويل نُظُمها ومعتقداتها وفنونها إلا أن تحوّل روحها فى بدء الأمر، وما على الأمة التى ترغب فى دخول حضارة إلا أن تُدْخِلَ إلى هذه الحضارة روحها أيضاً، وليس هذا ما يُعلِّمه التاريخ لا ريب، غير أننا سنثبت بسهولة أن التاريخ يكون قد خدع بظواهر باطلة حينما يُسجِّل مزاعم مخالفة لذلك.

وقد حاول المصلحون الذين تعاقبوا منذ قرن أن يُبدِّلوا كلَّ شيء، أى أن يُبدِّلوا الآلهة والأرض والناس، وهم لم يستطيعوا صنع شيء فيما أثبتته الزمان من الأخلاق المتأصلة فى روح العروق.

ويخالف مبدأ الفروق الثابتة التى تفصل بين الأشخاص مبادئ الاشتراكيين المعاصرين مخالفة تامة، وليس مما تستطيعه معارف العلم أن تحمِل رُسل العقيدة الحديثة على ترك الأوهام، وما جهود هؤلاء الرُسل إلا وجهٌ جديد لما تشنه البشرية من حرب صليبية لنيل السعادة: لنيل كنز هِسْپِرِيد الذى ما فتئت الأمم تبحث عنه منذ فجر التاريخ، وربما لم تكن أوهام المساواة أقلَّ قيمةً من الأوهام القديمة التى سیرتْنا فيما مضى لو لم تصطدم بصخرة التفاوت الطبيعى المنيع، والتفاوت مع الهرم والموت جزء من المظالم الظاهرة التى ترى الطبيعة مملوءة بها فلا بد للإنسان من معاناتها.

البَابُ الْأَوَّلُ

صِفَاتُ الْعُرُوقِ الْإِنْسَانِيَّةِ

كتاب الصلاة

كتاب الصلاة

الفصل الأول

روح العروق

كيف يقسم الطبيعيون الأنواع — تطبيق مناهجهم على الإنسان — وجه العيب في التقسيم الحاضر للعروق البشرية — أسس التقسيم النفسى — المثل المتوسطة للعروق — كيف يؤدى البحث إلى تبين تلك المثل — العوامل النفسية التى تؤدى إلى تعيين مثال العرق المتوسط — تأثير الأجداد والأبوين — ما عند أفراد العرق من أسس نفسية مشتركة — تأثير الأجيال الغابرة العظيم فى الأجيال الحاضرة — أسباب هذا التأثير الرياضية — كيف امتدت الروح الجامعة من الأسرة إلى القرية فى المدينة فى الإقليم — محاسن مبدأ المدينة ومضاره — الأحوال التى يتعذر معها تكوين روح جامعة — مثال إيطالية — كيف حلت العروق التاريخية محل العروق الطبيعية .

يستند الطبيعيون فى تقسيمهم للأنواع إلى مشاهدتهم بعض الصفات التشريحية التى تظهر منتظمة ثابتة بالوراثة ، واليوم نعلم أن هذه الصفات تتحول بتبدلاتٍ غير محسوسة تتراكم وراثَةً ، ولكننا إذا نظرنا إلى الأرمنة التاريخية القصيرة وحدّها أمكننا أن نقول إن الأنواع لا تتغير .

ومناهجُ الطبيعيين فى التقسيم حين طبّقت على الإنسان أظهرت لنا أمثلةً متمايزة ، وهى حين استندت إلى الصفات التشريحية الواضحة ، كلون البشرة وشكل الجمجمة وحجمها ، أمكنها أن تقرّر اشتمال الجنس البشرى على أنواع مختلفة متغيرة إلى الغاية متباعدة الأصول على ما يحتمل ، ويرى العلماء المحافظون على التقاليد الدينية أن هذه الأنواع هى العروق فقط ، ولكن الأمر هو كما قيل بحق ، « أن الزنجى والفقاسى »

إذا كانا من فصيلة الحُزُون فإن علماء الحيوان يُقرّرون بالإجماع أنهما نوعان مختلفان لا يمكن أن يُولدا من زوجين افترقا عنهما بالتدريج .

ولا تحتل تلك الصفات التشريحية ، ولا سيما التي يمكن أن تنالها يد التحليل ، غير تقسيمات عامة موجزة ، ولا يظهر اختلافها إلا في الأنواع البشرية البادية التباين كالبيض والزواج والصُفر مثلاً ، غير أن هنالك أمماً كثيرة التشابه من الناحية الجُثمانية شديدة الاختلاف في شعورها وسيرها ، ومن ثمّ في حضاراتها ومعتقداتها وفنونها ، أفيُمكن أن يُنظّم الإسباني والإنكليزي والعربي إلى زمرة واحدة ؟ ألا تبدو الفروق النفسية بينهم لكلّ ذي عينين ؟ ألا تُقرأ هذه الفروق في كلّ صفحة من تاريخهم ؟

وقد أُريدَ ، عند عدم الاختلاف في الصفات التشريحية ، أن يُستند في تقسيم بعض الشعوب إلى عناصر مختلفة كاللغات والمعتقدات والزُمر السياسية إلخ ، بيد أن تقسيمات كهذه مما لا يقيف أمام سلطان البحث .

وما عَجَزَ التشريح واللغات والبيئة والزُمر السياسية عن تقديمه من عناصر التقسيم فقد عَرَضَه علينا علم النفس ، وعلم النفس هذا يدلّ على أنه يوجد خلف نُظْم كلّ أمة وفنونها ومعتقداتها وانقلاباتها السياسية ما يصدّر عنه تطور هذه الأمة من صفات خلقية وذهنية ، ومن مجموع هذه الصفات يتألف ما يُسمّى روح العِرْق .

ولكلّ عِرْق مزاجٌ نفسيٌّ ثابتٌ ثابتٌ بنيتهِ التشريحية ، ولا نرى ما يدعو إلى الشكّ في وجود نسب بين المزاج النفسي وتركيب الدماغ ، ولكن العلم لم يبلُغ من التقدم ما يكتنّه به هذا التركيب ، ولذلك يتعذر علينا اتخاذه أساساً للبحث ،

وهذا إلى أن معرفة ذلك التركيب لا تُغيّر شيئاً من وَصْف المزاج النفسى الذى يُشْتَقُّ منه فتبديه لنا المشاهدة .

والصفاتُ الخَلْقِيَّةُ والذهنية التى يتألف من اقترانها روح الشعب هى عنوانٌ لمُلخِصة ماضيه وتُراث أجداده وعوامل سَيْرِهِ ، وفى بعض الأحيان تلوح تلك الصفاتُ أولَ وهلةٍ كثيرةَ القلب لدى أفراد العرق الواحد ، غير أن البحث الدقيق يدلُّ على اتصاف مُعْظَم أفراد هذا العِرْق فى كلِّ وقت بصفاتٍ نفسيةٍ مشتركةٍ ثابتةٍ ثبات الصفات التشريحية التى تُتَخَذ فى تقسيم الأنواع ، والصفات النفسية كالصفات التشريحية تنتقل بالوراثة انتقالاً منتظماً مستمرّاً .

ويتألف من اجتماع تلك العناصر النفسية التى تُشاهد لدى جميع أفراد العِرْق ما نرى من الصواب تسميته بالخلق القومى ، ومن مجموع تلك العناصر يتكوّن المثل المتوسط الذى تتمكن به من تعريف الشعب ، ونحن إذا ما أخذنا اتفاقاً ألفَ فرنسى أو ألفَ إنكليزى أو ألفَ صينى فإننا نجدُ بينهم اختلافاً كبيراً ، ومع ذلك تراهم حائزين بما وَرِثوه عن عِرْقهم صفاتٍ مشتركةٍ يمكن أن يستعان بها لتكوين مثال فرنسى أو إنكليزى أو صينى مائلاً للمثال الخيالى الذى يَعْرِضه العالم الطبيعى عند ما يَصِف الكلب أو الفرسَ وصفاً عاماً ، وإذا ما طُبِّق مثلُ هذا الوصف على أجناس الكلب أو الفرس فإنه لا يشتمل على غير الصفات المشتركة بين هذه الأجناس ، لأعلى الصفات التى يَتَمَيَّز بها كلُّ جنس من هذه الأجناس .

والمثالُ المتوسطُ للعِرْق ، الذى هو على شئ من الكِبَر ومن التجانس لهذا السبب ، يكون من الواضح ما يَسْتَقَرُّ معه بنفس الباحث من فَوْرِهِ .

ونحن إذا زُرْنَا شعباً غريباً أبصرنا أن الصفاتِ الوحيدة التى يمكن أن تَقَفْ



نظَرنا هي الصفاتُ المشتركة بين جميع سكان البلد المُطافِ فيه لتكرارِها باستمرارٍ ،
ونحن تفوتنا الفروق الفردية فيه لتكرارها القليل ، ونحن ، فضلاً عن تمييزنا الإنكليزيَّ
أو الإيطاليَّ أو الإسبانيَّ عند أول نظرة ، لا نلبث أن نغزو إلى هؤلاء بعضَ
الصفات الخلقية والذهنية التي هي عينُ الصفات الأساسية المذكورة آنفاً ، ونحن
نرى الإنكليزيَّ أو العسكونيَّ أو الثورمنديَّ أو الفلامنديَّ من مثالِ حسنِ
الاستقرار بذهننا فيمكننا وصفه بسهولة ، وهذا الوصفُ يكون ناقصاً في الغالب غيرَ
صحيح في بعض الأحيان عند تطبيقه على الشخص المنفرد ، وهو يكون تاماً عند
تطبيقه على مُعظم أفراد عِرْقٍ من تلك العروق ، وما يكون في ذهننا من جهدٍ
لا شعوريَّ لتعيين المثال الجُمائيِّ والنفسىِّ في إحدى الأم هو في جوهره عينُ
المِنهاج الذي يُقسَّم العالمُ الطبيعيُّ به الأنواع .

ولذلك التماثل في المزاج النفسىِّ عند مُعظم أفراد العِرْق الواحد أسبابٌ فيزيولوجية
بسيطة جداً ، وبيانُ الأمر أن كلَّ إنسان لا يُمثِّل بالحقيقة ثَمرةَ آباءه القريبين فقط ،
بل يُمثِّل ثَمرةَ عِرْقِهِ أيضاً ، أى جميع سلسلة أجداده ، وقد أحصى العالمُ الاقتصاديُّ
مسيو شيسون مقدارَ ما يجرى في عروق كلِّ فرنسىٍّ من الدماء فوجد أنه دَمُ عشرين
مليوناً من معاصري سنة ١٠٠٠ ناظراً إلى اشتغال كلِّ قرن على ثلاثة أجيال ، ومن
قوله : « ان سكان كلِّ ناحية أو كلِّ إقليم يشتركون في أجدادهم بحكم الضرورة
إذن ، وإن أولئك السكان من طينةٍ واحدة وذوو طابع واحد ، وانهم صائرون
دوماً إلى المثال المتوسط بفعل تلك السلسلة الطويلة الثقيلة التي لم يكونوا غيرَ حَلَقَاتِهَا
الأخيرة ، فنحن أبناء آباءنا وعِرْقنا معاً ، وليس الشعور وحده هو الذي يجعل لنا من
الوطن أمّا ثانية ، بل الخواصُّ الجُمائيةُ والوراثةُ تُؤدِّي إلى ذلك أيضاً » .

والمؤثرات التي يخضع لها الفرد وتوجه سيره ثلاثة أنواع ، فالنوع الأول ، وهو أهمها لأريب ، هو تأثير الأجداد ، والنوع الثاني هو تأثير الآباء القريبين ، والنوع الثالث ، وهو الذي يُعتقد أنه أقوى العوامل مع أنه أضعفها على العموم ، هو تأثير البيئات ، وإذا عدّدت الانقلابات المفاجئة العميقة التي تحدث في المحيط وجدت البيئات ، وما تنطوى عليه من مختلف المؤثرات الفيزيائية والأدبية التي يخضع الإنسان لها مادام حياً ولا سيما في إبان تربيته ، لا تؤدي إلى غير تغيير ضئيل ، والبيئات لا تؤثر بالحقيقة إلا عند مآثر كمها الوراثة في صعيد واحد زمنياً طويلاً . والإنسان مهما كان صنعه هو ممثّل عرقه في كلّ وقت وقبل كلّ أمر إذن ، ومن اجتماع ما يأتي به أفراد البلد الواحد من الأفكار والمشاعر حين يولدون تتألف روح العرق ، وهذه الروح وإن كانت خفية في جوهرها ظاهرة كثيراً في آثارها ، وهي تسيطر على تطور الأمة بالحقيقة .

ويمكن تشبيه العرق بمجموع الخليّات التي يتألف منها ذو الحياة ، ووجه الشبه هو أن حياة مليارات الخليّات هذه قصيرة جداً ، وأن حياة الجسم الذي يتكون من اجتماعها طويلة إلى الغاية إذا ما قيست بتلك الحياة ، وأن لتلك الخليّات حياة شخصية وحياة مشتركة في الجسم الذي يتركب منها ، وأن لكل فرد في العرق الواحد أيضاً حياة قصيرة جداً وحياة مشتركة طويلة إلى الغاية ، فهذه الحياة الطويلة هي حياة العرق الذي وُلد منه ذلك الفرد فيساعد على دوامه ، وهو تابع له على الدوام .

إذن ، يجب عدّ العرق موجوداً دائماً محرّراً من الزمان ، ولا يتركب هذا الموجود الدائم من الأفراد الأحياء الذين يتألف منهم في زمن معين فقط ، بل يتركب أيضاً من سلسلة الأموات الذين كانوا أجداداً له ، ولا بدّ من الامتداد إلى العرق في

الماضى وفى المستقبل معاً لإدراك معناه الحقيقى ، وإذ كان الأموات أكثر من الأحياء بما لا يُحصى فإنهم أقوى من الأحياء بما لا يُحصى ، والأموات يُسيطرون على دائرة الاشعور الواسعة، تلك المنطقة الخفية التى يصدر عنها جميع مظاهر الذكاء والأخلاق، والشعب مُسيرٌ بأمواته أكثر مما بأحيائه ، وبالأموات وحدهم يقوم العرق ، والأموات فى القرن بعد القرن هم الذين أوجدوا أفكارنا ومشاعرنا ، ومن ثمَّ جميع عوامل سيرنا ، والأجيالُ الغابرة تَفْرِض علينا أفكارها فضلاً عن مزاجها الجُمَانِيّ ، والأموات وحدهم هم سادة الأحياء بلا جدال ، ونحن نحمل وزرَ خطايا الأموات ونقتطف ثمرة فضائلهم .

ولا يتطلب تكوين مزاج الأمة النفسى مثلاً يتطلبه تكوين أنواع الحيوان من العصور الجيولوجية الطويلة التى لا يُحصى لها عددٌ ، وهو يحتاج إلى زمنٍ غير قليل مع ذلك ، فقد اقتضى إحداثُ ما تتألف منه روحُ عرقنا من المشاعر والأفكار انقضاء أكثر من عشرة قرون مع ضعف ما انتهى إليه عرقنا من ذلك حتى الآن^(١) ، ومن المحتمل أن كان عملُ ثورتنا الكبرى المهمُّ هو تعجيل ذلك التكوين بالقضاء تقريباً

(١) هذا الزمن ، وإن كان طويلاً فى حولياتنا ، قصير بالحقيقة ، وذلك لاشتماله على ثلاثين جيلاً ، ودور قصير كذلك إذا ما كفى لتثبيت بعض الأخلاق فذلك لأن العلة الواحدة تؤدى إلى نتائج عظيمة جداً عندما تسير على وتيرة واحدة بعض الزمن ، ومما تثبته الرياضيات أن العلة ، إذا ما تكررت زمناً طويلاً فى معنى واحد ، زادت معلولاتها بنسبة هندسية (٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ إلخ) على حين لا تختلف العلة إلا على نسبة حسابية (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ إلخ) ، فالعمل على لوغاريتمات المعلولات ، وفى المسئلة المشهورة القائلة بتضعيف حبات القمح فى مربعات الشطرنج يكون رقم مراتب هذه المربعات لوغاريتم عدد حبات القمح ، وقل مثل هذا عن القروض ذات الفوائد المركبة حيث يكون النماء فى جعل السنين لوغاريتم رأس المال المتجمد ، ولثل هذه الأسباب يعبر عن معظم الحوادث الاجتماعية بمنحنيات هندسية متماثلة تقريباً ، وفى كتاب آخر وجدت أنه يمكن التعبير عن هذه المنحنيات من الناحية التحليلية بمعادلة القطع المكافئ أو القطع الزائد ، ويرى صديقى العلامة مسيو شيسون إمكان التعبير عنها فى الغالب بالمعادلة ذات الأس المتغير .

على ما كانت فرنسة مجزأةً بينه من القوميات الصغيرة كالليكار والفلامان والبورغون والعسكون والبريتان والبروتستانت إلخ ، وهيئات أن يكون هذا التوحيد قد تمّ ، وذلك لكثرة العروق التي تتألف منها والتي تؤدي بحكم الطبيعة إلى أفكار ومشاعر مختلفة أشدّ الاختلاف ، فترانا نطلّ ضحية الانقسامات التي لا تعرفها الأمم الأكثر تجانساً منا كالإنكليز مثلاً ، ولدى الإنكليز تُبصر السكسونيّ والنورمندیّ والبريطانيّ القديم قد انتهوا بالتمازج إلى تأليف مثال كثير التجانس متماثل السيّر ، ولم يلبث الإنكليز بفضل ذلك الامتزاج أن اكتسبوا الأسس الجهورية الثلاثة لروح الأمة ، وهي : وَحدة المشاعر ووَحدة المصالح ووَحدة العقائد ، والأمة إذا ما بلغت ذلك اتفق جميع أبنائها بالغريزة على جميع المسائل المهمة وعاد لا يبدو فيها كبير شقاق .

ووحدة المشاعر والأفكار والمعتقدات والمصالح تلك التي هي وليدة رواسب بطيئة موروثه تمنح مزاج الأمة النفسى تجانساً وثباتاً عظيمين ، وهي تمنّ على هذه الأمة بقوة كبيرة ، وفيها سرّ عظمة رومة في القرون القديمة وعظمة إنكلترة في أيامنا ، وإذا ما غابت الروح القومية انحلت الأمة ، وكانت خاتمة شأن رومة يوم أضاعت تلك الروح .

وتلك الشبكة من المشاعر والأفكار والتقاليد والمعتقدات الموروثة التي تتألف منها روح الزمرة قد وُجدت دوماً لدى جميع الأمم على درجات متفاوتة لا ريب ، غير أن نموّها التدريجيّ وقع بأقصى البطوء ، ولم تشمّل روح الزمرة جميع سكان البلد إلا مؤخراً بعد أن كانت مقصورة على الأسرة في البداية فامتدت بالتدريج إلى القرية فالى المدينة فالى الإقليم ، وهنالك فقط ظهرت فكرة الوطن وفق ما ندركها به

اليوم ، وهى لم تَعُدْ ممكنةً إلا بعد أن تكونت الروح القومية ، وما ارتقى الأغارقة قط إلى ما فوق فكرة المدينة ، وقد ظَلَّتْ مدَنُهُم متحاربةً على الدوام لأن بعضها كان أجنبيًّا عن بعض فى الحقيقة ، ولم تَعْرِفْ الهندُ منذ ألفى سنة غيرَ وحدة القرية فتَجِدُ فى هذا سرَّ خضوعها باستمرارٍ لسادةٍ من الأجانب الذين انهارت دولهم الموقته بسهولة كالتى قامت بها .

وفكرةُ المدينة ، وإن كانت بالغة الضَّعف من الناحية العسكرية كوطنٍ محض ، بالغة القدرة من حيث تقدم الحضارة ، وروحُ المدينة ، وإن كانت أصغر من روح الوطن ، أكثرُ إنتاجاً منها فى بعض الأحيان ، وقد أثبتت لنا أئِنَّة فى القرون القديمة وفلورنسة والبندقية فى القرون الوسطى درجة ما يمكن أن تَصِلَ إليه زُمُرُ الناس الصَّغرى فى ميدان الحضارة .

وإذا حدث أن قَصَّتْ المدن الصغيرة أو الأقاليم الصغيرة حياةً مستقلةً زمنًا طويلاً فإنها لا تُعَمُّ أن تَحْوزَ روحاً تبلغُ من الثبات ما يتعذر معه تقريباً أن تمتزج بروح المُدُن والأقاليم المجاورة فتؤلفَ روحاً قومية ، وإذا أمكن حدوثُ امتزاجٍ مثل هذا ، أى حينما لا تكون العناصر المتقابلة كثيرة الاختلاف ، فإن ذلك لا يكون من عمل يوم واحد ، بل من عمل القرون ، ولا بُدَّ من ظهور رجال من طراز ريشليو وبِسْمَارِك لينجزوا مثلَ ذلك العمل ، وهم لا يُتِمُّونه إلا بعد أن يكون قد نَضَجَ منذ زمن طويل ، وقد يَتَّفَقُ لبلد ، كإيطالية ، أن يصير دولةً واحدةً بغتةً بفعل بعض العوامل الشاذة ، ولكن من الخطأ أن يُعْتَقَدَ أن ذلك البلد ينال بهذا روحاً قومية ، وأنت إذا أبصرت فى إيطالية الپيمونتيَّة والصَّقليَّة والبندقيَّة والرومانىَّة إلخ ، فإنك لا تُبْصِرُ الإِيطَالِيَّةَ .

ومهما يكن أمرُ العِرْقِ الذي يُبَحِّثُ فيه اليوم ، وسواءً أكان هذا العِرْقُ متجانساً أم غيرَ متجانس ، فإنه يجب أن يُعَدَّ على الدوام عِرْقاً مصنوعاً ، لا عِرْقاً طبيعياً ما دام قد تَمَدَّنَ ودخل ميدان التاريخ منذ زمن طويل ، واليوم لا تَجِدُ العروق الطبيعية إلا عند الهمَج ، وعند الهمَج وحدهم تستطيع أن تُبَصِّرَ أُمَّماً خالصةً من كلِّ اختلاط ، وأما مُعْظَمُ العروق المتمدنة فعروقٌ تاريخية .

ولا تَشْغَلُ أَنْفُسَنَا الآنُ بأصول العروق ، وليس من المهمِّ أن تكون العروق قد كَوَّنتَهَا الطبيعة أو كَوَّنها التاريخ ، وإنما الذي يَهْمُنَا هو أخلاقُ هذه العروق التي تَمَّتْ في ماضٍ طويل ، وهذه الأخلاقُ إذ أُمْسِكَتْ في قرونٍ بفعلِ أحوالٍ عِشٍّ واحدة ، وهذه الأخلاقُ إذ تراكمت بالوراثة ، اكتسبتْ مع الزمن ثباتاً وعِيَتْ مِثَالُ كلِّ أمة .

الفصل الثاني

حدود تغير أخلاق العُروُق

تغير أخلاق العروُق ، لانبأها ، هو القاعدة الظاهرة — أسباب ذلك — ثبات الأخلاق الأساسية وتغير الأخلاق الثانوية — تشبيه الأخلاق النفسية بصفات الحيوان الثابتة والمتغيرة — تؤثر البيئة والأحوال والتربية في الأخلاق النفسية الثانوية فقط — إمكانات الخلق — أمثلة في أزمنة مختلفة — رجال الهول — ماذا كانوا يصنعون في أدوار أخرى — كيف تثبت الأخلاق القومية على الرغم من الثورات — أمثلة مختلفة — الخلاصة .

دراسةُ تطوّر الحضارات بدقة هي التي نُبَصِّرُ بها وحدها ثبات مزاج العروُق النفسى ، والذي يظهر أولَ وهلةٍ هو أن القاعدة العامة في التغير لا في الثبات ، والحق أن تاريخ الأمم يحفز إلى افتراضنا أن روح هذه الأمم تخضع أحياناً لتحولات سريعة جداً عميقة إلى الغاية ، أفلا يلوح في ذلك التاريخ فرقٌ عظيم بين أخلاق الإنكليزيّ أيام كُرومويل وأخلاقه في الوقت الحاضر مثلاً ؟ ألا يبدو الإيطاليُّ المعاصرُ الحذرُ الفطن مختلفاً أشدَّ الاختلاف عن الإيطاليِّ المندفع المقتصر الذي يدلنا عليه بِنَفْسَتُو سِلِينِي في مُدْكَرَّاته ؟ وإذا لم نذهب بعيداً فاقصرنا على فرنسا جاز لنا أن نقول : ما أكثر ما اعتور الأخلاق فيها من تغيّرات ظاهرة في قليل قرون ، بل في سنين ! وأىُّ المؤرخين لم يُسجِّلْ ما في أخلاقها القومية من فروق بين القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ؟ أفلا يُحْيِلُ إلى الناظر وجودُ عالم بين

أخلاق رجال العهد الغلاظ وأخلاق عبيد نابليون الودعاء؟ هؤلاء هم أولئك ، وقد بدأ تغيرهم تغيراً تاماً في بضع سنين .

ونحن لكي نوضح أسباب هذه التغيرات نذكر قبل كل شيء أن النوع النفسي هو كالنوع التشريحي مؤلف من عدد قليل من الصفات الأساسية الثابتة التي تتجمع حولها صفات ثانوية متغيرة متحولة ، وذلك كالمربي الذي يحوّل بنية الحيوان الظاهرة والبستاني الذي يُغيّر منظر النبات فلا يتبين ذلك من ليس له إلمامٌ بالأمر ، مع أن المربي والبستاني لم يؤثرا في غير الصفات الثانوية لذلك الحيوان وذلك النبات ، والصفات الأساسية تميل دوماً إلى الظهور ثانية في كل جيل جديد على الرغم من كل حيلة .

وللمزاج النفسي كذلك صفات أساسية ثابتة كصفات الأنواع التشريحية ، غير أن للمزاج النفسي صفات ثانوية سهلة التغير أيضاً ، وهذه الصفات الثانوية هي التي يمكن البيئات والأحوال والتربية وما إليها من مختلف العوامل أن تُغيّرها بسهولة. وكذلك يجب أن يُذكر الأمر الجوهري القائل إن المزاج النفسي لكل واحد منا يشتمل على بعض الممكنات الخلقية التي لا تُهيء الأحوال لها فرصة الظهور في كل وقت ، وهذه الأحوال إذا ما حدثت ظهرت في الحال شخصية جديدة مؤقتة ، وذلك ما تمكن ملاحظته في أدوار الأزمات الدينية والسياسية الكبيرة من تحولات خلقية عرَضية كالتى يُحِيل بها تحوّل الطبائع والأفكار والسلوك وكل شيء ، ويكون كل شيء قد تحوّل في الحقيقة كما يتحول بغتة وجه البحيرة الهادئة الذي تُشِيرُه العاصفة ، ومن النادر أن يدوم هذا الاضطراب زمناً طويلاً .

ولتلك الممكنات الخلقية التي تحققت بفعل بعض الحوادث الاستثنائية يبدو لنا

صانعو الأزِمَات الدينية والسياسية الكبرى من جوهر أعلى من جوهرنا وأنهم نوع من العالقة وأننا أبناءهم المُتَحَلُّون ، ولم يكن أولئك إلا رجالاً مثلنا مع ذلك ، ولم يكن أولئك إلا أناساً قد أثارت الأحوال ما فيهم من الممكنات الخلقية الخفية في كل واحد منا ، انظُرُوا مثلاً إلى « جابرة العهد » الذين وَقَفُوا أمام أورة المُدَجَّجَة بالسلاح وكانوا يرسلون خصومهم إلى المِقْصَلَة لأقلِّ معارضة ، انظُرُوا إلى هؤلاء الجابرة الذين كانوا في الأساس من أبناء الطبقة الوسطى الصالحين المسلمين ، من أولئك الذين يُحْتَمَلُ في الأوقات العادية أن ينقطعوا إلى دراستهم أو يَنَزُّوْا في غرقهم أو يَلْزَمُوا مكتبهم فيَقْضُوا حياةَ هدوء واعتزال ، فهم لما وقع من الحوادث الخارقة للعادة ماهَرٌ في دماغهم بعض الخَلِيَّاتِ المَعْطَلَّة في الأيام العادية بَرَزُوا بتلك الوجوه الهائلة التي لا يُدْرِك أمرها الخلف ، ولو ظهر رُؤُسُ سِير بعد مئة سنة لكان قاضياً نزيهاً من قضاة الصلح مجباً لِقَسِيْسِه ، ولو ظهر فَوْكِيَه تَنْقِيل بعد مئة سنة لكان قاضياً للتحقيق متصفاً بأكثر مما في زملائه من الغِلْظَة والغَطْرَسَة الملازمين لأبناء مهنته ، ولكن مع تقديرٍ غَيْرَتِه في تَعَقُّبِ المجرمين ، ولو ظهر سان جُوسْت بعد مئة سنة لبدا معلماً ماهراً من معلمي المدارس ولصار محلَّ احترام رؤسائه ولغداً خوراً بأوسمة الأكاديمية التي كان لا بُدَّ له من نيلها في نهاية الأمر ، ومما يؤيد صحة هذه الافتراضات بما فيه الكفاية ما صَنَعَه نابليون من وحوش الهَوَل الذين لم يَبْقَ لهم من الوقت ما يَضْرِب بعضهم فيه رقابَ بعض ، فقد أصبح معظم هؤلاء من رؤساء الدواوين وأُجْلبَة والقُضاة والمديرين ، وذلك لأن الأمواج التي أثارتها العاصفة وهي التي تكلمنا عنها آنفاً كانت قد هَدَّأت ولأنَّ البحيرة المضطربة عاد إليها وجهها الهادي .

وَيَسْهُلُ عليك أن تَجِدَ صُوراً جديدة لأخلاق العِرْقِ الأساسية حتى في أشدِّ

الأدوار اضطراباً وأغربها تغييراً للشخصيات ، وهل كان النظام المركزي الاستبدادي المتحكم الذي جاء به يعاقبتنا الأشداء يختلف بالحقيقة عن النظام المركزي الاستبدادي المتحكم الذي قالت به الملكية في خمسة عشر قرناً فأصلته في النفوس تأصيلاً عميقاً ؟ وخلف جميع ثورات الأمم اللاتينية يعود إلى الظهور على الدوام ذلك النظام العنيد ، ذلك الاحتياج المتأصل إلى الخضوع ، وذلك لما فيه من إجمال لغرائز العرق اللاتيني ، ولم يكن ما اتفق لبونابارت من مجد الفتوح وحده هو الذي جعله سيداً ، وبونابارت حيناً حوّل الجمهورية إلى دكتاتورية كانت غرائز العرق الموروثة تتجلى كل يوم بأشدّ مما هي عليه ، ولو لم يظهر هذا الضابط العبقري لكفى لذلك أي مغامر ، وتمضى خمسون سنة فلم يكن على وارث اسمه إلا أن يرى نفسه لينال أصوات أمة تعبئة من الحرية متعطشة إلى العبودية ، وليس برؤمير (الشهر الثاني من السنة الجمهورية) هو الذي صنع نابليون ، بل روح العرق الذي أخذ يرّكع تحت قدمه الحديدية (١) .

وإذا كان تأثير البيئات في الإنسان يظهر كبيراً فلما للبيئات من فعل في العناصر الثانوية الموقته أو في إمكانات الخلق التي تكلمنا عنها ، وفي الحقيقة لا تكون التغييرات عميقة ، وبيان ذلك أن أكثر الناس دعة إذا ما عصّه الجوع بلغ من القسوة

(١) قال تايين : « ما كادت حركة نابليون الأولى تبدو حتى خر الفرنسيون له سجداً طائعين ، والفرنسيون قد ثابروا على ذلك كطبيعة فيهم ، فكنت تبصر في الأصاغر ، كالفلاحين والجنود ، وفاءً حيوانياً له ، وكنت تبصر في الأكابر ، كالأعيان والموظفين ، تدلاً يزنطياً له ، وما كنت ترى في الجمهوريين أدنى مقاومة له ، بل وجد بين هؤلاء أحسن آلات لسلطانه ، ومن هؤلاء الشيوخ والنواب ومستشارو الدولة والقضاة والإداريون من كل درجة ، وهو لم يلبث أن اكتشف تحت مواظهم في الحرية والمساواة جهم للسلطة والصدارة ولو كانوا مرؤوسين ، وذلك فضلاً عما أبصره في معظمهم من ميل إلى المال ورغبة في اللذات ، ولا تجد غير فرق صغير بين نواب لجنة السلامة العامة من جهة والوزير والمدير ووكيل المدير في العهد الإمبراطوري من جهة أخرى ، فالرجل في الجهتين هو هو ولكنه ذو ثوين : ثوب بسيط في الأولى ومطرز في الثانية » .

ما يدفعه إلى إقرار جميع الجرائم ، حتى إلى افتراس نظيره في بعض الأحيان ،
أفقال والحالة هذه إن خلقه الأصلي قد تَغَيَّرَ ؟

وإذا حَدَثَ أن مقتضيات الحضارة حَفَزَت أناساً إلى أقصى الغنى وما يوجبه
الغنى من المعايب حتماً ، وأنها أوجدت في أناس آخرين احتياجات عظيمة من غير
أن تجعل لهم وسائل لقضاها ، فإن الذى يَنْجُمُ عن ذلك هو استياء وقلق عامٌ يُؤَثِّرَانِ
في السَّيَرِ وَيُثِيرَانِ انقلابات من كلِّ نوع ، بَيِّدَ أن أخلاق العِرْقِ الأساسية
تتجلى في ذلك الاستياء وفي هذه الانقلابات ، ومن هذا القبيل ما كان من تَمَرُّقِ
إنكليز الولايات المتحدة في حربهم الأهلية وإبدائهم في ذلك من العناد والنشاط
العظيم مثل ما يبدونه اليوم في شَيْدِ المدن والجامعات والمصانع ، فَخُلِقَ أولئك لم
يتغير في ذلك ، وإنما الذى تَغَيَّرَ هو الموضوعاتُ التى طُبِّقَ عليها ذلك الخلق .

ونحن حين نبحث بالتتابع في مختلف العوامل التى تُؤَثِّرُ في مزاج الأمم النفسى
نرى أن هذه العوامل تَمَسُّ دوماً نواحي الخلق الثانوية الموقته ، لا عناصره
الأساسية ، أو أنها لا تَمَسُّ هذه العناصر إلا بعد رُكَامٍ وراثى بلى .

ولا نستنتج مما تقدم أن صفات الأمم النفسية لا تتغير ، بل نستنتج فقط أن
هذه الصفات ذاتُ ثبات كالصفات التشريحية ، ولهذا الثبات تتغير روح العروق
في غُضُونِ القرون رويداً رويداً .

الفصل الثالث

نظام مراتب العروق النفسى

يقوم التقسيم النفسى، كالتقسيمات التشريحية، على عدد قليل من الصفات الثابتة الأساسية — تقسيم العروق البشرية النفسى — العروق الأولى — العروق الدنيا — العروق الوسطى — العروق العليا — العناصر النفسية التى يوجب اجتماعها هذا التقسيم — أهم هذه العناصر — الخلق — الأدب — يمكن تغيير الصفات الذهنية بالتربية — صفات الخلق ثابتة، ويتألف منها العنصر الثابت فى كل أمة — شأن هذه الصفات فى التاريخ — سبب عدم تفاهم مختلف العروق وعدم تأثير بعضها فى بعض — أسباب تعذر حمل أمة متأخرة على انتحال حضارة راقية .

إذا ما درسنا فى كتاب تاريخ طبيعى أُسِّسَ تقسيم الأنواع وَجَدْنَا من فَوْرْنَا أن الصفات الثابتة الأساسية التى يُعَيَّن بها كلُّ نوع هى قليلةٌ جدًّا ، فتكفى بضعة أسطر لعدّها .

وعلةُ ذلك هو أن العالم الطبيعى لا يبالي بغير الصفات الثابتة غيرَ ناظرٍ إلى الصفات المؤقتة ، مع أن الصفات الأساسية تَجْرُ سلسلة من الصفات الأخرى وراءها حتمًا .

وقُلْ مثل ذلك عن الصفات النفسية للعروق ، ونحن إذا سلكنا سبيل التفصيل وَجَدْنَا ما لا يُحْصيه عددٌ من الاختلافات الدقيقة بين أمة وأخرى وبين شخص وآخر ، ولكننا إذا نظرنا إلى الصفات الأساسية وحدها لم نَر غيرَ عدد قليل منها

في كلِّ أمة ، والأمثلةُ فقط ، والأمثلةُ هي ما نأتى به عما قليل ، هي التي تدلنا بوضوحٍ على تأثير هذه الصفات الأساسية القليلة في حياة الأمم .

ولا يمكن عَرَضُ تقسيمِ نفسى للعروق إلا بالبحث المُفَصَّل في روح مختلف الأمم ، وهذا وحده يتطلب عدَّةَ مجلدات ، وترانى أقتصر لذلك على بيان خطوطها الكبيرة .

وإني حين أنظر إلى ما في العروق البشرية من الصفات النفسية العامة فقط أرى إمكانَ تقسيم هذه العروق إلى أربعة أقسام وهي : العروق الابتدائية والعروق الدنيا والعروق الوسطى والعروق العليا .

والعروقُ الابتدائية هي التي لا تجدُ فيها أىَّ أثرٍ للثقافة ، وهي التي ظَلَّتْ في الدور القريب من الحيوانية والذي جاوزه أهل عصر الحجر المنحوت من أجدادنا ، ومن العروق الابتدائية في الوقت الحاضر نذكر الفِجُوجِيِّين والاستراليين .

وترى فوق العروق الابتدائية العروق الدنيا التي يُعَدُّ الزنوجُ على الخصوص عنواناً لها ، وفي هذه العروق تجدُ بَصِيصَ حضارةٍ ، وبَصِيصَ حضارةٍ فقط ، وهذه العروق لم تُجاوِزْ قطُّ وجوهَ الحضارة الغليظة ، وإن وُثِرَتْ حضاراتٍ راقيةً بفعل المصادفة ، كما اتفق لأهل سان دُومِينغ .

ونذكر من العروق الوسطى الصينيين واليابانيين والمغول والأمم السامية ، فالعربُ والآشوريون والمغول والصينيون واليابانيون قد أبدعوا نماذجَ حضاراتٍ راقية لم يجاوزها غير الأوربيين .

وبين العروق العليا يجب أن تُذكر الأمم الهندية الأوربية على الخصوص ، وهذه الأمم هي التي أثبتت قُدْرَتَهَا على الاختراعات العظيمة في الفنون والعلوم

والصناعة سواء في عصر اليونان والرومان القديم أو في الأزمنة الحديثة ، ولهذه العروق ترى الحضارة مدينة بما انتهت إليه اليوم من المستوى العالى ، ومن أيدى هذه العروق خَرَجَ البخار والكهرباء ، وأقلُّ هذه العروق ارتقاء كالهندوس على الخصوص قد بلغ في الفنون والآداب والفلسفة درجة لم يصل إليها المغول والصينيون والساميون قط .

وليس من الممكن خلط ما بين الأقسام الأربعة المذكورة ، فالهوية النفسية التي تفصل بعضها عن بعض تظل واضحة ، والصعوبة كلُّ الصعوبة في تقسيم تلك الأقسام إلى أقسام أخرى ثانوية ، أجل ، إن الإنكليزي والإسباني والروسي من الأمم العليا ، وترى الفروق بين هؤلاء عظيمة جداً مع ذلك .

ويجب لتعيين تلك الفروق أن يؤخذ كلُّ شعبٍ على حدة وأن توصف أخلاقه ، وهذا ما سنفعله بعد قليل في أمر شعبين فنطبق عليهما منهاجنا مثبتين أهمية نتائجه .

والآن لا نستطيع أن نفعل غير الإشارة باختصار إلى طبيعة العناصر الرئيسة النفسية التي تتمكن بها من التفريق بين العروق .

ولا احتياج إلى الذهاب إلى الهمج الخالص لنجد العروق الابتدائية والدنيا مادامت الطبقات الأوربية السفلى تعدل الفطريين ، والذي يشاهد لدى تلك العروق على الدوام هو عجزها عن التعقل ، أى عجزها عن أن تضم في دماغها الأفكار التي أسفرت عنها الأحاسيس الماضية ، أو الأنفاظ التي تدلُّ على هذه الأفكار ، إلى الأفكار التي هي وليدة الأحاسيس الحاضرة ، وذلك للمقابلة بين الأفكارين ولتبيين ما بينهما من تشابه واختلاف ، وعن ذلك العجز عن التعقل تنشأ سرعة

تصديقٍ عظيمةٍ وفُقدانٍ تامٍّ لروح النقد ، وفي الإنسان الراقى تَجِدُ العكس ، وفي الإنسان الراقى تَجِدُ قدرةً عظيمةً على ضمِّ بعض الأفكار إلى بعض وعلى استخراج النتائج منها ، وفي الإنسان الراقى تَجِدُ مَلَكةَ النقد وروحَ الدقة ناميتين إلى الغاية .

وكذلك تتصف العروق الابتدائية والدنيا بضعف الانتباه وضعف التأمل إلى أقصى حدٍّ ، وبُنموٍّ مَلَكةِ التقليد وعبادة استخراج النتائج العامة الفاسدة من الأحوال الخاصة وبالعجز عن ملاحظة ما يؤدي إليه التَّردُّد من النتائج المفيدة وبالعجز عن استنباط هذه النتائج ، وبتقلبٍ كبير في الأخلاق وبغفلةٍ عظيمة ، ووَحْيُ الساعةِ الراهنة هو دليل هذه العروق ، وهى ، كعيسو (العيص) الذى هو مثالُ الرجل الابتدائى ، تَبِيعُ مَخْتارَةً حَقَّهَا فِي الْبِكْرِيَّةِ الْقَادِمَةِ فِي مُقَابِلِ صَحْنٍ حَاضِرٍ مِنَ الْعَدَسِ ، وَإِذَا مَا عَارِضُ الْإِنْسَانِ عَاجِلُهُ بِأَجَلِهِ وَكَانَ ذَا هَدَفٍ فَسَارَ وَرَاءَهُ بِثَبَاتٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ بَلَغَ شَأوًا بَعِيدًا مِنَ الرِّقَى .

ومن شأن العجز عن البَصَرِ بالنتائج البعيدة للأعمال ومن شأن العَطَلِ من كلِّ دليلٍ إِلَّا دَلِيلَ السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ أَنْ يَكُونَ الْفَرْدُ ، وَالْعَرَقُ أَيْضًا ، مُحْكومًا عليهما بالبقاء في طورٍ منخفض جدًّا ، وَالْأُمُّ كَمَا عَرَفَتْ أَنْ تَضْبُطَ غَرَائِزَهَا ، أَى كَمَا اكْتَسَبَتْ عَزَمًا ، أَى كَمَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَسِيطَرَ عَلَى نَفْسِهَا ، تَكُونُ قَدْ أَدْرَكَتْ أَهْمِيَّةَ النِّظَامِ وَضُرُورَةَ التَّضَحِيَةِ بِنَفْسِهَا فِي سَبِيلِ مَثَلٍ عَالٍ وَالْإِرْتِقَاءِ إِلَى الْحَضَارَةِ ، وَلَوْ وَجِبَ تَقْدِيرُ مَسْتَوَى الْأُمِّ الْاجْتِمَاعِيَّ فِي التَّارِيخِ بِمُقْيَاسٍ وَحِيدٍ لَكَانَتْ دَرَجَةُ قَابِلِيَّةِ تِلْكَ الْأُمِّ لِلْسَيْطَرَةِ عَلَى انْدِفَاعَاتِهَا اللَّاتِنَبْهِيَّةِ هِيَ ذَلِكَ الْقِيَاسُ كَمَا أَرَى ، وَالرُّومَانُ فِي الْقُرُونِ الْقَدِيمَةِ وَالْإِنْكْزِيرُ وَالْأَمْرِيكِيُّونَ فِي الزَّمَنِ الْحَدِيثِ هُمُ عِنَوَانُ الْأُمِّ الَّتِي اتَّفَقَتْ لَهَا تِلْكَ

الصفة إلى أبعد حدّ ، وفي هذه الصفة تجدُّ سرَّ عظمة هذه الأمم .
 ومن اجتماع العناصر الروحية المختلفة المذكورة آنفاً ونموّها نمواً متقابلاً يتألف
 من الأمزجة النفسية ما يُستعان به في تقسيم الأفراد والعروق .
 ومن تلك العناصر الروحية ما هو خاصٌّ بالخلق ومنها ما هو خاصٌّ بالذكاء .
 وتختلف العروق العليا عن العروق الدنيا بالخلق كما تختلف عنها بالذكاء ،
 وبالخلق على الخصوص تختلف بعض الأمم العليا عن بعض ، ولهذا الأهمية
 اجتماعية عظيمة ، فيجب بيانه بوضوح .

ويتألف الخلق من امتزاج مختلف العناصر التي يُطلق عليها علماء النفس
 المعاصرون اسمَ المشاعر عادةً ، وذلك على نسبٍ مختلفة ، ومن بين تلك العناصر ذات
 الشأن المهمّ أذكرُ الثبات والنشاط وقابلية ضبط النفس بوجهٍ خاصّ ، أى
 الصفات المشتقة من الإرادة ، ومن عناصر الخلق الأساسية نذكرُ الأدبَ
 أيضاً ، وإن كان الأدبُ خلاصةً مشاعرٍ مركبةٍ ، وأقصد بكلمة الأدب احترامَ
 القواعد التي تقوم عليها حياة المجتمع ، وتدلُّ حيازة الأمة أدباً على حيازتها قواعدَ
 ثابتةً للسير وعدم ابتعادها عنها ، وتختلف هذه القواعد باختلاف الأزمنة والبلدان ،
 والأدبُ يلوح بهذا أنه كثير التغير ، والأدبُ كثير التغير بالفعل ، غير أنه يجب أن
 يكون أدبُ الأمة في زمنٍ مُعيّن غير متغير ، والأدبُ إذ كان وليد الخلق لا الذكاء
 لا يكون وطيئاً إلا إذا صار وراثياً ، ومن ثمّ غير شعورى ، وعظمة الأمم بوجهٍ
 عامٍّ خاضعةٌ لمستوى أدبها على الخصوص .

وقد تتغير الصفات الذهنية بالتربية تغيراً قليلاً ، وتتفلت الصفات الخلقية من
 سلطان التربية تفلتاً تامّاً تقريباً ، والتربية عند ما تؤثّر في الصفات الخلقية لا يكون

هذا التأثير إلا عند ذوى الطبائع المحايدة الذين يكادون يكونون عاطلين من الإرادة والذين يسهل عليهم أن يميلوا إلى حيث يُسَاقُونَ ، وترى هذه الطبائع المحايدة لدى الأفراد ، وهى قلما تُرى فى أمة بأسرها ، وهى إذا وُجِدَتْ فى الأمة لا يكون وجودها ذلك إلا فى أيام انحطاطها .

ومن السهل أن تنتقل اكتشافات الذكاء من أمة إلى أخرى ، وأما الصفات الخَلْقِيَّة فلا تنتقل ، وهذه هى العناصرُ الأساسية الثابتة التى يختلف بها مزاج الأمم العليا النفسى ، وتمثِّلُ الاكتشافاتُ المدنية للذكاء تراثَ البشرية المشترك ، ويتألف من صفات الخلق ومساوئه فى كلِّ أمة تراثُ هذه الأمة الخاص ، والخلق كالصخرة الثابتة التى تَلطِّمُها الأمواج يوماً بعد يوم فى عِدَّة قرون قبل أن تتمكن هذه الأمواج من تَلْم أطرافها ، والخلق يَعْدِل عنصرَ النوع الراسخ وزَعْنَفَة السمك وَمِنقَار الطير ونَاب الضَّارَى .

وخلق الأمة لا ذكاؤها هو الذى يُعَيِّن تطورها فى التاريخ ويُنظِّم مصيرتها ، وهو يوجد على الدوام خَلْفَ الأهواء الظاهرة للمصادفة العاجزة وللعباية السُّبْحانية الوهمية وللقدر الحقيقى الذى يُسَيِّرُ الرجال فى أعمالهم وَفَق مختلف العقائد .

وللأخلاق نفوذٌ ذو سلطان قوى على حياة الأمم ، على حين يبدو الذكاء ذا نفوذٍ ضعيف فى الغالب ، أَجَلْ ، كان للرومان فى دور الانحطاط ذكاءٌ أرفعُ من ذكاء أجدادهم الأشداء ، بَيَدَ أنهم كانوا فى ذلك الدور قد أضاعوا صفاتهم الخَلْقِيَّة من ثبات ونشاط وعناد واستعداد للتضحية فى سبيل مَثَلٍ عالٍ ومن احترامٍ وثيق للقوانين ، أى أضاعوا هذه الصفات التى كانت سببَ عظمة أجدادهم ، وبفضل الخلق يَصْعُ ستون ألف إنكليزى تحت نيرهم ٢٥٠ مليونَ هندوسى ،

مع أن كثيراً من الهندوس يَعْدِلُ الإنكليزَ ذكاءً على الأقل ، ومع أن كثيراً من الهندوس يفوق الإنكليزَ إلى ما لا حَدَّ له من الذوق الفني وُعمقِ المباحث الفلسفية ، وبالخلق غدا الإنكليزُ على رأس أعظم إمبراطورية استعمارية عَرَفَها التاريخ ، وعلى الخلق تقوم متانة المجتمعات والنظم والإمبراطوريات ، والخلق هو الذى يجعل الأمم تَشْعُرُ وتَسِيرُ ، والأمم لم تَظْفَرْ قطُّ بكبيرٍ طائِلٍ من إعمال عقلها وَقَدَحَ زناد فكرها كثيراً^(١) .

ومن مزاج العروق النفسى يُشْتَقُّ تصوُّرُها للعالم والحياة ومن شَمَّ سيرها ، وسأئى بأمثلة على ذلك عما قليل ، والفردُ ، إذ يَتَأَثَّرُ بالأُمور الخارجية من بعض الوجوه ، يُحَسُّ ويعمل على وجه يختلف عما يَشْعُرُ به ويُفَكِّرُ فيه ويصنعه الأفراد الذين لهم مزاجٌ نفسىٌ مختلف عن مزاجه ، وهذا يؤدى إلى النتيجة القائلة إن الأمزجة النفسية القائمة على مُثُل شديدة الاختلاف لا يدرك بعضها كُنْهَ بعض ، وما كان من تنازع العروق المتأصل فصدره ما بين هذه العروق من تناقض فى

(١) مصدر ما تجده من ضعف كبير فى كتب علماء النفس المحترفين ومن قلة فائدة عملية فيها هو أنهم حصروا جهودهم فى دراسة الذكاء مهملين دراسة الخلق إلهالاً تاماً تقريباً ، ولم أر غير مسيو ريبو فى كتابه النفس « منطق المشاعر » من استطاع أن يبين أهمية الخلق وأن يحقق أن الخلق هو الأساس الحقيقى للمزاج النفسى ، ومن الإصابة قول ريبو : « إنما الذكاء وجه ثانوى فى التطور النفسى ، والخلق هو المثال الأساسى ، وكأنى بالذكاء يؤدى إلى الهدم إذا ما بلغ درجة عالية من النمو » .

ولى دراسة الخلق يجب أن تنجّه الهمم كما أحاول بيانه هنا ، وذلك إذا ما أريد وصف روح الأمم المقارن ، وعلم مهم يشتق منه التاريخ والسياسة كهذا العلم لم يكن موضع بحث جدى قط ، وكان يعسر علينا أن ندرك علة ذلك لو لم نعلم أنه لا ينال إلا فى الأسفار الطويلة ، لا فى المختبرات ولا فى الكتب ، ولا شئ ييسر بأنه سيكون محل عناية علماء النفس المحترفين مع ذلك ، واليوم ترى هؤلاء العلماء يتكئون ، بالتدرج ، دائرة اختصاصهم لينصرفوا إلى مباحث علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء .

الأخلاق ، ومن المتعذر فهمُ شيء من التاريخ ما لم يُقَمَّ في الذهن دوماً ذلك المبدأ القائل إن العروق المختلفة لا تُقدِّر على الشعور ولا على التفكير ولا على السير على طراز واحد فلا يدرك بعضها أمرٌ بعض لهذا السبب ، ومما لا شكَّ فيه أن في لغات مختلف الأمم ألفاظاً مُشاعة فتَظُنُّ هذه الأمم أن هذه الألفاظ مترادفة ، بيِّد أن تلك الألفاظ المُشاعة تُثير من المشاعر والخيالات وطُرُز التفكير ما يبين التي تساور سامعيها ، ولا بدَّ من العيش بين أمم ذاتِ مزاج نفسٍ مخالف لمزاجنا مخالفةً محسوسة لتبيِّن مدى الهوة التي تفصل بين أفكار مختلف الأمم ، حتى لو وقع الاختيار في تلك الأمم على أناس نالوا تربيتنا ويتكلمون بلغتنا ، والباحث من غير أن يحتاج إلى بعيد الأسفار يُمكنه أن يستجلى ذلك عند تحقيقه الفرق النفسى الكبير بين الرجل المتمدن والمرأة ولو كانت هذه المرأة عظيمة التعليم ، وقد يكون هذان الشخصان ذوى مصالح متماثلة ومشاعر متماثلة ، ولكنهما لا يتشابهان في تسلسل أفكارهما أبداً ، فهما قد فطرا على مثالين بُلغا من التباين ما يتعذر أن يتأثرا معه على وجه واحد بالأمر الخارجية ، وما بين منطقهما من اختلافٍ فيكفى لإحداث هوةٍ بينهما لا يمكن اقتحامها .

وما بين مزاج مختلف العروق النفسى من هوة فيوضح لنا السبب في أن الأمم العليا لم تُوفق قطُّ لحمل الأمم المتأخرة على اعتناق حضارتها ، وما كان من رأى الشائع القائل بأن التعليم يمكنه أن يُحقِّق مثل ذلك الأمر فهو من أشأم الأوهام التي صدرت عن نظريِّ العقل الصَّرف ، ولا مرأى في أن التعليم يَمْنَح الشخص الذى وُضِع في أدنى درجات السُّلَم البشرى جميع ما لدى الأوربي من المعارف بفضل ما يكون عند أخطِّ الأفراد من الذاكرة التي لم تكن مقصورة على الإنسان ، ومن

السهل أن يُجْعَلَ من الزُّنْجِيِّ أو اليابانيِّ محامياً أو حاملاً لشهادة البكالوريا ، بيد أن ذلك لا يعطيه سوى طلاء سطحيٍّ غير مؤثر في مزاجه النفسيِّ ، وإنما الذي يَفْجِزُ التعليم عن مَنْحِهِ إياه هو ما يَنْصِفُ به الغربيون من وجوه تفكيرٍ ومنطقٍ ، ومن أخلاقٍ على الخصوص ، لصدوره عن الوراثة وحدها ، وذلك الزُّنْجِيُّ أو اليابانيُّ قد يَجْمَعُ جميع الشهادات الممكنة ، ولكنه لا يرتقي إلى مستوى الأوربيِّ العاديِّ أبداً ، ومن السهل أن يُلَقَّنَ ذلك الشخصُ في عشرِ سنينِ مِثْلَ ما يُلَقَّنُهُ الإنكليزيُّ الحَسَنُ الثَّقَافَةَ ، ولكن قد لا تكفي عِدَّةُ قرونٍ لأن تَجْعَلَ منه إنكليزياً حقيقياً ، أي رجلاً يسير كالإنكليزيِّ في مختلف أحوال الحياة التي يُوضَعُ فيها ، وليس في سوى الظاهر تغييرُ أمةٍ للغتها أو مزاجها أو معتقداتها أو فنونها بَعْتَةً ، وتغييراتٌ كهذه لا تكون حقيقةً في الأمة إلا إذا استطاعت هذه الأمة أن تُحوِّلَ روحها .

الفصل الرابع

تفاوت الأفراد والعروق للتدرج

يكون التفاوت بين أفراد العرق الواحد بنسبة ارتقاء هذا العرق — ما بين أفراد العروق المتأخرة من مساواة نفسية — يجب تقدير الفروق بين العروق بالمقابلة بين طبقاتها العليا ، لا بالمقابلة بين طبقاتها الوسطى — يؤدي تقدم الحضارة إلى زيادة التفاوت بين الأفراد ، وإلى زيادته بين العروق — نتائج هذا التفاوت — الأسباب النفسية التي تحول دون اتساعه كثيراً — أفراد العروق العليا كثيرو التفاوت ذكاء وقليلو التفاوت أخلاقاً — كيف توجب الوراثة رجوع الأفضليات الفردية في العرق إلى مثاله المتوسط — تؤيد المشاهدات التشريحية ما بين العروق والأفراد والجنسين من التفاوت النفسى التدرجى .

لا تمتاز العروق العليا من العروق الدنيا بصفات النفسية والتشريحية وحدها ، بل تمتاز منها أيضاً باختلاف العناصر التي تتألف منها ، وفي العروق الدنيا يكون جميع الأفراد من أى الجنسين على مستوى نفسى مماثل تقريباً ، وهؤلاء الأفراد ، لما بينهم من تشابه تجددهم عنواناً للمساواة التامة التي يحلم بها الاشتراكيون في الوقت الحاضر ، وبالعكس تجد السُّنة عند العروق العليا في تفاوت أفراد هذه العروق وجنسيتها تفاوتاً عقلياً .

وكذلك لا يُقاس مدى الفروق بين الأمم بالمقابلة بين طبقاتها الوسطى ، بل بالمقارنة بين طبقاتها العليا ، فالهندوس والصينيون والأوروبيون لا يتفاوتون بطبقاتهم الوسطى

إلا قليلاً ، وهم بالعكس يتفاوتون بطبقاتهم العليا تفاوتاً عظيماً .
وكُلِّمًا تقدمت الحضارة سارت العروق ، وكذلك أفراد العروق العليا على الأقل ،
نحو التفاوت شيئاً فشيئاً ، وتؤدي الحضارة الحاضرة إلى تفاوت الناس بالتدرج ،
لا إلى تساويهم ذهنيّاً وذلك خلافاً لنظرياتنا في المساواة .

والحق أن من أهمّ نتائج الحضارة من جهةٍ هو تفاوتُ العروق بعمل ذهنيّ
تقرّضه الحضارة على الشعوب التي بلغت درجة رفيعة من الثقافة فيعظم كل يوم ،
وهو من جهة أخرى إحداثُ تفاوتٍ تدريجيّ في مختلف الطبقات التي يتألف منها
كلُّ شعب متمدن .

وتتقاضى شروط التطور الصّناعيّ الحديث على الطبقات الدنيا في الأمم المتقدمة
بالعمل الضيّق الذي يحطُّ ذكائها بدلاً من تميّنه ، ومنذ مئة سنة كان العاملُ
صانعاً حقيقياً قادراً على صنع أية آلة كالساعة مثلاً ، واليوم غدا العامل صانعاً بسيطاً
لا يصنع غير قطعة واحدة فيقضي حياته في ثقب الثّقوب المتائلة أو صقلِ الأداة ذاتها
أو سوقِ الآلة نفسها ، وهذا ما يوجب هُزالَ ذكائه بسرعة ، وعكسُ ذلك أمرُ
المستصنع أو المهندس الذي تصفّطه الاكتشافات والمنافسة فتحفزه إلى جمع عدد
من المعلومات وروح المبادرة والاختراع يزيد عما كان يجمعه منذ قرنٍ بدرجات ،
وإذ كان دماغه يعمل باستمرارٍ على هذا الوجه فإنه يخضع للسُّنة المسيطرة على جميع
الأعضاء ، أي إنه ينمو مقداراً فمقداراً .

وكان توّكّيل قد أشار إلى ذلك التفاوت التدريجيّ بين الطبقات الاجتماعية
في زمن كانت الصّناعة فيه بعيدةً من درجة التقدم التي انتهت إليها اليوم فقال :
« كلما أوغلَ في تطبيق مبدأ توزيع الأعمال غدا العاملُ أشدَّ ضعفاً وأضيقَ عقلاً »

وأقلَّ استقلالاً مما كان عليه ، وكُلِّما تقدمت الصَّناعة تقهقر الصانع ، فزاد ما بين العامل وربُّ العمل من فَرْقٍ » .

واليومَ يُمكنُ عدُّ الأُمة العِليا من الناحية الذهنية كهرمٍ مُدرَّجٍ يتألف من أعرض أقسامه طبقاتُ الشعب الدنيا ويتألف من درجاته العِليا طبقاتُ الشعب الذكيَّة^(١) ، وتتألف ذِروته من صَفوة قليلة من العلماء والمُخترعين والمتفنين والكتَّاب ، وهذه الزمرة الأخيرة ، وإن كانت صغيرة إذا ما قيسَتْ ببقية الشعب ، هي ما يقوم عليه وحده مستوى البلد في سُلَّم الحضارة الذهنيَّة ، وتسكنُ إزالتها لزوال كلِّ ما فيه مَجْدُ الأُمة ، ومن الصواب قول سان سيْمون : « إذا ما أضاعت فرنسا بغتةً الخمسين الأوَّل من كلِّ من علمائها ومتفنيها ومستصنعيها وزُرَّاعها غَدَتْ جسماً بلا روح وجُثَّة بلا رأس ، وهي إذا أضاعت جميع موظفيها لم يُصِبهَا من وراء ذلك غيرُ ضرر يسير » .

وكُلِّما تقدمت الحضارة زاد التفاوت بين أقصى طبقات الشعب ، ويَعْظُم هذا التفاوت على نسبةٍ هندسيَّة في زمنٍ ما ، ولو سار الزمن طليقاً ولم تَعُقْه عوامل الوراثية لرُئيت المسافة بين الطبقات العِليا والطبقات الدنيا من الناحية الذهنية قد عَظُمَتْ

(١) قلت الذكيَّة ، ولم أضف إلى قولي كلمة المتعلمة ، وذلك لأن من الخطأ الخاص بالأُمم اللاتينية أن يفترض وجود مطابقة بين التعليم والذكاء ، فالتعليم يقتضى حيازة مقدار من الذاكرة ، وهو لا يقتضى لتحصيله أية صفة من صفات الحِصافة والتأمل والمبادرة وروح الاختراع ، وليس من القليل أن تجد أناساً حاملين لشهادات كثيرة مع كبير غباوة ، على حين تبصر أفراداً كثيرين قليلي التعليم رفيعي الذكاء ، ولذلك تكون طبقات الهرم العِليا مؤلفة من عناصر مستعارة من جميع الطبقات ، وتشتمل كل مهنة على عدد قليل من ذوى النفوس الممتازة ، ومع ذلك يلوح ، وفق سنن الوراثية ، أن الطبقات الاجتماعية العِليا هي أكثر الطبقات احتواءً على من هم من ذوى النفوس الممتازة ، وأن في هذا سرُّ أفضلية هذه الطبقات .

فَعَدَتْ كالمسافة التي تَقْصِلُ الأبيضَ عن الزَّنجيِّ أو التي تَقْصِلُ الزَّنجيَّ
عن القرد .

يَبْدُ أن هنالك أسباباً كثيرة تحول دون تمام ذلك التفاوت الذهنيِّ بين الطبقات
الاجتماعية ، مهما بَلَغَ ، بتلك السرعة التي يمكن القولُ بها نظرياً ، والواقعُ ، وهو
أولُ تلك الأسباب ، هو أن التفاوت لا يكون إلا في الذكاء ، وهو لا يتناول الخلق
أو يتناوله قليلاً ، ونحن نعلم أن الخلق لا الذكاء هو الذي يُمَثِّلُ دوراً مهماً في حياة
الشعوب ، والسببُ الثاني هو أن الجموع تَهْدِفُ بنظامها وقوامها إلى أن تصبح صاحبة
السلطان في الوقت الحاضر ، وإذا كانت الجموعُ باديةً الحقد على الأفضليات الذهنية
فإن كلَّ أريستوقراطيةٍ ذهنيةٍ مقضىٌ عليها ، على ما يحتمل ، بأن تُقَوَّضَ بعنفٍ
في ثوراتٍ دَوْرِيَّةٍ كُلَّمَا نَظَّمَتِ الجموعُ الشعبية شؤونها ، وذلك كما قُضِيَ على طبقة
الأشراف القديمة منذ قرن ، والاشتراكية إذا ما قُيِّضَ لها أن تقهر بلداً كان يتأوها
بعض الزمن موقوفاً على إزالة جميع الأفراد الذين يحوزون أفضليةً فيجاوزون المستوى
المتوسط ولو قليلاً .

وإذا عَدَوْتَ ذينك السبيين ، المصنوعين لصدورها عن مقتضيات الحضارة
المتقلبة ، وجدتَ سبباً ثالثاً أعظمَ أهميةٍ منهما لأنه عنوانُ سُنَّةٍ طبيعية ثابتة ، ويقوم
هذا السبب على مَنَعِ خيار الأمة من الافتراق عن الطبقات الدنيا افتراقاً ذهنيّاً كبيراً
فضلاً عن افتراقهم عنها افتراقاً تاماً ، والحقُّ أنك تجدُ ، بجانب مقتضيات الحضارة
الراهنة العاملة على تفاوت أفراد العِرْقِ مقداراً مُقدَّراً ، سُنَّةَ الوراثة الشديدة الوطأة
التي تَهْدِفُ إلى إزالة الأفراد الذين يجاوزون المستوى المتوسطَ مجاوزةً جَلِيَّةً أو إلى
إعادتهم إلى هذا المستوى المتوسط .

وهناك مشاهداتٌ قديمةٌ نصَّ عليها جميع العلماء الذين عالجوا مسألة الوراثة فثبتت هذه المشاهداتُ بالحققة أن أبناء الأسر الرفيعة الذكاء تفسد عاجلاً أو آجلاً (عاجلاً على الأرجح) ، فيؤدى فسادها إلى زوالها التام .

إذن ، لا ينال الرجلُ سموً ذهنيًا كبيراً إلا لترك خلفه ذريةً فاسدين ، والواقعُ هو أن ذروة الهرم الاجتماعى التى تكلمتُ عنها آنفاً لاتدوم إلا بما تستعيره من العناصر التى هى تحتها ، ولو حدث أن جُمع الخيارُ كلُّهم فى جزيرة منفردة لأسفر توالدهم بسرعةٍ عن ظهور عرقٍ مصاب بضروب الفساد ومحكومٍ عليه بالأفول من فورهِ ، ويمكن تشبيه الأفضليات الذهنية العظيمة بالنبات الذى ضخمه البستانيُّ بفنِّه فلا يلبث أن يموت أو يعودَ إلى مثال نوعه المتوسط إذا مات ترك وشأنه ، وذلك لما فى نوعه المتوسط من السلطان القوى الذى يُمثِّل سلسلة الأصول الطويلة .

وتدلُّ دراسة مختلف الأمم دراسةً دقيقةً على أن أفراد العرق الواحد إذا تفاوتوا فى الذكاء كثيراً لا يتفاوتون إلا قليلاً فى الخلق الذى هو صخرة ثابتة على الرغم من الزمن كما بيَّنتُ ، ولذلك يجب علينا أن ننظر إلى العرق من ناحيتين مختلفتين عند البحث فيه ، فالعرقُ من الناحية الذهنية لاقية له إلا بصفوة قليلة من الناس يَتمُّ بفضلها مايتفق للحضارة من تقدم فى العلوم والآداب والصناعات ، والعرقُ من الناحية الخَلقية جديرٌ بأن يُنظر إلى طبقته المتوسطة وحدَها ، والأممُ مدينةٌ فى قوتها لمستوى هذه الطبقة المتوسطة على الدوام ، والأممُ يمكنها أن تستغنى عن صفوتها الذهنية على التحقيق ، لاعن درجة معينة من المستوى الخلقى ، وهذا مانوضحه عما قليل .

وبينا يتفاوت أفراد العرق فى غضون القرون تفاوتاً ذهنيًا تدريجيًا على ذلك

الوجه ترى هؤلاء الأفراد في كل وقت يترجحون من الناحية الخلقية حول مثال ذلك العرق المتوسط ، وإلى هذا المثال المتوسط الذي يُرتقى إليه ببطء ينتسب معظم أفراد الأمة ، وتجِدُ هذا الأصل الأساسي مكسُوراً لدى الأمم العليا على الأقل بطبقة رقيقة من ذوى النفوس العالية ذات أهمية من ناحية الحضارة غير ذات أهمية من ناحية العرق ، وتزول تلك الطبقة الرقيقة فتتجدد دوماً على حساب الطبقة المتوسطة التى لا تتغير إلا رويداً رويداً ، وذلك لأن التغيرات الدقيقة تتطلب تراكمًا نحو معنى واحد في قرون كثيرة لتغدو دائمة .

وقد استعنتُ بمباحثٍ تشرىحية صِرْفَةٍ منذ بضع سنين فانهيتُ إلى أفكار في تفاوت الأفراد والعروق تفاوتاً أُسْتَد في إثباته هنا إلى أسباب نفسية ، وإذ يؤدى كلا الباحثين إلى نتائج واحدة فإننى أقتصر على ذكر بعض النتائج التى وصلت إليها فى دراستى السابقة ، وهذه النتائج وُقِّت لها من المقابلة بين ألوف من الجماجم القديمة والحديثة الخاصة بعروق مختلفة ، وإليك أهم ما تمَّ لى :

« إذا ما نظرت إلى سلاسل من الجماجم ، غير ملتفتٍ إلى الأحوال الفردية ، وجدت صلةً وثيقة بين حجم الجمجمة والذكاء ، وهنالك ترى أن الذى يميز العروق الدنيا من العروق العليا لا يقوم على الفروق الضئيلة فى الحجم المتوسط لجماجمها ، بل يقوم على الأمر الجوهرى القائل إن العرق الأعلى يشتمل على عدد من الأفراد ذوى الدماغ الكثير النمو على حين تُبصر العرق الأدنى عاطلاً من مثل هؤلاء الأفراد ، ولذلك تتفاوت العروق بمن فيها من الأفراد الذين يمتازون من جموعها ، لا بمجموعها ، وإذا عدّوت العروق الدنيا البالغة أقصى التأخر لم تجدِ فرّقَ الجماجم المتوسط بين أمة وأمة عظيم الاتساع .

« وإذا قابلتَ بين جماجم مختلف العروق البشرية في الحال والماضى أبصرتَ أن العروق التي يتفاوت حجمُ جماجمها أكثرَ من تفاوت جماجم غيرها هي العروق التي تكون أعرقَ من سواها في الحضارة وأن العرقَ كلما تَمَدَّنَ تفاوتَ حَجْمُ جماجم الأفراد الذين يتألف منهم ، ومن هنا نستنتج أن الحضارة لا تقودنا إلى المساواة الذهنية ، بل إلى تفاوت عميق على الدوام ، ولا تكون المساواة التشريحية والفيزيولوجية إلا في أفراد العروق الدنيا ، وإذا يتعاطى أفراد القبيلة الوحشية أعمالاً واحدة فإن الفرق بينهم يكون ضئيلاً بحكم الضرورة ، وبالعكس يكون الفرق عظيماً بين الفلاح الذي لا يجاوز ماعنده من اللغة ثلاثمئة كلمة والعالم الذي يكون لديه مئة ألف كلمة وما يقابلها من الأفكار .

« وما يؤدي إليه تقدم الحضارة من تفاوت بين الأفراد يَتَجَلَّى بين الجنسين أيضاً ، ولدى الأمم الدنيا أو في الطبقات السفلى من الأمم العليا يتقارب الرجل والمرأة من الناحية الذهنية ، وبالعكس كلما تَمَدَّنت الأمم تفاوت الجنسان شيئاً فشيئاً .

« وإذا قَصَرْنَا المقابلة على رجال ونساءٍ متساوين سنّاً وطولاً ووزناً ، وذلك كما صنعتُ ، وَجَدْنَا تفاوتَ الجنسين تفاوتاً مُطَرِّداً بنسبة درجة الحضارة ، وتبدو هذه الفروقُ ضعيفةً في العروق الدنيا وتبدو عظيمةً في العروق العليا ، وفي الغالب لا تكاد جماجم النساء في العروق العليا تكون أكثرَ نُموّاً من جماجم نساء العروق الدنيا ، وفيما تَجِدُ متوسطَ جماجم الباريسيين من أضخم الجماجم تَجِدُ متوسطَ جماجم الباريسيات لا يزيد حجماً على أصغر الجماجم التي تُشاهد ، وهذه الجماجم النسوية

هى فى مستوى جماجم الصينيات تقريباً ، وهى لا تفوق جماجم نساء كاليدونية الجديدة إلا قليلاً^(١) .

(١) انظر إلى الرسالة التى ألفها الدكتور غوستاف لوبون فى سنة ١٨٧٩ فيها « مباحث تشريحية ورياضية فى فروق حجم الدماغ وفيما بين هذه الفروق والذكاء من صلات » ، وقد قرظ مجمع العلوم وجمعية علم وصف الإنسان هذه المذكرة .

الفصل الخامس

تكوين العروق التاريخية

كيف تكونت العروق التاريخية — الأحوال التي تؤدي إلى امتزاج عروق مختلفة لتكوين عرق واحد — تأثير عدد الأفراد المتواجهين وتفاوت أخلاقهم وبيئاتهم إلخ — نتائج التوالد — أسباب انحطاط المولدين العظيم — تقلب مايسفر عنه التوالد من الأخلاق النفسية الجديدة — كيف تثبت هذه الأخلاق — أدوار التاريخ الحرجة — التوالد عامل جوهري في تكوين العروق الجديدة وهو ، أيضاً ، عامل قوى في انحلال الحضارات — أهمية نظام الطوائف — تأثير البيئات — لا تؤثر البيئات إلا في العروق الجديدة التي هي في دور التكوين بعد أن أوجب توالدها انحلال أخلاقها الموروثة — لا تأثير للبيئات في العروق القديمة — أمثلة مختلفة — معظم العروق التاريخية بأوربة لا يزال في دور التكوين — نتائج سياسية واجتماعية — لماذا أوشك دور تكوين العروق التاريخية أن ينقضي .

بينما فيما تقدم أننا لا نستطيع أن نجد لدى الأمم المتمدنة عروفاً حقيقيةً بالمعنى العالمى ، بل نجد عروفاً تاريخية فقط ، أى عروفاً كونتها مصادفات الفتوح والهجرة والسياسة وما إلى ذلك ، ومن ثم تكونت بفعل تمازج أفراد مختلفي الأصول . وكيف تنتهى هذه العروق المتباينة إلى التمازج وإلى تكوين عرق تاريخي ذي أخلاق نفسية واحدة ؟ هذا هو الذي نبحث فيه .

وأول ما نلاحظه هو أن العناصر المتواجمة اتفاقاً لا تمتزج في كل وقت ، ومن ذلك أن الشعوب الألمانية والمجرية والسلافية وغيرها من التي تعيش في الدولة

النمسية تؤلف عروقاً شديدة الاختلاف فلم تُبدِ ميلاً إلى الامتزاج قط ، وكذلك الإيرلنديون الذين يسيطر عليهم الإنكليز لم يختلطوا بهؤلاء قط ، وأما الأمم المنحطة تماماً ، كأصحاب الجلود الحُمْر (البُورُوج) والأوستراليين والتسمانيين ، فإنها تنزل بسرعة عند مصافقتها للأم العالياً فضلاً عن امتزاجها بها ، وقد دلت التجربة أن كل أمة من الأمم الدنيا تنزل حتماً إذا ما واجهت أمة عالية .

وهناك ثلاثة شروط لا بُدَّ من اجتماعها لامتزاج العروق وتأليفها عرقاً جديداً يكون على شيء من التجانس : فالشرط الأول هو ألا يكون تفاوت العروق المتوالدة كبيراً في العدد ، والشرط الثاني هو ألا يكون اختلاف هذه العروق في الأخلاق عظيماً ، والشرط الثالث هو أن تظل هذه العروق خاضعةً لبيئات واحدة زمنياً طويلاً .

والشرط الأول من تلك الشروط هو على جانب عظيم من الأهمية ، وذلك أن عدداً صغيراً من البيض إذا ما نُقِلَ إلى شعب كثير العدد من الزنوج زال بعد بضعة أجيال من غير أن يترك أثراً في دم ذراريه ، وعلى هذا الوجه غاب جميع الفاتحين الذين قهروا شعوباً كثيرة العدد ، ومن الممكن أن يكون هؤلاء الفاتحون قد تركوا خلفهم حضارتهم وفنونهم ولغتهم ، كما اتفق للآتين في بلاد الغول وللعرب في مصر ، ولكنهم لم يتركوا دمهم .

وللشرط الثاني من تلك الشروط كبير أهمية أيضاً ، وذلك أن مما لا مراء فيه أن العروق الشديدة الاختلاف ، كالبيض والسود مثلاً ، تمتاز في نهاية الأمر ، غير أن ما يُسفر عنه مثل هذا التوالد من المؤلدين هو ظهور شعب أحط من العروق التي اشتق منها بمراحل ، هو ظهور شعب كثير العجز عن ابتداع حضارة أو إدامتها ، والسبب في ذلك هو أن تأثير الوراثة المتباينة يفك الآداب والأخلاق ، ومما

حَدَّثَ أَنَّ مُوَلَّدِينَ مِنَ الْبَيْضِ وَالزَّوْجِ كَمَا فِي سَانِ دُومِينْغٍ قَدْ وَرِثُوا اتِّفَاقًا حَضَارَةً رَفِيعَةً ، فَلَمْ تُعَمَّ هَذِهِ الْحَضَارَةُ أَنْ سَقَطَتْ إِلَى دَرَكَةِ الْإِنْخِطَاطِ ، وَقَدْ يَكُونُ التَّوَالِدُ عَامِلًا تَقْدِمَ إِذَا وَقَعَ بَيْنَ عُرُوقٍ عَالِيَةٍ مُتَقَارِبَةٍ كَالْإِنْكِلِيزِ وَالْأَلْمَانِ فِي أَمْرِيكَةِ ، وَالتَّوَالِدُ يَكُونُ عَامِلًا انْخِلَالًا عَلَى الدَّوَامِ إِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْعُرُوقُ مُتَبَايِنَةً جِدًّا ، وَلَوْ كَانَتْ مِنَ الْعُرُوقِ الْعَالِيَةِ ^(١) .

وَتَوَالِدُ الشَّعْبَيْنِ يَعْنِي تَغْيِيرَ مَزَاجِهِمَا الْجُمَانِيَّ وَمَزَاجِهِمَا النَّفْسِيَّ ، وَالتَّوَالِدُ هُوَ الْوَسِيلَةُ الْوَحِيدَةُ لِتَحْوِيلِ أَخْلَاقِ أَحَدِ الشُّعُوبِ تَحْوِيلًا أُسَاسِيًّا ، وَالْوَرَاثَةُ إِذَا كَانَ لَا يُفْلَهُ إِلَّا الْوَرَاثَةُ فَإِنَّهَا تُؤَدِّي مَعَ الزَّمَنِ إِلَى ظَهُورِ عِرْقٍ جَدِيدٍ ذِي صِفَاتٍ جُمَانِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ جَدِيدَةٍ .

وَالْأَخْلَاقُ الَّتِي تَظْهَرُ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ تَظَلُّ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ مَذْبُذِبَةً ضَعِيفَةً إِلَى الْغَايَةِ ، وَلَا بُدَّ ، لِثَبَاتِهَا ، مِنْ رُكَامٍ وَرِاثَةٍ طَوِيلٍ عَلَى الدَّوَامِ ، وَأَوَّلُ أَثَرٍ لِلتَّوَالِدِ بَيْنَ مُخْتَلَفِ الْعُرُوقِ هُوَ الْقَضَاءُ عَلَى رُوحِ هَذِهِ الْعُرُوقِ ، أَيْ عَلَى مَجْمُوعِ الْأَفْكَارِ وَالْمَشَاعِرِ الْمَشْتَرَكَةِ الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْهَا قُوَّةُ الْأُمِّ وَالَّتِي لَا وَجُودَ لَأُمَّةٍ وَلَا لَوْطَنِ بِدُونِهَا ، وَذَلِكَ هُوَ أَهْرَاجُ أَدْوَارِ تَارِيخِ الْأُمِّ ، وَذَلِكَ هُوَ دَوْرُ الْبَدْءِ وَالتَّحَسُّسِ الَّذِي لَا مَنَاصَ مِنْ مَجَاوِزَةِ الْجَمِيعِ لَهُ ، لِأَنَّهُ لَا تَجِدُ أُمَّةً أَوْ رِيبَةً غَيْرَ قَائِمَةٍ عَلَى أَنْقَاضِ الْأُمِّ الْأُخْرَى ،

(١) تَرَى الْبُلْدَانَ الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا الْمَوْلُودُونَ مُحْكَمًا عَلَيْهَا بِالْفَوْضَى ، مَالِمَ تَهَيَّمْنَ عَلَيْهَا يَدٌ حَدِيدِيَّةٌ ، وَذَلِكَ كَمَا هُوَ وَاقِعٌ فِي الْمَكْسِيكِ وَكَمَا سَبَّحْتُ فِي الْبِرَازِيلِ لَا رَيْبَ ، وَفِي الْبِرَازِيلِ لَا يُؤَلَّفُ الْبَيْضُ سِوَى ثَلَاثِ السَّكَّانِ ، وَأَمَّا بَقِيَّةُ هَؤُلَاءِ مِنَ الزَّوْجِ وَالْخَلَاسِيَيْنِ ، وَمِنَ الصَّوَابِ قَوْلُ أَغَاسِيْزِ الصَّهْبِرِ : «إِنَّهُ يَكُونُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَكُونَ فِي الْبِرَازِيلِ لِكَيْلَا يَنْكُرَ أَمْرَ الْإِنْخِطَاطِ الَّذِي يَنْشَأُ عَنْ تَوَالِدِ لَا تَجِدُ لَهُ مِثْلًا فِي مَكَانٍ آخَرَ ، وَيَقْضَى هَذَا التَّوَالِدُ عَلَى أَطْيَبِ الصِّفَاتِ فِي الْبَيْضِ أَوْ فِي السُّودِ أَوْ فِي الْهِنُودِ (سَكَّانِ أَمْرِيكَةِ الْأَصْلِيِّينَ) عَلَى السَّوَاءِ ، وَيُؤَدِّي هَذَا التَّوَالِدُ إِلَى ظَهُورِ مِثَالٍ يَقْصُرُ عَنْهُ الْوَصْفُ لِمَا فِيهِ مِنْ ضَعْفِ جُمَانِيٍّ وَنَفْسِيٍّ » .

وذلك هو الدور المملوء بالمنازعات الداخلية وبتصاريف الدهر فلا ينقضى قبل استقرار الأخلاق النفسية الجديدة .

ومما تقدم ترى أنه يجب عدُّ التوالد عاملاً أساسياً في تكوين العروق الجديدة وعاملاً قوياً في انحلال العروق القديمة ، ومن الصواب ، إذن ، أن اجْتَنَبَتِ الأُمُّ التي بلغت درجة رفيعة من الحضارة مخالطة الأجانب ، ولولا نظامُ الطوائف العجيبُ لرأى لفيقُ الآريين الذي استولى على الهند نفسه غارقاً بسرعة في جماعة السُّودِ الكبيرة التي كانت تحيط به من كلِّ جانب ولَمَّا ظهرت أية حضارة في تلك البلاد العظيمة ، ولو لم يحافظ الإنكليز في أيامنا على مثل ذلك النظام عملياً فتوالدوا هم وأبناء البلاد الأصليين لَخَسِرُوا إمبراطورية الهند العظمى منذ زمن طويل ، أَجَلٌ ، قد تَفَقَّدَ الأمة أشياء كثيرةً وتُعَانِي مصائبَ كثيرة ثم تنهضُ بعد ذلك ، ولكنها تَفَقِّدُ كلَّ شيء فلا تنهضُ أبداً إذا أضاعت روحها .

والتوالدُ يقوم بدَوْرِهِ الْمُخَرَّبُ ثم بدَوْرِهِ المُبْدِعِ اللذين تكلمت عنهما فيما تقدم عند ما تغدو الحضاراتُ التي تكون في دور الانحطاط فريسة الغزاة المسلمين أو المقاتلين ، وهذا التوالدُ يُقَوِّضُ دعائم الحضارة القديمة لتقويضه روحَ الأمة التي تُنَمِّسُهَا ، وهو يوجب ابتداعَ حضارة جديدة ما دامت الأخلاق النفسية القديمة للشعوب المتقابلة قد زالت ، وما دامت قد بَدَتْ أخلاقٌ جديدة في طور التكوين بفعل أحوال الحياة الجديدة .

وفي العروق التي تكون في دور التكوين بعد أن خَسِرَتْ صفاتها الموروثة بَوَرِاثَاتٍ معاكسة ، وفي هذه العروق فقط ، يبدو تأثير آخر العوامل المذكورة في بدء هذا الفصل : يبدو تأثيرُ البيئات ، وتأثيرُ البيئات هذا ، وهو ضعيفٌ إلى

الغاية في العروق القديمة ، عظيمٌ إلى الغاية في العروق الجديدة ، وبيانُ الأمر أن التوالد ، حين يَهْدِمُ الأخلاقَ النفسية الموروثة التي دامت عِدَّةَ قرون ، يُحْدِثُ لوحاً مَلِيساً فيقيم عملُ البيئات عليه بناءً في قرون كثيرة ثم يُوطِّدُ الأخلاقَ النفسية الجديدة ، وهناك ، وهناك فقط ، يكون قد تَكَوَّنَ عِرْقٌ تاريخيٌّ جديد ، وعلى هذا الوجه تَكُونُ عِرْقُنَا .

والبيئاتُ ، ماديةٌ كانت أو أدبية ، هي ذاتُ قوةٍ أو ضَعْفٍ بحسب الأحوال ، وبهذا نفس السبب في تناقض ما دار حول تأثيرها من الآراء ، وتأثيرُ البيئات يكون عظيماً في العروق التي هي في دور التكوين كما رأينا ، ولكننا إذا نظرنا إلى العروق التي نَبَتَتْ منذ زمن طويل بفعل الوراثة أمكننا أن نقول إن تأثير البيئات فيها يكاد يكون صِفْراً .

ولنا في عدم تأثير حضارتنا الغربية في أمم الشرق ، مع اتصالها بها منذ عِدَّةِ أجيال ، دليلٌ على عدم تأثير البيئات الأدبية في العروق ، وذلك كما يشاهد لدى الصينيين المقيمين بالولايات المتحدة ، ولنا في مصاعب التوطن دليلٌ على ضَعْفِ تأثير البيئات المادية ، وأهونُ على العِرْقِ القديم أن يَفْنَى من أن يتحول إذا ما نُقِلَ إلى بيئة تختلف عن بيئته اختلافاً كبيراً سواءً أكان هذا العرق بشرياً أم حيوانياً أم نباتياً ، ومن ذلك أن غَدَّتْ مصرُ قبرا لفتحيها من مختلف الأمم على الدوام ، ومصر هذه لم يَسْطِعْ أحدٌ أن يستوطنها ، ومصرُ هذه لم يَتْرُكْ فيها الأغارقة والرومان والفرس والعرب والترك وغيرهم أثراً من دماهم ، والمشالُ الوحيد الذي تُبْصِرُهُ في مصرَ هو مثال الفلاح الثابت الذي تُشابه ملامحُه ملامح أولئك الذين نَحْنُهم متفننون مصرَ منذ سبعة آلاف سنة على قبور الفراعنة وقصورهم .

ولا يزال مُعظم العروق التاريخية الأوروبية في دور التكوين ، ومن المهم معرفة ذلك لإدراك تاريخ تلك العروق ، ويكاد الإنكليزيُّ الحاضر وحده يُمثِّل عِرْقاً ثَبَتَ أمرُه تماماً ، وفي الإنكليزيِّ أَمَحَى البريتونيُّ القديمُ والسكونيُّ والنورمانديُّ لتأليف مثال جديد على شيء من التجانس ، والأمرُ في فرنسا على العكس ، فترى فيها البروقنسيَّ يختلف كثيراً عن البريتونيِّ ، وترى فيها الأوفرنِّيَّ يختلف كثيراً عن النورمندیِّ ، ومع ذلك نقول : إذا لم يوجد حتى الآن مثالٌ فرنسيٌّ متوسط فإنه يوجد على الأقلُّ أمثلةٌ متوسطة في بعض البقاع الفرنسية ، ومن دواعي الأسف أن كانت هذه الأمثلةُ مختلفةً أشدَّ الاختلاف في الأفكار والأخلاق ، ومن الصعب ، إذن ، أن تَجِدَ نَظْماً تلائم هذه الأمثلةَ على السواء ، والنظامُ المركزيُّ العنيف وحده هو الذي يستطيع أن يَئْمَنَ عليها ببعض الأفكار المشتركة ، وما لدينا من فروق عميقة في المشاعر والمعتقدات وما أسفرت عنه هذه الفروق من الانقلابات السياسية فصدرُهما الرئيسُ هو فيما بين الأمزجة النفسية من فروقٍ يستطيع المستقبل وحده أن يَمَحُوها على ما يحتمل .

ويبدو الأمر دَوْماً على الوجه المذكور عند تَمَاسٍ مختلف العروق ، وتظهر المنازعاتُ الداخلية والانشقاقاتُ عنيفةً بنسبة اختلاف العروق المتواجبة ، ومن المتعذر أن تُحْمَلَ العروقُ الشديدة التباين على العيش بِنَظْمٍ واحدة وقوانين واحدة كما يشهد بذلك في كلِّ وقتٍ تاريخُ الإمبراطوريات العظمى التي تألفت من عروق مختلفة والتي تزول بزوال مؤسسها في الغالب ، ومن الأمم الحديثة تَجِدُ الهولنديين والإنكليز وحدهم قد وُقِّعُوا لفرص سلطانهم على شعوب آسيوية تختلف عنهم اختلافاً كبيراً ، ولكنهم لم يَصِلُوا إلى ذلك إلا لأنهم عَرَفُوا كيف يحترمون طبائع هذه

الشعوب وقوانينها تاركين لها إدارة نفسها بنفسها في الحقيقة مقتصرين على جزء من الضرائب وعلى ممارسة التجارة وحفظ الأمن .

وإذا عدّوت هذه الاستثناءات النادرة وجدت أن جميع الإمبراطوريات الكبيرة المشتعلة على أمم متباينة لم تَقُمْ إلا بالقوة وأنها تنزل بالعنف ، والأمة لكي تنشأ فتدوم لا بدّ لها من أن تتكون على مهلٍ بامتزاج عروق قليلة الاختلاف مقداراً فمقداراً وبتواليد هذه العروق فيما بينها توالداً مستمراً وبعيشها على أرض واحدة وبمعاناتها تأثير بيئات واحدة وبإذعانها لنظم واحدة ومعتقدات واحدة ، وهكذا تستطيع هذه العروق المختلفة أن تؤلف أمة متجانسة بعد مرور بضعة قرون .

والعالمُ كلما تقدم عهده استقرت العروق فيه شيئاً فشيئاً ، وغدا تحولها بالامتزاج نادراً مقداراً فمقداراً ، والبشرية كلما تقدمت سنّاً شعرت بثقل الوراثة وصعوبة التحول ، ولذا يمكننا أن نقول إن دور تكوين العروق التاريخية في أوربة سينقضي بعد قليل .

البَابُ الثَّانِي

كَيْفَ تَجَلَّى الْأَخْلَافُ وَالنَّفْسِيَّةُ لِلْعُرُوقِ
فِي مُخْتَلَفِ عَنَاصِرِ الْحَضَارَاتِ

١٥٤٥

قوله في سيفنا (التي لا الجحش في)
ثالث الخطوط حول سيفنا

الفصل الأول

عناصر الحضارة مظهر خارجي لروح الأمة

عناصر الحضارات هي مظاهر خارجية لروح الأمم التي أوجدتها — تختلف أهمية هذه العناصر باختلاف الأمم — تمثل الفنون والآداب والنظم إلخ ، شأنها أساسياً بحسب الأمم — أمثلة عن المصريين والأغارقة والرومان في القرون القديمة — يمكن أن يكون لمختلف عناصر الحضارة تطور مستقل عن سير هذه الحضارة العام — أمثلة من الفنون — ماذا تدل عليه الفنون — تعذر الاستدلال على مستوى الحضارة بأحد عناصرها فقط — العناصر التي تكون بها أفضلية الأمة — قد تكون العناصر الشديدة الانحطاط فلسفياً عالية جداً من الناحية الاجتماعية .

يجب أن يُعَدَّ مختلف العناصر التي تتألف منها إحدى الحضارات من لغاتٍ ونظم وأفكار ومعتقدات وفنون وآداب مظهرًا خارجيًا لروح الذين أبدعوها ، بيد أن أهمية هذه العناصر تبدو متفاوتة إلى الغاية بتفاوت الأزمان والعروق ما دامت عنوان روح إحدى الأمم .

واليوم لا تجدُ كتاباً باحثاً في الآثار الفنية من غير أن يُبْدَى هذه الآثار تَرْجُماناً صادقاً لأفكار الأمم ومعبراً مهماً عن حضاراتها .

ولا ريب في أن الأمر على ذلك الوجه في الغالب ، ولكن الأمر بعيدٌ من أن يكون قاعدةً مطلقة فيطابق رقيُّ الفنون رقيُّ الأمم الذهنيَّ في كلِّ وقت ، فإذا كانت الآثار الفنية لدى بعض الأمم أهمَّ مظهر لروحها فإنَّ الأمم من بلغت

درجةً رفيعةً جداً في سُلّم الحضارة مع بقاء شأن الفنون ثانوياً عندها ، ولو قُضِيَ علينا بأن نكتب تاريخاً لحضارة كلِّ أمةٍ غيرَ ناظرين إلى غيرِ عنصر واحد لوجدنا اختلافَ هذا العنصر بين أمةٍ وأمةٍ ، أى لوجدنا الفنونَ أحسنَ وسيلةً لمعرفة بعضها كما أننا نجدُ النُظُمَ أو الجندية أو الصناعة أو التجارة أظهرَ ما نَتَّبِعُ بها غيرها ، وهذا أمرٌ يجب تقريره قبل كلِّ شيءٍ لما نستطيع أن ندرك به فيما بعد السببَ في أن مختلف عناصر الحضارة كان عُرْضةً لتحولات متفاوتة بانتقاله من عِرْقٍ إلى آخر .

ولنا في المصريين والرومان من أم القرون القديمة عِدَّةُ أمثلة بارزة على ذلك التفاوت في نشوء مختلف عناصر الحضارة ، حتى في مختلف الفروع التي يتألف منها كلُّ واحد من هذه العناصر .

وانظرُ إلى المصريين قبل كلِّ شيءٍ ، ترَ الآدابَ عندهم ضعيفةً جداً في كلِّ وقت ، وترَ فنَّ التصوير عندهم هزياً جداً ، وترَ فنَّ البناء وصنع التماثيل قد أسفر عندهم عن أنفس الآثار ، فلا تزال مبانيهم تثير إعجابنا ، ويصلح ما تركوه لنا من التماثيل ، كتماثيل الكتائب وشيوخ البلد وراحتب ونفرت آرى وغير ذلك ، أن يُتَّخَذَ نماذج حتى في زماننا ، وما استطاع الأغاثة أن يجاوزوا مستوى تلك التماثيل إلا لوقت قصير .

وبجانب المصريين نذكر الرومان الذين مثّلوا دوراً كبيراً في التاريخ ، والرومان لم يكن ليعوزهم المُرَبُّون ولا النماذجُ ما وُجِدَ المصريون والأغاثة خلفهم ، والرومان لم يستطيعوا أن يتدعوا فناً خاصاً بهم مع ذلك ، ومن المحتمل أنك لا تُبْصِرُ أمةً أبدت من قلة الإبداع ما أبداه الرومان في منتجاتهم الفنية ، والرومان كانوا لا يبالون

بالفنون إلا قليلاً ، والرومان كانوا لا ينظرون إلى الفنون إلا من جهة النفع فلا يرونها إلا ضرراً من سلع الاستيراد المشابهة للمحاصيل الأخرى كالمعادن والعطور والأبازير التي كانوا يلتمسونها من الأمم الأجنبية ، والرومان على ما اتفق لهم من سيادة العالم لم يكن لهم فن قومي ، حتى إنهم في دور السلم العام لم يؤدّ تراوهم واحتياجهم إلى النفائس إلى غير نموّ قليل في مشاعرهم الفنية فكانوا يطلبون النماذج والمتفنين من الأغارقة ، وما كان تاريخ فنّ البناء والنحت لدى الرومان غير فصلٍ تالٍ لتاريخ العمارة والحفر عند الأغارقة .

بيد أن أمة الرومان العظيمة ، المتأخرة في الفنون كثيراً ، أوجبت نهوض ثلاثة عناصر أخرى من عناصر الحضارة ، فقد كان عندها من النظم الحربية ما سيطرت به على العالم ، وكان لديها من النظم السياسية والقضائية ما لا تزال تسير على غراره حتى اليوم ، وكان لها من الآداب المبكرة ما استوحيناه في قرون كثيرة . إذن ، نرى بما يقف النظر تفاوتاً في نشوء عناصر الحضارة لدى أمتين لا جدال في سموّ ثقافتهما ، ونستطيع أن نبصر الأغاليط التي نكون عرضة لها عند ما تقتصر على اتخاذ عنصر واحد مقياساً كالفنون مثلاً ، وهما نحن أولاً قد وجدنا الفنون لدى المصريين مبتكرةً ممتازةً إلى الغاية مع استثناء التصوير ، ووجدنا الآداب لديهم هزيلة ، وهما نحن أولاً وجدنا الفنون عند الرومان هزيلةً عاطلةً من أيّ إبداع ووجدنا الآداب عندهم رائعة ووجدنا النظم السياسية والحربية عندهم من الطراز الأول .

والأغارقة أنفسهم ، وهم من الأمم التي أبدت من التفوق في مختلف الفروع ما لم يُبده غيرها ، يمكن الاستشهاد بهم لإثبات فقدان المطابقة بين نموّ مختلف عناصر

الحضارة ، وبيانُ الأمر أن آدابهم في العصر الأوميريِّ كانت ساطعة إلى الغاية ما دام الناس لا يزالون يَعُدُّونَ أغاني أوميرس نماذجَ قُضَى على الشيبية الجامعية بأوربة بأن تُشَبَّعَ منها منذ قرون ، وأن الحفرياتِ الأثريةَ الحديثة أثبتت كَوْنَ فنِّ العِارةِ وفنِّ النحت لدى الأغارقة في العصر الأوميريِّ على جانب كبير من الغِلظة ما تَأَلَّفَا من تقليدٍ مُشَوَّهٍ لمصرَ وآشور .

والهندوس على الخصوص هم الذين يُتَخَذُونَ دليلاً على ما في نشوء مختلف عناصر الحضارة من تفاوت ، والهندوسُ لم تَفْقَهُمْ أمةٌ في فنِّ العِارةِ إلا قليلاً ، والهندوسُ من الناحية الفلسفية بلغوا من عُمق التأمل درجةً لم يَصِلْ إليها الفكرُ الأوربيُّ إلا في زمن حديث جداً ، والهندوسُ قد أنتجوا في الآدابِ قطعاً تَقْضِي بالعجب وإن لم يُساوُوا الأغارقةَ واللاتين في ذلك ، والهندوسُ قد ظَلُّوا متأخرين في صُنْعِ التماثيل وبقوا فيه دون الأغارقةِ بمراحل ، والهندوسُ قد ظهرُوا صِفراً من العلوم والمعارف التاريخية ومن الدقة مما لا تبصره عند أية أمة أخرى ، والهندوسُ لم تكن علومهم سوى تأملاتٍ طِفْلِيَّةٍ ولم تكن كُتُبُ تاريخهم غيرَ أساطيرٍ صيبانيةٍ عاطلةٍ من أيِّ توقيت ، ومن أيِّ حادثٍ صحيحٍ على ما يحتمل ، وهنا أيضاً ترى أن دراسة الفنون وحدها لا تكفي لتبين مستوى الحضارة عند هؤلاء القوم .

ويمكن سردُ كثير من الأمثلة دَعْماً لتلك القضية ، ومن ذلك أن هنالك عروفاً لم تَبْلُغْ قطُّ أعلى درجةٍ فاستطاعت أن تُبَدِّعَ فناً خاصاً غيرَ ذي صلة ظاهرة بالفنون التي ظهرت قبله ، شأنُ العرب الذين استولوا على العالم اليونانيِّ الرومانيِّ القديم فحوَّلوا فنَّ العِارةِ البيزنطيِّ الذي انتحلوه في بدء الأمر حتى غدا من المستحيل أن يُعْرِفَ المثالُ الذي استوحوه لو لم تكن أماننا سلسلةُ المباني التي تَخَلَّلَتْهُ .

ويمكن أمة أن تبتدع حضارة رفيعة وإن لم تكن ذات استعداد فني أو أدبي ، وذلك كما اتفق للفنيين الذين لم يكن لهم من التفوق غير حذقهم التجاري ، والفنيين تمدن العالم القديم لما كان من جعلهم بعض أقسامه يتصل ببعض ، والفنيون هؤلاء لم يُنتجوا شيئاً تقريباً ولم يكن تاريخهم غير تاريخ تجارتهم .

ثم إن هنالك أمماً ظلت جميع عناصر الحضارة متأخرة عندها خلا الفنون ، وذلك كما اتفق للمغول الذين شادوا في بلاد الهند مباني لا تجد فيها أثراً من الطراز الهندي ، وهذه المباني هي من الروعة ما عدّ معه متفنون ماهر من بعضها من أجل ما صنعتها يد الإنسان ، ويصعب عدُّ المغول من العروق العليا مع ذلك .

على أنه يُلاحظ ، حتى لدى أكثر الأمم حضارة ، أن أعلى درجة في نشوئها الفني لم تكن في زمن بلوغ حضارتها أعلى مراتبها ، فارجع البصر إلى المصريين والهندوس تجد أن أكمل مبانيهم هو أقدمها على العموم ، وارجع البصر إلى أوربة تجد فيها أن الفن الغوطي الرائع الذي لم يعد له عجب الآثار قط قد ازدهر في القرون الوسطى التي يُنظر إليها كدورٍ شبه متوحش .

ومن المتعذر ، إذن ، أن يُحكم في مستوى الأمة برقي فنونها فقط ، والفنون ليست غير عنصر واحد من عناصر حضارة الأمة كما قلت غير مرة ، ولم يَقم دليل قط على أن هذا العنصر والآداب أعلى العناصر ، وبالعكس تكون الآثار الفنية في الغالب أضعف الآثار لدى الأمم البالغة ذروة الرقي المادي كالرومان في القرون القديمة والأمريكيين في الوقت الحاضر ، وفي الغالب أيضاً ، وذلك كما قلناه منذ هُنيئة ، تُبتدع الأمم في أجيالها شبه المتوحشة أنفس آثارها الأدبية وأنفس آثارها الفنية على الخصوص ، والذي يلوح هو أن دور تجلّي شخصية الأمة في الفنون هو

دورٌ تفتَحُ طفولتها أو فتوتها لا دورٌ نضجها ، وإذا نظرنا إلى مناحي العالم الجديد
النفعية التي نبصر فجرها وجدنا شأن الفنون لا يكاد يكون بدياً وأمکننا أن نبصر
اليوم الذي تُصنَّفُ فيه هذه الفنون بين مظاهر الحضارة الثانوية إن لم تُعدَّ من
أدنى مظاهرها .

وهناك عدَّةُ أسباب تحول دون سير الفنون في تطورها سيراً موازياً لتقدم
عناصر الحضارة الأخرى ومؤدياً دوماً إلى الاطلاع على حال هذه الحضارة ، وسواءً
علينا أنظرنا إلى مصر أم إلى الإغريق أم إلى مختلف أم أوربة لم نر سوى سُنَّة عامة
واحدة وهي : أن الحضارة عند ما تبلغ مستوى معيناً ، أى حيناً تظهر بعضُ الآثار
النفيسة ، يبدو دورٌ من الانحطاط في الفنون مستقلٌّ عن سير عناصر الحضارة
الأخرى ، وطورُ الانحطاط في الفنون هذا يبقى إلى الزمن الذي فيه يُدخل انقلابٌ
سياسيٌّ أو غزوٌ أجنبيٌّ أو اعتناقٌ معتقدٍ جديد أو أى عاملٍ آخر عناصر جديدة
إلى الفن ، وذلك كما وقع في القرون الوسطى حين أسفرت الحروب الصليبية عن
جلبِ معارف وأفكارٍ جديدة قفزت بالفنون إلى الأمام فنشأ عن ذلك تحويل
الطرّاز الرومانيّ إلى الطرّاز الغوطيّ ، وذلك كما وقع أيضاً بعد بضعة قرون حين
أوجبت النهضة تحويل الفن الغوطيّ ، وذلك كما وقع في بلاد الهند حين أدت
المغازي الإسلامية إلى تغيير الفن الهندوسي تغييراً تاماً .

وإذا كانت الفنون ، كما نلاحظ أيضاً ، تُعبّرُ بوجه عامٍّ عن بعض ضرورات
الحضارة وكانت تلائم بعضَ المشاعر فإنها مَقْصِيٌّ عليها بأن تعاني من التحولات
ما يلائم هذه الضرورات كما أنها محكومٌ عليها بالزوال تماماً عند تحوُّل الضرورات
أو المشاعر التي أوجبت حدوثها أو زوال هذه الضرورات ، ولا يدلُّ هذا على أن

الحضارة تكون في دور الانحطاط إذ ذاك ، وهنا أيضاً نَلْمِسُ فَقْدَانَ الموازنة بين تطور الفنون وتطور عناصر الحضارة الأخرى ، وما تقدمت الحضارة في أي دور من أدوار التاريخ كتقدمها الآن ، وما كانت الفنون أكثر ابتداءً وأقل شخصية مما هي عليه اليوم على ما يحتمل ، وبيان ذلك أن غياب المعتقدات الدينية والأفكار والاحتياجات ، التي تجعل من الفن عنصراً جوهرياً من عناصر الحضارة في الدور الذي كانت المعابد والقصور فيه محارب لها ، أسفر عن صير الفن أمراً ثانوياً ، أي موضوعاً تسليئياً يتعذر تخصيص وقت كبير ومال كثير من أجله ، وإذا صار الفن أمراً غير ضروري فإنه لا يكون إلا مصنوعاً أو أثر تقليد ، واليوم لا ترى أمة ذات فن قومي ، وكل أمة تركز اليوم إلى نسخ ما كان في غابر الأدوار نسخاً موقفاً أو غير موفق سواء أكان ذلك في فن العمارة أم في فن النحت .

نعم ، إن فن العمارة وفن النحت وليدا احتياجات وأهواء لا ريب ، ولكن من الواضح أنهما لا يُعَبَّرَان عن أفكارنا الحديثة ، ومما أُعْجِبُ به ما كان يأتي به متفننونا في القرون الوسطى من الآثار الساذجة حين كانوا يُصَوِّرون القديسين ويسوع والجنات وجهنم ، حين كانوا يُصَوِّرون أموراً أساسية في ذلك الزمن ، أموراً كانت تُعَدُّ أغراض الحياة الرئيسة آنذ ، بيد أن المصورين الذين أصبحوا عاطلين من تلك المعتقدات ، إذا ما سترُوا جُذْرَنَا بالأساطير الابتدائية أو بالرموز الصبائية محاولين الرجوع إلى فن زمن آخر لا يكونون قد صنعوا بذلك غير تقليد هزيل لِصُورٍ لا فائدة منها للحاضر وتكون عرضةً للازدراء في المستقبل .

والفنون الحقيقية الوحيدة ، والفنون الوحيدة التي تُعَبَّرُ عن أحد الأدوار ، هي التي يُعْرَضُ بها المتفنن ما يَشْعُرُ به وما يراه بدلاً من اقتصره على تقليد أشكال

تلائم ما لا وجود له في الساعة الراهنة من الاحتياجات أو المعتقدات ، وما في أيامنا من تصوير صادق وحيد فيقوم على نقل الأشياء التي تحيط بنا ، وما في أيامنا من فنٍّ عمارة صادق أيضاً فهو شيدٌ بيتٍ ذي طبقات خمسٍ وإنشاءً قنطرةٍ وإقامةً مُحطةٍ خطٍّ حديدىٍّ ، ويلائم هذا الفنُّ النفعيُّ احتياجاتِ حضارتنا وأفكارها ، وهذا الفنُّ هو من مُميزات هذا الدور كما كان الفنُّ الذي شيدتْ به الكنيسةُ الغوطية والقصر الإقطاعيُّ من مُميزات الماضي ، وسيكون للفنادق العصرية الكبرى وللكنائس الغوطية القديمة فائدةٌ متساوية عند عالم الآثار في المستقبل لما ستُعَدُّان به صفحاتٍ متعاقبةً لتلك الكتب الحجرية التي يتركها كلُّ عصر خلفه ، على حين يزدري هذا العالم ما يأتي به المتفننون المعاصرون تقليداً من الآثار الهزيلة ، لأنه ليس من الوثائق المفيدة . وكلُّ فنٍّ يُلَخِّص ما لأحد الأدوار وأحد العروق من المثل الأعلى ، ولما بين الأدوار ، وكذلك العروق ، من اختلافٍ وَجَبَ اختلافُ المثل الأعلى باستمرار ، والمثل العليا إذا ما نَظَرْتَ إليها من الناحية الفلسفية وجدتها متساوية ، وسببُ هذا التساوى هو في كونها ليست سوى رموز موقفة .

إذن ، تُمَثِّلُ الفنونُ المظهرَ الخارجى لروح الأمة التي ابتدعتها كما تمثِّلها جميعُ عناصر الحضارة الأخرى ، غير أن الفنون هي ، كما قلتُ غير مرة ، بعيدةٌ عن أن تكون أصدقَ مظهر لروح الأمم .

وكان البرهانُ ضرورياً ، وذلك لأن أهمية أحد عناصر الحضارة هي مقياس لقدرة الأمة على تحويل العنصر عند ما تقتبسه من أمة أجنبية ، وإذا ما تجلَّتْ شخصية الأمة ، مثلاً ، في الفنون على الخصوص فإنها لا تنقلُ النماذج المستوردة من غير أن تطبعها بطابعها الخاصِّ ، وهى ، بالعكس ، لا تُحوِّلُ العناصر التي لا تُعبِّر عن

عبقريتها غير تحويل قليل ، ومن ذلك أن الرومان حينما انتحلوا فن عِمارة الأغارقة لم يُحوّلوه تحويلاً أساسياً لعدم تَجَلّى روحهم فى المباني .

ومع ذلك لا مناصّ للفنّ من معاناة تأثير البيئة فى قليلِ قرونٍ ومن أن يكون على الرغم منه تقريباً عنوان العِرْق الذى انتحله حتى عند مُثل تلك الأمة العاطلة من فنّ عِمارة خاصّ والمُضطرّة إلى البحث عن نماذجها ومتفنيها فى الخارج ، ولا ريب فى أن المعابد والقصور وأقواس النصر والنقوش البارزة فى رومة القديمة هى من صنّع الأغارقة أو من صنع تلاميذ الأغارقة ، غير أن سِمَة هذه المباني وغايتها وزخارفها ، وسِعَتها أيضاً ، لا تُثير فىنا ذكرياتِ العبقريّة الأثنيّة الشعريّة اللطيفة ، بل تُثير فىنا فكرَ القوة والتغلب والروح الحربية الذى كان يقيم رومة ويقعدها ، وهكذا ترى أن العِرْق ، حتى فى الميدان الذى لا تبدو فيه شخصيته كثيراً ، لا يخطو حُطوةً من غير أن يترك أثراً خاصّاً به فينمّ هذا الأثر على شىء من مزاجه النفسى وفكره الباطنى .

وبيان ذلك أن المتفنين الحقيقيّ ، معارياً كان أو أدبياً أو شاعراً ، ذو ملكة سِحريّة يُعبّر بها فى تراكييه عن روح أحد العروق أو أحد الأزمان ، وإذ كان المتفنون كثيرون الانفعال غزيرى اللاشعور مفكرين بالصُّور على الخصوص قليلي التعقل فإنهم يكونون فى بعض الأدوار مرآياً صادقةً للمجتمع الذى يعيشون فيه فتكون آثارهم أصحّ الوثائق التى يُستند إليها فى تصوير إحدى الحضارات ، وهم يظلمون من كثرة اللاشعور ما يبدؤون به صادقين شديدي التأثير بالبيئة التى تحيط بهم فيعبّرون بإخلاصٍ عن الأفكار والمشاعر والاحتياجات والمناخ ، وليس لدى المتفنين حرية ، وفى هذا سرُّ قوّتهم ، والمتفنون مسجونون فى شبكة من التقاليد

والأفكار والمعتقدات التي يتألف من مجموعها روح أحد العروق وأحد الأزمنة ، أي مسجونون في تراث من المشاعر والآراء والإلهامات العظيمة التأثير فيهم لسيطرتها على مناطقهم اللاشعورية الغامضة حيث تنضج أعمالهم ، ونحن ، لو لم تكن هذه الآثار لدينا ، لاقتصرت معارفنا بالقرون الغابرة على ما جاء في الأقايص السخيفة وعلى ما ورد في كتب التاريخ من تلفيق مصنوع ولغدا ماضى كل أمة بذلك أمراً خافياً علينا تقريباً كأمر هذه الأطلنطيد الحافلة بالأسرار والتي غمرتها الأمواج فتكلم عنها أفلاطون .

إذن ، مزية الأثر الفني الصحيح هي في التعبير بإخلاص عن احتياجات الزمن الذي ولد فيه وعن أفكاره ، ولا تزال الآثار الفنية ولا سيما المباني أبلغ من جميع اللغات التي تخبرنا بالماضي ، وتلك الآثار هي أصدق من الكتب وأقل تصنعاً من الديانات واللغات ، وهي تُعبّر عن المشاعر والاحتياجات معاً ، والبناء هو المنشئ لمنزل الإنسان وبيت الآلهة ، والواقع هو أن في سواء المعبد والدار تنضج الأسباب الأولى للحوادث التي يتألف التاريخ منها .

ومن الملاحظات السابقة يمكننا أن نستنتج أن العناصر المختلفة التي تتألف منها الحضارة إذ كانت عنوان روح الأمة التي ابتدعتها يُعبّر بعض هذه العناصر الذي يتغير بحسب العروق ، ويتغير بحسب الأزمنة أيضاً ، عن روح العرق أحسن من سواه .

ولكن طبيعة تلك العناصر ، إذ كانت تختلف بين أمة وأمة وبين دور ودور ، لا نجد منها عنصراً واحداً يصلح أن يكون مقياساً عاماً لتقدير مستوى مختلف الحضارات .

ومن المستحيل أيضاً أن نُصنّف تلك العناصر تصنيفاً مُرتباً ، وذلك لأن أهمية تلك العناصر إذ كانت تختلف باختلاف الأدوار يختلف التصنيف بين قرن وقرن .
 وإذا ما قُدِّرَتْ عناصرُ الحضارة المختلفة من حيث المنفعة الصّرفَةُ أمكننا أن نقول إن أهمَّ عناصر الحضارة هو الذي يؤدّي إلى تعبيد أمة للأمم الأخرى ، أى إن أهمَّ عناصر الحضارة هو النظامُ الحربى ، ولكنه يجب إذ ذاك أن نضع مرتبة الأغارقة المتفنين والفلاسفة والأدباء تحت كتائب رومة الشديدة الوطأة وأن نضع مرتبة المصريين الحكماء والعلماء تحت شِبه البرابرة الفُرس ، وأن نضع مرتبة الهندوس تحت أنصاف البرابرة المغول .

ولا يكثرُ التاريخُ لتلك التقسيمات أبداً ، والتاريخُ لا يَخِرُّ راکعاً إلا أمام المزية الحربية وحدها ، غير أن المزية الحربية لا تصاحب مزيةً مقابلةً لها فى عناصر الحضارة الأخرى إلا نادراً ، أو أنها لا تدّعى هذه المزية بجانبها لطويل زمن ، ومن المؤسف أن كانت المزية الحربية لا تَضَعُ لدى أمة من غير أن يَقْضَى على هذه الأمة بالزوال فى أقرب وقت ، والأممُ حينما تَصِلُ إلى ذروة حضارتها تتركُ على الدوام مكانها لمن هم دونها ذكاء من البرابرة ، ولكن مع حيازة هؤلاء البرابرة لما تؤدى الحضارات الرفيعة إلى تقويضه من بعض الصفات الخلقية والقيمة الحربية .
 إذن ، لا بُدَّ من الانتهاء إلى النتيجة المحزنة القائلة إن مافى إحدى الحضارات من العناصر الدنيا فلسفياً هو أهمُّ العناصر اجتماعياً ، وإذا كانت سُننُ الماضى سنناً للمستقبل أمكننا أن نقول إن أسوأ حالٍ تُصاب بها أمةٌ هو أن تَبْلُغَ هذه الأمة درجةً عالية من الذكاء والثقافة ، فالأممُ تَهْلِكُ عند ما تأخذ الصفات الخلقية التى هى لُحمة روحها فى الفساد ، وهذه الصفات تَفْسُدُ عند ما تسمو حضارة هذه الأمة وذكاؤها .

الفصل الثاني

كيف تتحول النظم والديانات واللغات

لا تستطيع العروق العليا والعروق الدنيا أن تحول عناصر حضارتها فجأة — ما تبديه الأمم التي غيرت دياناتها ولغاتها وفنونها من مناقضة ظاهرة لذلك — ما اعتور البهية والبرهية والإسلام والنصرانية من تحولات عميقة بحسب العروق التي انتحلها — ما يعتور النظم واللغات من تغير بحسب العروق التي انتحلها — ثم الألفاظ التي تعد متقابلة في مختلف اللغات على آراء وطرز تفكير مختلفة جداً — تعذر ترجمة بعض اللغات لهذا السبب — السبب في أن حضارة إحدى الأمم في كتب التاريخ تبدو أحياناً ، خاضعة لتحولات عميقة — حدود تأثير الحضارات تأثيراً متقابلاً .

بيّنا في مكان آخر أنه يستحيل على العروق العليا أن تقرّض حضارتها على العروق المتأخرة أو تحمّل هذه العروق على اعتناق تلك الحضارة ، ونحن حينما تناولنا أقوى مالمى الأوربيين من وسائل التأثير كالتربية والنظم والمعتقدات أثبتنا عدم كفاية هذه الوسائل لتغيير الحال الاجتماعية في الأمم المتأخرة ، ومما حاولنا صنّعه هو بياننا أن جميع عناصر إحدى الحضارات تلائم مزاجاً نفسياً معيناً نشأ عن وراثته طويلة فغدا من المتعذر تغيير هذه العناصر من غير أن يُغيّر المزاج النفسى الذى تُشتق منه ، والقرون وحدها ، لالفايحون ، هى التى تستطيع إنجاز مثل هذا العمل ، ومما بيّناه أيضاً أن إحدى الأمم تصعد فى سلم الحضارة ببطء وعلى سلسلة من المراحل كالتى جاوزها هادمو الحضارة اليونانية الرومانية من البرابرة ، ومن

يحاول بالتربية أن يُجَنَّبَ الأمةَ هذه المراحلَ فإنما يَرُبُّكَ مزاجُها النفسىَّ ويسوقها في نهاية الأمر إلى مستوًى أدنى من المستوى الذى كانت تَصِلُ إليه لو تُرِكَت وشأنها .

وهذه البرهنة التى تُطَبَّقُ على العروق الدنيا تُطَبَّقُ على العروق العليا أيضاً ، وإذا كانت المبادئ المعروضة فى هذا الكتاب صحيحةً عَلِمْنَا أن العروق العليا لا تستطيع كذلك أن تُحوِّلَ حضارتها بغتةً ، بل لابدَّ من مرور زمن طويل ومجاورة مراحل كثيرة لبلوغ ذلك ، وإذا ما ظهر اعتناقُ أُممٍ عالية فى بعض الأحيان لمعتقدات ونُظُم ولغات وفنون تختلف عما عند أجدادها لم يكن ذلك بالحقيقة إلا بعد تحويل هذه العناصر تحويلًا بطيئًا عميقًا ملائمًا لمزاج تلك الأمم النفسىَّ .

ويلوح أن التاريخ فى كلِّ صفحة من صَفحاته يناقض ما عرضناه آنفًا ، وما أكثر ما ترى فى التاريخ من أُممٍ تُغَيِّرُ عناصر حضارتها وتعتنق أديانًا جديدةً وتنتحلُّ لغاتٍ جديدةً وتتخذُ نُظُمًا جديدةً ، وفى التاريخ أُممٌ تترك معتقداتها المتأصلة لتعتنق النصرانية أو البُدْهِيَّة (البوذية) أو الإسلام ، وفى التاريخ أُممٌ تُغَيِّرُ نُظُمها وفنونها تغييرًا أساسيًا ، وفى التاريخ يبدو أن فاتحًا أو رسولاً أو هوساً يكفى لإتيان مثل تلك التحولات بسهولة .

غير أن التاريخ حينما يَعْرِضُ علينا قصة تلك الثورة المفاجئة لا يَصْنَعُ سوى إنجاز عمل من أعماله المعتادة ، وهو اختلاقُ الأغاليط ونشرُها ، ونحن حينما ندرس تلك التحولات عن كُتُب لا نُعَمِّمُ أن نرى أن أسماء الأشياء هى التى تتغير ، على حين نُبْصِرُ أن الحقائق التى تستتر خلف الألفاظ تداوم على الحياة ولا تتحول إلا بأقصى البطوء .

ونحن لكي نثبت ذلك ولكي نبيّن في الوقت نفسه كيف يتمّ تطور الأمم البطيء نرى أن ندرس عناصر كل حضارة لدى مختلف الأمم ، أى أن نجدّد تاريخ هذه الأمم ، وقد حاولتُ هذا العمل الشاقّ في عدّة مجلدات ، فلا أفكر في العودة إليه هنا ، وإنتى حيناً أغضى عن العناصر الكثيرة التي تتألف منها إحدى الحضارات أختار أحدها مثلاً ، أى أختار الفنون .

وقبل أن أبدأ في فصل خاصّ بدراسة التطور الذي يعتمر الفنون عند انتقالها من أمة إلى أخرى أقول بضع كلمات عن التحولات التي يعاينها مختلف عناصر الحضارة ، وذلك لأثبت أن السّنن التي تطبّق على عنصر من هذه العناصر تطبّق على جميعها وأن فنون الأمم إذا كانت ذات نسب بمزاج هذه الأمم النفسى فإنّ اللغات والنظم والمعتقدات وما إليها ذات نسب بهذا المزاج أيضاً ، أى إنها لا تتغير ولا تنتقل من أمة إلى أخرى من فورها^(١) .

وقد تظهر تلك النظرية غريبة في أمر المعتقدات الدينية على الخصوص ، وفي تاريخ المعتقدات تجد أحسن الأمثلة لإثباتنا أنه يتعذر على الأمة أن تُغيّر عناصر حضارتها فجأة كما يتعذر على الشخص أن يُغيّر قامته أو لون عيونه .

أجل ، لارجل يحجل أن جميع الديانات العظيمة ، كالبرهمية والبُدّهية والنصرانية والإسلام ، أسفرت عن دخول الناس أفواجا فيما يلوح أنه اعتنقها من عروق بأسرها ، ولكن المرء إذا ما أوغل قليلاً في دراسة ذلك لم يلبث أن يُبصر أن الذي غيّره الأمم على الخصوص هو اسم دينها القديم نفسه ، وفي الحقيقة أن المعتقدات

(١) لا أذكر هنا حال اليابان ، فن المتعذر دراستها في بضع صفحات ، ولذلك أرى إحالة القارئ إلى التأمّلات الرصينة التي نشرها سفير اليابان في بطرسبرغ ، مسيو موتونو ، في كتابه : « غوستاف لوبون وأثره » .

الْمُنْتَحَلَةَ عانت من التحولات الضرورية ما تكون به ذات صلة بالمعتقدات القديمة التي حَلَّت محلها والتي لم تكن غير إدامة لها .

وما تخضع له المعتقدات من تحول عند انتقالها من أمة إلى أخرى هو من الشدة في الغالب ما يكون به الدينُ الْمُنْتَحَلُ حديثاً غير ذى نَسَب واضح بالمعتقد الذى احتفظ باسمه ، ولنا أحسنُ مثال بالْبُدْهِيَّة التي صارت ديناً مُشَوَّهاً بعد انتقالها إلى الصين فإلى اليابان ، والحقُّ أن العلماء عَدَّوْ البدهية ديناً مستقلاً أولَ وهلةٍ فلم يعترفوا بأنها دينٌ حَوَّله العِرْق الذى اعتنقه إلا بعد زمنٍ طويل ، والحقُّ أن الْبُدْهِيَّة الصينية ليست بُدْهِيَّة الهند ، وأن بُدْهِيَّة الهند نفسها تختلف عن بُدْهِيَّة نيبال، وأن بُدْهِيَّة نيبالَ تبتعد عن بُدْهِيَّة سيلان ، ولم تكن الْبُدْهِيَّة في الهند سوى دين منفصل عن البرهمية التي ظهرت قبلها والتي لا تختلف عنها إلا قليلاً ، ولم تكن الْبُدْهِيَّة في الصين أيضاً سوى دين منفصل عن المعتقدات السابقة التي تتصل بها اتصالاً وثيقاً .

وذلك المبدأ الثابت في أمر الْبُدْهِيَّة هو ثابت في أمر البرهمية أيضاً ، وبيانُ ذلك هو : أن عروق الهند إذ كانت شديدة الاختلاف فإن من السهل أن يُفْتَرَض لها وجودُ معتقداتٍ دينيةٍ شديدة الاختلاف مسماة بأسماء واحدة ، وأن جميع الأمم البرهمية تَعُدُّ وَشْنُو وشيوا أهمَّ آلهتها كما تَعُدُّ الويدا كُتُبُها المقدسة ، وأن هذين الإلهين الرئيسين لم يتركَا في الديانة سوى اسميهما ، وأن تلك الكُتُب المقدسة لم تترك سوى نصوصها ، وأنك تجد بجانب ذلك ما لا يخصه عَدُّ من العبادات التي تنمُّ على أشدَّ المعتقدات اختلافاً ، كالتوحيد والإشراك والوثنية ووَحدة الوجود وعبادة الأجداد والعفاريت والحوانات إلخ ، وأنك إذا لم تَحْكَمْ في أمر عبادات الهند بغير ما جاء في كتب الويدا لم يكن لديك أقلُّ فِكْر عن الآلهة التي تَسُود شبه جزيرة الهند

الواسعة وعن معتقداتها ، نعم ، إن جميع البراهمة يقدسون لعنوان الكتب المقدسة ،
يَبْدُ أنه لم يَبْقَ على العموم شئٌ من الديانة التي تقول بها هذه الكتب .
وعلى ما في التوحيد الإسلامي من بساطة لم يَشِدَّ الإسلام عن هذه السُّنَّة .
فترى فرقاً بعيداً بين الإسلام في بلاد الفرس وبينه في جزيرة العرب وبينه في الهند ،
وبلادُ الإشراف الهنْدُ قد وَجَدَتْ وسيلة في جعلها أكثرَ المعتقدات توحيداً معتقداً
إشراك ، فعاد محمدٌ وأولياء الإسلام يَكُونُونَ آلهةً جديدة مضافة إلى ألف إله آخرين ،
حتى إن الإسلام في الهند لم يَوْفَقْ للمساواة بين جميع الناس مع أن المساواة كانت
من أسباب فوزه في أماكن أخرى ، فترى المسلمين في الهند يُطَبَّقُونَ نظامَ الطبقات
كما يصنع الهندوس ، وقد بلغ الإسلام بين الدراويد في الدَّكَّان من التشويه درجةً
لا يمكن تمييزه بها من البرهمية أبداً ، وهو لا يُمَيِّزُ منها أبداً بغير اسم محمد والمسجد
الذي يُعْبَدُ فيه هذا النبيُّ بعد أن أُلِّه .

ولا ضرورة إلى الذهاب حتى بلاد الهند لاستجلاء التحولات العميقة التي عاناها
الإسلامُ بانتقاله من عِرْقٍ إلى عِرْقٍ ، ولَنَنْظُرُ فقط إلى الجزائر التي هي مملكتنا
الكبيرة لِنُبْصِرَ فيها عِرْقَيْنِ شديدي الاختلاف ، لِنُبْصِرَ فيها العرب والبربر الذين هم
مسامون أيضاً ، لِنُبْصِرَ فيها أن الإسلام بين أولئك غيره بين هؤلاء ، لِنُبْصِرَ فيها
أن مبدأ تعدد الزوجات في القرآن تَحَوَّلَ إلى مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة لدى
البربر ، وليس الدين عند البربر غير مزيجٍ من الإسلام والوثنية القديمة التي زاولوها
منذ العصور البعيدة حين كان السلطان لقرطاجة .

ولم تَتَغَلَّتْ دِياناتُ أوربة نفسها من السُّنَّةِ العامة القائلة بتحول الأديان وَفَقْ
روح العروق التي تعتنقها ، وكما في الهند ترى في أوربة أن حَرْفِيَّةَ العقائد التي أثبتتها

النصوص قد ظلت ثابتةً ، غير أن هذه النصوص صِيغَ لَاجِيَةً يُفسَّرُها كلُّ عِرْقٍ على شاكلته ، وفي أوربة ترى اسمَ النصرى الواحدَ يشتمل على اثنين حقيقيين كابن بريتانية الدنيا الذى يُعْبَدُ الأصنام وكالإِسبانيّ الذى يعبد التمام ، وترى ذلك الاسمَ يشتمل على مشركين كالإيطاليّ الذى يُقدَّسُ لصُورِ العذراء فى كلِّ قريةٍ كما يُقدَّسُ لمختلف الآلهة ، ونحن إذا ما أوغلنا فى البحث سهل علينا أن نثبت أن الانفصال العظيم الذى أسفرت عنه ثورة الإصلاح الدينى كان نتيجةً لازمةً لتفسير كتابٍ دينيٍّ واحدٍ من قِبَلِ عروقٍ مختلفة ، فكانت شعوب الشمال تَهْدِفُ إلى المُحاجَّةِ فى عقائدها وتنظيم شؤون حياتها بنفسها ، وكانت شعوب الجنوب تميل إلى البقاء متأخرةً من ناحية الحرية والروح الفلسفية ، فلامثالَ أدعى إلى الإقناع من ذلك . ولكن شرح تلك الأمور يسير بنا إلى بعيد ، ولذلك ترانا مُضْطَرِّين إلى قول كلمةٍ عابرةٍ عن عنصرين أساسيين من عناصر الحضارة ، أى كلمةٍ خاطفةٍ عن النُظُمِ واللغات التى يجاوزُ البحثُ فى جزئياتهما الفنيةِ حدودَ هذا الكتاب .

إن ما صَحَّحَ عن المعتقدات يَصَحِّحُ عن النُظُمِ أيضاً ، والنُظُمُ لا تنتقل من أمةٍ إلى أخرى من غير أن تتحول ، وإذا إننى راغب عن الإكثار من الأمثلة فإننى أرجو من القارئ أن يُبْصِرَ فقط درجةَ تَغْيَرِ النُظُمِ الواحدة التى تَفْرِضُها القوةُ أو الإقناع بحسب العروق مع بقاءها مسماةً بأسماءٍ واحدة ، وسأبين ذلك فى فصل آتٍ عند الكلام عن مختلف البلدان الأمريكية .

وفى الحقيقة أن النُظُمَ هى نتيجةُ ضروراتٍ لا تُؤَثَّرُ فيها عزيمةُ جيلٍ واحدٍ من الناس ، ولكلِّ عِرْقٍ ولكلِّ وجهٍ من وجوه تطور هذا العرق أحوالُ عيشٍ ومشاعرُ وأفكارُ وآراءُ ومؤثراتٌ موروثَةٌ تستلزم نُظُمًا خاصةً دون سواها ، ولا كبيرَ

أهمية لاسم الحكومة في ذلك ، ولم يُقَيِّضْ لأمة أن تختار من النظم ما يلوح أنه أصلحها ، وإذا وقع من المصادفات النادرة ما يؤدي إلى اختيار الأمة نظمًا صالحًا فإن هذه الأمة لا تستطيع أن تحفظ هذه النظم ، وتتألف من الثورات الكثيرة ، ومن تغيير الدساتير تغييراً متعاقباً منذ قرن ، تجربةٌ يجب أن يستقرَّ بها رأى أولياء الأمور عند ذلك الحدِّ ، ثم إنني أرى أن عقل الجماعات المُعَوَّجَ وفكرَ بعض المتعصبين الضيقَ هما اللذان لا يزالان يحتفظان بالرأى القائل إن التغييرات الاجتماعية المهمة تتمُّ بقوة المراسيم ، والشأنُ المفيد للنظم هو منحها تأييداً قانونياً للتغييرات التي رَضِيَتْ بها الطبائعُ وقَبِلَها الرأى العامُّ في نهاية الأمر ، والنظمُ تَتَّبِعُ تلك التغييراتِ ولكنها لا تتقدمها ، وليس بالنظم ما تتغير الأخلاقُ ولا أفكارُ الناس ، وليس بالنظم ما تُجْعَلُ الأمةُ متدينةً أو ملحدةً ، وليست النظمُ هي التي تُعَلِّمُ الأمة قيادة نفسها بنفسها بدلاً من أن تطالب الدولة بأن تصنع لها قيوداً على الدوام .

ولا أسهب في الكلام عن اللغات بأكثر مما أسهب في النظم ، بل أقصر على القول بأن اللغة تتحول بحكم الضرورة عند انتقالها من أمة إلى أخرى ولو أُثْبِتَتْ كتابةً ، وهذا ما يجعل الفكرَ القائل بلغة عامَّة أمراً عقيماً ، أجل ، إن الغوليين مع كثرة عددهم قد انتحلوا اللغة اللاتينية في أقلَّ من قرنين بعد الفتح الرومانى ، غير أن الغوليين لم يلبثوا أن حوَّلوا تلك اللغة على حسب احتياجاتهم ووفقَ منطق روحهم الخاصِّ ، ومن هذه التحولات خَرَجَتْ لغتنا الفرنسية الحاضرة في آخر الأمر . ولم يكن مختلفُ العروق ليتكلم بلغةٍ واحدة طويلاً زمن ، وقد تُؤدَّى مصادفات الفتح أو مصالحُ الشعب التجارية إلى انتحال هذا الشعب لغةً غيرَ لغته الأصلية لا ريب ، ولكن هذه اللغة الجديدة تتحول في أجيال قليلة تحولاً تاماً ، ويزيد هذا

التحول عُمُقًا كلما كان العِرْق الذى استعار تلك اللغة مختلفًا عن العرق المُعير لها .
ومن المحقق على الدوام أن نُبَصِّرَ لغاتٍ مختلفةً فى بلدانٍ مشتملة على عروقٍ مختلفة ،
ولنا بالهند مثالٌ رائع على ذلك ، فشبهُ جزيرة الهند العظمى ، إذ إنها معمورة بعروق
كثيرة مختلفة ، ليس من العجيب أن يجد العلماء فيها مئتين وأربعين لغةً عدا احتوائها
نحو ثلاثمئة لهجة ، وأكثر هذه اللغات انتشاراً حديثة جداً مادام زمن ظهورها
لا يزيد على ثلاثمئة سنة ، وهذه اللغة التى تُعرف بالهندوستانية هى مزيج من الفارسية
والعربية اللتين كان يتكلم بهما الفاتحون المسلمون ومن الهندية التى كانت أكثر اللغات
انتشاراً فى البقاع التى استولى عليها أولئك الفاتحون ، ولم ينشأ الغالبون والمغلوبون
فى الهند أن نسوا لغاتهم الأصلية ليستعملوا تلك اللغة الحديثة الملائمة لاحتياجات
العِرْق الجديد الذى هو نتيجة توالد أمم مختلفة متواجبة .

ولا أزيد فى الإسهاب ، بل أكتفى بالدلالة على الأفكار الأساسية ،
ولو استطعتُ أن ألزم جانب التفصيل الضرورى لذهبتُ بعيداً فقلت إن
الأمم إذا ما اختلفت دلت الكلمات المتقابلة عندها على طُرُزٍ تفكيرٍ وشعورٍ
تبلغ من التباعد ما تبدو لغاتها معه عاطلةً من المترادفات فتستحيل الترجمة من
إحداها إلى الأخرى ، وظاهرةٌ مثل هذه مما يدرك أمره عند النظر إلى أن
الكلمة الواحدة فى البلد الواحد ولدى العِرْق الواحد تدلُّ بعد بضعة قرون على
أفكار مختلفة أشدَّ الاختلاف عما كان لها قبل ذلك .

والكلمات القديمة وحدها هى التى تدلُّ على أفكار الناس فيما مضى ، والكلمات
القديمة ، بعد أن كانت فى الأصل إشاراتٍ لأشياء حقيقية ، لم يُعَمَّ معناها أن تشوّه
بفعل تبدل الأفكار والطباع والعادات ، نعم ، يداوم الناس على البرهنة بتلك

الإشارات المستعملة التي يَصْعُبُ تغييرها ، ولكنك لا تَجِدُ أية صلة بين مدلولها الماضي ومدلولها الحاضر ، وأنت إذا ما رَجَعْتَ البَصَرَ إلى أم بعيدة منا كلَّ البعد منتسبةً إلى حضارات لا شَبَهَ بينها وبين حضارتنا وجدت الترجمة من لغاتها لا تُسْفِر عن سوى ألفاظ مجردة من المعنى الحقيقي ، وتُثير هذه الألفاظ في نفوسنا ، إذن ، أفكاراً لا صلة بينها وبين الأفكار التي كانت تثيرها في الماضي ، وهذه الظاهرة تستوقف النظر ، ولا سيما عند البحث في لغات الهند ، وفي الهند ، حيث الأفكار مذبذبةٌ وحيث المنطق لا يشابه منطقنا أبداً ، لم يكن للألفاظ ذلك المعنى الدقيق المُقَرَّر الذي اتَّفَقَ له في أوربة بفعل القرون وبفعل مزاجنا النفسي في نهاية الأمر ، وفي الهند تجدُ كُتُباً كالويدا قد تَعَذَّرَتْ ترجمتها وذهبت كلُّ محاولة في هذا السبيل أدراج الرياح ^(١) ، ومن الصعب جداً أن نَنفُذَ في فكر من نعيش معهم من الأفراد الذين نفتق عنهم سناً وجنساً وتربيةً ، ومن المتعذر على أيِّ عالم أن يَنفُذَ في أفكار العروق التي اشتدَّت عليها وطأة أعفار العصور ، ولا يَنفَعُ كلُّ علم مُكْتَسَبٍ لغير إثبات عُمق مثل هذه المحاولات .

وعلى ما في الأمثلة السابقة من اختصارٍ وقلةٍ شرحٍ نراها تكفي لإثبات عُمقٍ ما تُحْدِثُهُ الأُمَمُ من تَحَوُّلٍ فيما تقتبسه من عناصر الحضارة ، وهذا الاقتباسُ يبدو عظيماً في الغالب لِتَغْيِيرِ الأَسْمَاءِ فَجْأَةً في بعض الأحيان ، مع أن هذا الاقتباس ضئيلٌ جداً على الدوام ، ولا يلبث العنصر المستعار أن يختلف في نهاية الأمر عن العنصر الذي قام مقامه وذلك مع القرون وبعمل الأجيال البطيء وبما يعتوره من

(١) ذكر أحد العلماء المتخصصين في أمور الهند ، مسيوارت ، ما حدث من مساع كثيرة في ترجمة كتب الويدا فقال : « هنالك نتيجة أسفرت عن جميع الدراسات المتنوعة ، والمناقضة أحياناً ، وهي عجزنا عن ترجمة تلك الوثائق بالمعنى الصحيح » .

إضافات متعاقبة ، والتاريخ ، إذ يبالى بالظواهر على الخصوص ، لا يَأْبَهُ لتلك التغيرات المتعاقبة أبداً ، ونحن ، حين يقول لنا التاريخ ، مثلاً ، إن أمةً اعتنقت ديانةً جديدةً نَتَمَثَّلُ من فَوْرِنا الديانةَ التي نَعْرِفُها اليوم ، لا المعتقداتِ التي كانت قد اعْتُنِقَتْ في الحقيقة ، ولا بُدَّ من استتار غَوْر تلك المطابقات البطيئة لإدراك تكوينها ولمعرفة الفروق الفاصلة بين الألفاظ والحقائق .

وهكذا يتألف تاريخ الحضارات من مطابقات متعاقبة وتحولاتٍ صغيرةٍ متراكمة ، وإذا بَدَتْ هذه التحولاتُ لنا فُجَائِيَّةً عظيمةً فذلك لأننا ، كما في علم الأرض ، نَفُضُ البَصَرَ عن التقلبات المتوسطة لِنُبْصِرَ التقلباتِ القُصْوَى . وفي الحقيقة أن الأمة مهما بلغت من الذكاء والمواهب فإن قدرتها على هَضْم عنصر جديد من عناصر الحضارة تكون في كلِّ وقتٍ محدودةً جداً .

وما كانت خَلِيَّاتُ الدماغ تهضم في يوم واحد ما يجب لتمامه مرورُ عِدَّةِ قرون ، وما كانت تهضم في يوم واحد ما يلائم المشاعر وما يلائم احتياجاتٍ مختلفٍ الأمرجة ، وهَضْمٌ كذلك لا يكون إلا بمتراكباتٍ وراثيةٍ دائمةٍ بطيئة ، ونحن عند ما نبحت في تطور الفنون لدى الأغارقة الذين هم أذكى أمم القرون القديمة نرى أن هذه الأمة تَطَلَّبَتْ قرونًا كثيرةً لتَخْرُجَ من نَقْلِ نماذج آشور ومصرَ نقلاً غليظاً فتَصِلَ بالتدريج إلى صنع ما لا تزال البشرية تُعْجَبُ به من الآثار النفيسة .

وإذا عَدَوْتَ بعضَ الأمم العريقة في القِدَمِ كالمصريين والكلدانيين وجدتَ جميعَ الأمم التي تعاقبت في التاريخ لم تفعل غيرَ هَضْمِ عناصر الحضارة التي يتألف منها تراثُ الماضي مُحَوَّلَةً هذه العناصرَ وَفَقَ مزاجها النفسي ، ولو لم تَسْطِيعِ الأممُ أن تستفيد من تطور الحضارات الذي تَمَّ سابقاً لكان تقدم الحضارات أبطأ مما هو عليه

بمراحل ولوجب أن يبدأ تاريخ مختلف الأمم بما بدى به من قبل ، وانظرُ إلى الحضارات التي أوجدتها مصرُ وكلدَةُ منذ سبعة آلاف سنة أو ثمانية آلاف سنة تجدُها قد أسفرت عن ينبوع موضوعات استتقت منه جميع الأمم بالتتابع ، وانظرُ إلى فنون اليونان تجدُها قد نشأت عن الفنون التي ظهرت على ضفاف دجلة والنيل ، وانظرُ إلى الطراز اليوناني تجدُ الطراز الروماني قد صدر عنه ، ثم اختلط الطراز الروماني هذا بمؤثرات شرقية فاشتق منه الطراز البيزنطي والطراز الروماني والطراز الغوطي ، أي اشتقت منه طُرُزٌ مختلفة باختلاف عبقرية الأمم التي نشأت فيها وعلى حسب عمر هذه الأمم ولكن مع وجود أصل واحد لهذه الطُرُز .

وأقول مكرراً إن ما بيّناه آنفاً عن الفنون يطبق على جميع عناصر الحضارة من نظم ولغات ومعتقدات ، ومن ذلك أن اللغات الأوربية تُشتق من لغة أصلية كان يُتكلم بها في هضبة آسية الوسطى ، ومن ذلك أن حقوقنا هي وليدة الحقوق الرومانية ، وأن الحقوق الرومانية هي وليدة حقوق سابقة لها ، ومن ذلك أن الديانة اليهودية صدرت رأساً عن المعتقدات الكلدانية ، وأن الديانة اليهودية اختلطت بعد ذلك بمعتقدات آرية فصارت تلك الديانة العظيمة التي تسيطر على أمم الغرب منذ ألفي سنة ، ولم تكن علومنا نفسها لتبلغ ما بلغته اليوم لولا عمل القرون البطيئة ، وتبصر أعظم مؤسسى علم الفلك الحديث ، مثل كوبرنيك وكيبلر ونيوتن ، مرتبطين في بطليموس الذي كان يُرجع إلى كتبه حتى القرن الخامس عشر ، وتبصر بطليموس هذا يرتبط في المصريين والكلدانيين من طريق مدرسة الإسكندرية ، وهكذا نبصر ، على الرغم من الفراغ الهائل الذي نراه في تاريخ الحضارة ، تطوراً بطيئاً في معارفنا نرجع به من خلال العصور والدول إلى فجر تلك الحضارات

القديمة التي يحاول العلم الحديث في الوقت الحاضر ربطها بالأزمنة الأولى حين لم يكن للبشرية تاريخٌ، بيد أن اليَنبُوع إذا كان واحداً فإن ما تحدّثه كل أمة بحسب مزاجها النفسى من التحولات في العناصر المستعارة إقبالاً وإدباراً مختلفٌ إلى الغاية، ومن هذه التحولات يتألف تاريخ الحضارات .

وفما تقدم بيّنا أن العناصر الأساسية التي تتألف منها حضارة إحدى الأمم هي خاصة بتلك الأمة ، وأن هذه العناصر هي نتيجة مزاجها النفسى وعنوان هذا المزاج ، وأنها لا تنتقل من عرقٍ إلى آخرٍ من غير أن تخضع لتحولات عميقة جداً ، ومما رأيناه أيضاً أن الذى يحجُب مدى هذه التحولات هو من ناحية الضرورة اللغوية التي تحمِلنا على تعيين أمور مختلفة بالفاظ واحدة ، وهو من ناحية أخرى الضرورة التاريخية التي لا تؤدى إلى غير البصر بأقصى وجوه الحضارة ، لا إلى وجوهها المتوسطة ، ونحن حين ندرس في الفصل الآتى السُّنَن العامة لتطور الفنون يمكننا أن نُثَبِت بما هو أدقُّ من ذلك تعاقب التحولات التي تعتور عناصر الحضارة الأساسية عند انتقال هذه العناصر من أمة إلى أخرى .

Schneider

الفَصْلُ الثَّالِثُ

كَيْفَ تَحْوَلُ الْفَنُونُ

كـ

تطبيق المبادئ السابقة على دراسة تطور الفنون عند الأمم الشرقية — مصر — الأفكار الدينية التي تشتق منها فنونها — ما صارت إليه هذه الفنون بانتقالها إلى مختلف العروق كالآثيوبيين والأغارقة والفرس — تأخر الفن الإغريقي في دوره الأول — بطوء تطوره — انتقال الفرس للفن الإغريقي والفن المصري والفن الآشوري وتطور هذه الفنون لديهم — يتوقف ما تعانيه الفنون من التحول على العرق ، لا على المعتقدات الدينية — أمثلة من التحولات العظيمة التي خضع لها الفن العربي بحسب العروق التي دانت بالإسلام — تطبيق مبادئنا في البحث عن أصول الفن في الهند وتطوره — استقت الهند واليونان من مصادر واحدة ، غير أنهما انتهتا إلى فنون لا نسبة بينهما بسبب تباين عروقيهما — التحولات الواسعة التي خضع لها فن البناء في الهند بحسب العروق التي تسكنها وعلى الرغم من تشابه المعتقدات :

بجستُ في الصلات التي تصل بين مزاج الأمة النفسى ونظمها ومعتقداتها ولغتها فاقصرتُ على بيانات موجزة في ذلك ، وذلك لما يتطلبه إيضاح مثل هذه الموضوعات من مجلدات .

وأهونُ من ذلك أن نأتى بشرح بين الفنون ، وأما النظامُ أو المعتقد فأمرٌ مشكوك في تعريفه ذو غموض في تفسيره ، ولا بدَّ من أن يُبحث في الحقائق المتغيرة في كلِّ دور والمستترة وراء التعابير الميَّنة ، وأن يُؤتى بعمل مُضنٍّ من البرهنة والنقد ، وصولاً إلى نتائجٍ مختلفٍ فيها من حيث النتيجة .

وبالعكس ترى الآثار الفنية ، ولا سيما المباني ، يَبِينَةُ الحدَّ سهلة التفسير ، والكتبُ الحجرية هي أوضح الكتب ، وهي التي لا تَكْذِبُ أبداً ، وهي التي خَصَّصَتْ لها مكاناً فائقاً في كتبى عن تاريخ حضارات الشرق لذلك السبب ، ولقد كنتُ شديدَ الحَذَر من الوثائق الأدبية لما تنطوى عليه من تضليل في الغالب ومن فائدة في النادر ، والمباني لا تَخْذَعُ أبداً ، وهي تُعَلِّمُ على الدوام ، والمباني هي التي تَحْفَظُ أحسنَ من سواها فكرَ الأمم الغابرة ، ومما يُرْتَى له كَمَى قلوب المتخصصين الذين لا يبحثون في المباني عن غير الكتابات .

والآن لندرس ، إذن ، كيف تُعَبِّرُ الفنونُ عن مزاج الأمة النفسى وكيف تتحول بانتقالها من حضارة إلى أخرى .

وفي هذا البحث سأقتصر على الفنون الشرقية وحدها ، وذلك لأن بيان تطور الفنون لدى مختلف العروق يتطلب دخولاً في جُرْئِيَّات لا يحتملها صدرُ هذا الكتاب ، وإن كان تكوينُ الفنون الأوربية وتحولُها خاضعين لسنن واحدة . ولنبدأ بفنون مصرَ لنُبْصِرَ الحالَ التي كانت عليها بانتقالها انتقالاً متتابعاً إلى عروق ثلاثة مختلفة وهي : زنوج إثيوبية والأغارقة والفرس .

لا ترى بين الحضارات التي ازدهرت على وجه الأرض حضارةٌ كالحضارة المصرية عبَّرَ عنها بفنونها ، وقد بلغ تعبير فنون تلك الحضارة عنها من القوة والوضوح ما لم تستطع معه المثل الفنية التي ظهرت على ضفاف النيل غير ملاءمة تلك الحضارة وما لم تنتحلها الأمم الأخرى معه إلا بعد خضوعها لتحولات عظيمة .

خَرَجَتِ الفنون المصرية ولا سيما فنُّ البناء المصرى من مَثَلٍ عالٍ خاصٍّ ظلَّ شُغْلَ الأمة الدائم خمسين قرناً ، وكانت مصرُ تحمُّ بأن تبتدع للإنسان مسكنًا خالدًا

تجاه حياته الفانية ، واحتقر العرق المصرى الحياة وتمتق الموت ، وكان أول ما يبالى به هذا العرق هو تلك الموميا الصامتة التى تتأمل تأملاً أبدياً بعينيها المينائيتين المرصعتين فى وجهها الذهبى ، وذلك من أعماق منزلها الأسود ، تلك الخطوط الهيروغليفية الحافلة بالأسرار ، وهذه الموميا ، وهى فى حى من كل تدنيس فى منزلها المائى الواسع كالقصر ، كانت تجد كل ما يفتتها فى حياتها الدنيوية القصيرة مصوراً ومنقوشاً على جدر الدهاليز التى لانهاية لها .

وفى البناء المصرى هو على الخصوص فن بناء مائى ودينى غايته الموميا والآلهة ، وفى سبيل الموميا والآلهة كانت تُنحت السرايب وترفع المسلات والأساطين والأهرام ، وفى سبيل الموميا كانت تُقام التماثيل الكبيرة المفكرة على عروشها الحجرية فتعلوها سيا الحلم والجلال .

وكل شئ فى ذلك الفن المعمارى ثابت متين مادام الخلود غايته ، ولو كان المصريون الأمة الوحيدة التى عرفناها من أم القرون القديمة لأمكننا أن نقول بالحقيقة إن الفن هو أصدق دليل على روح العرق الذى أوجده .

ثم ظهرت أم مختلفة أشد الاختلاف ، ومنها أم متأخرة كالإثيوبيين وأم عالية كالآغارقة والفرس قد اقتبست فنونها من مصر وحدها أو من مصر وآشور ، ولننظر إلى ما آلت إليه هذه الفنون بين أيدي تلك الأمم .

ولنرجع البصر ، أولاً ، إلى أخط الأمم المذكورة : إلى الإثيوبيين . نعلم فى دور متقدم من التاريخ المصرى ، أى فى عهد الأسرة الرابعة والعشرين ، أن أم السودان قد اغتنمت فرصة فوضى مصر وانحطاطها فاستولت على بعض ولاياتها فأقامت مملكة كانت عاصمتها نباتة ثم مروا محافظة على استقلالها عدة قرون ،

وقد بهرت حضارة المغوليين هذه المملكة فحاولت هذه المملكة نسخ مباني تلك الحضارة وفنونها ، ولكن هذا النقل الذي نحوز نماذج له ليس إلا نقلاً غليظاً في الغالب ، وعلة ذلك أن أولئك الزوج كانوا من البرابرة المحكوم عليهم ألا يخرجوا من البربرية لانحطاطهم الدماغي ، وهم لم يخرجوا من البربرية قط على ما كان من عمل المصريين على تمدنهم في عدة قرون ، ولا تجد في التاريخ القديم أو الحديث مثلاً على ارتقاء أمة زنجية إلى مستوى الحضارة ، وفي كل مرة تقع فيها حضارة راقية بين أيدي العرق الزنجي اتفاقاً لا تعم هذه الحضارة أن تعود إلى أطوار منحلة وذلك كما حدث بإثيوبية في القرون القديمة وبهايتي في أيامنا .

وهناك عرق آخر كان من البرابرة أيضاً ، هنالك عرق الأغارقة المقيم بعرض آخر ، ولكن من البيض ، فاقبس من مصر وأشور نماذج فنونه الأولى ، وفي البداية اقتصر على نقل ممسوخ أيضاً ، وهو قد انتهت إليه نتائج فنون تينك الحضارتين العظيمتين بواسطة الفنيقيين الذين كانوا سادة الطرق البحرية بين شواطئ البحر المتوسط وبواسطة أم آسية الصغرى التي كانت سادة الطرق البرية المؤدية إلى نينوى وبابل .

وكل يعلم درجة تفوق الأغارقة على أساتنتهم ، غير أن الاكتشافات الأثرية الحديثة أثبتت أيضاً غلظة آثارهم الأولى ، ودلت على ضرورة انقضاء زمن حتى يُنتجوا نفيس الآثار التي كتب بها الخلود لهم ، والأغارقة قد قضوا نحو سبعة قرون في ذلك الجهد الثقيل كي يتدعوا فناً خاصاً راقياً مستعنيين بفن أجنبي ، ولكن ما حققوه من المبتكرات في القرن الأخير هو أعظم مما وصلوا إليه في جميع العصور السابقة ، والحق أن أطول جهد تبذله الأمة لا يكون في مجاوزة أعلى مراحل

الحضارة ، بل في مجاوزة مراحلها الدنيا ، وتدلُّ أقدمُ مُنتجاتِ الفنِّ الإغريقيِّ ،
أى نتائجُ كنزِ ميسين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، على عملٍ ابتدائيٍّ وتقليدٍ
مُشوِّهٍ لأنصابِ الشرق ، ثم مضت ستة قرون وما قَيَّ الفنُّ الإغريقيُّ يكون شرقياً ،
فتجدُ بين أبولون في رينيه وأبولون في أورخومين وبين التماثيل المصرية شهاً
يقضى بالعجب ، بيد أن التقدم يسير قُدماً ، فلم ينقض قرن حتى انتهينا إلى فيدياس
وتماثيل البارثينون العجيبة ، أى إلى فنٍّ تَخَلَّصَ من أصوله الشرقية وفاق النماذج
التي استوحاها زمننا طويلاً .

وقلْ مثل ذلك عن فنِّ البناء وإن كان تعيين مراحل تطوره أصعبَ من ذلك ،
ونحن نجعل ماذا يمكن أن تكون قصورُ أبطال أوميرُس حوالى القرن التاسع قبل
الميلاد ، ولكنَّ ما يُحدِّثنا عنه ذلك الشاعر من الجُدُرِ النحاسية والمشارف اللامعة
الألوان والحيوانات الذهبية والفضية الحافظة للأبواب فيدُ كرنا في الحال بقصور
الآشوريين المكسوة بصفائح برونز وبأجرٍ مطليٍّ بالمينا والتي يحرسها ثيرانٌ
منحوتة ، وعلى كلِّ حال إن مثال أقدم الأعمدة الدورية الإغريقية التي يبدو أنها
ترجع إلى القرن السابع مما نجدُه في الكرنك وبني حسن ، وإن في العمود
اليونانيَّ عدَّة أجزاءٍ مقتبسة من آشور ، بيد أننا نعلم أيضاً أن هذه العناصر الأجنبية
المنضدة قليلاً في البداءة والمزوجة بعد ذلك والمتحوِّلة في نهاية الأمر مما نشأ عن
أعمدة جديدة مختلفة عن نماذجها الأولى اختلافاً كبيراً .

وفي طرفٍ آخر من العالم القديم تعرَّض علينا فارسٌ انتحالاً مماثلاً وتطوراً
مشابهاً لذلك ، غير أن هذا التطور لم يَبْلُغْ غايته لما كان من وقف الفتح الأجنبيِّ
له بعتة ، ولم تقيِّض لفارس سبعة قرون كما قيِّض للإغريق ، بل تَسَى لفارس

قرنان فقط لإبداع فنٍّ ، والعربُ وحدهم هم الأمة الوحيدة التي وُفِّتَ حتى الآن لإبراز فنٍّ خاصٍّ في مثل ذلك الزمن القصير .

ولم يبدأ تاريخُ فارسَ قطَّ إلا بِكُورَشَ وخلفائه الذين استطاعوا قبل الميلاد بخمسة قرون أن يستولوا على بابلَ ومصرَ ، أى على مرَّكَزَي الحضارة اللذين كان مجدهما يُنير العالمَ الشرقيَّ في ذلك الحين ، ولم يكن أمرُ الأغارقة الذين خبَّ لهم أن يسيطروا على العالم ذات يوم ليخْطُرَ على البابل آتئذٍ ، ففَدَّت الإمبراطوريةُ الفارسيةُ مركزاً للحضارة إلى الزمن الذي قَضَىَ عليها فيه قبل الميلاد بثلاثة قرون من قَبْلِ الإسكندر الذي حوَّلَ بذلك مركزَ الحضارة ذلك دفعةً واحدة .

وإذا لم يكن للفرس بعد استيلائهم على مصرَ وبابلَ فنٌّ خاصٌّ فإنهم استعاروا من هذين البلدين نماذجَ ومتفنين ، والفرسُ إذ لم يَدُمُ سلطانهم غيرَ قرنين لم يكن عندهم من الوقت ما يُحوِّلُون به هذه الفنونَ تحويلاً أساسياً ، ولكن الفرس حين انهاروا كانوا قد بدأوا بتحويل تلك الفنون ، ولنا في أطلالِ برسپوليس (إصْطَخْر) التي لا تزال ماثلةً خبرٌ عن تكوين تلك التحولات ، أَجَلٌ ، إننا نجدُ خطأً هنالك لا ريب ، وإن شئت فقلُّ نجدُ تَنَصُّدَ فنونِ مصرَ وآشورَ الممزوجة ببعض العناصر الإغريقية ، غير أن عناصرَ جديدةً تبدو هنالك ، يبدو هنالك على الخصوص العمودُ الإصْطَخْرِيُّ العالى الذى له تيجانٌ ذاتُ رأسين والذى نُبْصِرُ من تيجانه هذه أن الزمان لو أمهل الفرسَ لأبدعَ هذا العِرْقُ الرفيعُ فناً خاصاً ، ولو لم يبلغ ما بلغه فنُّ الأغارقة من السُّمو .

ولدينا دليلٌ على ذلك فيما نلاقه من مباني الفرس التي شيدتْ بعد عشرة قرون ، وبيانُ الأمر أن الأسرةَ الكينية التي أسقطها الإسكندر قد خَلَقَتْها الأسرةُ

السلوقية فالأسرة الأشكانية فالأسرة الساسانية التي قضى عليها العرب ، وبالعرب اكتسب الفرس فنَّ بناء جديد ، وما يشيده الفرس من مبانٍ على أثر ذلك فذو طابع إبداعٍ ثابت ناشئ عن مزج الفنِّ العربيِّ بفنِّ بناء الكينيين القديم المعدَّل بخلطٍ مع فنِّ الأشكانيين ذى المسحة اليونانية كالأبواب الشاهقة التى تبلغ ذُرْوَةَ وَجْهَةِ البناء وكالآجر المطلّى بالمينا وكالأقواس ذات الزاوية فى أعلاها إلخ ، وهذا الفنُّ الجديد هو الفنُّ الذى نقله المغول إلى الهند مُحَوَّلاً بعد ذلك .

والأمثلة السابقة تدلنا على ما قد تُحدِثه الأمة من التحولات فى فنون أمةٍ أخرى ، وذلك بحسب العرق وبحسب الزمن الذى يدوم فيه نفوذها .

وَيَرْجِعُ الفنُّ المستعار كما رأينا إلى طورٍ منحنٍ لدى عِرْقٍ متأخر كالإثيوبيين يَحْمِلُ وراءه قروناً مع اتصافٍ بقدرة دماغية ناقصة ، وقد رأينا لدى الأغارقة ، أى لدى العرق الرفيع وذى المجهود فى عِدَّةِ قرون ، تَحَوُّلَ الفنِّ القديم إلى فنٍّ جديد أعلى منه تحوُّلاً تاماً ، ولم نَجِدْ لدى عِرْقٍ آخَرَ ، أى لدى الفرس الذين هم دون الأغارقة سُمُوًّا ، والذين لم يُمَهِّلْهم الزمن ، غيرَ حِذْقٍ كبير فى التركيب وبدء بالتحويل . ولكننا إذا عدَّونا تلك الأمثلة التى يَرْجِعُ مُعْظَمُهَا إلى زمن بعيد وَجَدْنَا من الأمثلة ما هو أحدث من تلك كثيراً ، وَجَدْنَا من نماذج هذه الأمثلة ما لا يزال قائماً وما يدلُّ على عِظَمِ التحولات التى يُضْطَرُّ العرق إلى إحداثها فيما يقتبسه من الفنون ، وتلك الأمثلة تُزِيدُ بروزاً عند النظر إلى أُمَمٍ تدين بدِيَانَةٍ واحدة مع اختلاف أصولها ، وأقصد بذلك المسلمين .

فلما استولى العرب فى القرن السابع على مُعْظَمِ العالم اليونانى الرومانى القديم وأقاموا إمبراطوريتهم العظمى التى لم تلبث أن امتدت من إسبانية إلى أواسط آسية مارةً بجميع شِمال إفريقيا وَجَدُوا أنفسهم أمام فنِّ بناء واضح المعالم ، وَجَدُوا

أنفسهم أمام فنِّ البناء البيزنطى ، فانتحلوه على عِلَّاته فى بدء الأمر ، سواء أفى أسبانية أم فى مصرَ أم فى سورية ، وذلك فى شَيْد مساجدهم ، ولدينا برهانٌ على ذلك الانتحال فى مسجد عمر بالقدس ومسجد عمرو بالقاهرة وفى غيرها من المباني التى لاتزال قائمة ، ولكن ذلك الانتحال لم يَدُم طويلاً ، فقد رُئى أن المباني تتحول بين قطر و قطر وبين قرن و قرن بسرعة ، وفى كتابنا « حضارة العرب » درسنا أمر هذه التحولات ، فَوَجَدَناها بلغت من الاتساع مالا تُبْصِرُ معه أدنى شَبَه بين بناء أُقيم فى بدء الفتح كمسجد عمرو بالقاهرة (٧٤٢) وبناء أُقيم فى آخر العهد العربى كمسجد قايتباى (١٤٦٨) ، ومما أظهرناه بشروحنا وصورنا فى ذلك السُفر أن المباني القائمة فى مختلف البلدان التى دانت لشرعية الإسلام بَلَعَتْ من الاختلاف ما يتعذر معه جمعها تحت اسم واحد ، وذلك خلافاً لما يمكن فعله مثلاً فى أمر المباني الغوطية البادية المشابهة مع تنوعها .

ولا يمكن عزو تلك الفروق الأساسية فى فنِّ بناء البلدان الإسلامية إلى اختلاف المعتقدات مادام الدينُ واحداً ، بل يُعزى إلى اختلاف العروق الذى يُؤثّر فى تطور الفنون ومصاير الدول تأثيراً عميقاً .

وإذا صحَّ ذلك القول وجب علينا أن ننتظر اطلّاعنا فى البلد الواحد الذى تسكنه عروقٌ مختلفة على مبانٍ متباينةٍ أشدَّ التباين ، على الرغم من وَحْدَةِ المعتقدات ووَحْدَةِ السلطان السياسى ، وهذا ما يشاهد فى الهند بالضبط ، وفى الهند يسهُل أن تجدَ من الأمثلة ما يؤيد المبادئ العامة المعروضة فى هذا الكتاب فترانى أعود إليها على الدوام ، ولنا فى شَبَه جزيرة الهند الكبرى أكثرُ كُتُب التاريخ إغراءً وحِكْمةً ، واليومُ تمثّل الهندُ فى الحقيقة القطرَ الوحيد الذى يمكن بانتقالٍ بسيطٍ بين البقاع أن يُطاف به كما

يراد في غضون الزمان وأن تَرى فيه ماثلةً سلسلةً المراحل المتعاقبة التي اضطرت البشرية إلى مجاوزتها للوصول إلى مستوى الحضارة العالی ، وفي الهند تشاهد جميع وجوه التطور ، تشاهد فيه العصر الحجري كما تشاهد فيه عصر الكبرياء والبخار ، ولا تجد في مكانٍ ما تجدُه في الهند من العوامل العظيمة التي تهيم على تكوين الحضارات وتطورها .

وقد حاولتُ ، مُطَبِّقاً للمبادئ المشروحة في هذا الكتاب ، أن أحلَّ مسألةً بحث عنها منذ زمن طويل ، حاولتُ اكتناه أصل فنون الهند ، وهذا الموضوع إذ كان معروفاً قليلاً إلى الغاية ، وإذ كان ينطوي على تحقيق طريف لأفكارنا في روح العروق ، نرى تلخيص أهم خطوته هنا ^(١) .

والهند من ناحية الفنون لم تظهر إلا في زمن متأخر جداً من التاريخ ، ولا يكاد أقدم آثارها ، كأعمدة أشوكا ومعابد كارلي وبهارت وسانجي إلخ ، يعود إلى ما هو أقدم من التاريخ الميلادي بقرنين ، وتلك الآثار عند ما أُقيمت كان معظم حضارات العالم القديم المُسنَّة ، كحضارات مصر وفارس وآشور ، قد أتمت دورها فأوغلت في ليل الانحطاط ، وكانت حضارة رومة وحدها تحل محل الحضارات الأخرى وكان العالم لا يعرف غير رومة سيداً .

والهند التي برزت من ظل التاريخ في زمن متأخر استطاعت ، إذن ، أن تقتبس بعض العناصر من الحضارات السابقة ، غير أن العزلة العميقة التي قيل إن

(١) أحيل القارئ ، الذي يود أن يطلع على ما لا يمكن الإلمام به هنا من الدقائق الفنية ، إلى كتابي « آثار الهند » المصور وفق الصور الفوتوغرافية التي التقطتها ووفق ما صنعتها من رسم وتخطيط ، فنشره فيرمان ديدو ، وقد نقلت كثيراً من تلك الصور في كتابي « حضارات الهند » المشتمل على ٨٠٠ صفحة من القطع الكامل .

الهند كانت تعيش فيها على الدوام وأن ما في آثارها من إبداع عجيب لا قرابة ظاهرة بينه وبين جميع الآثار التي ظهرت قبلها مما أبعد لطويل زمن كل افتراض لأي اقتباس أجنبي فيها .

وبجانب ما في آثار الهند الأولى من إبداع لا جدال فيه نرى هذه الآثار تتم أيضاً على تفوق في الصنع لم يجاوز في القرون التالية ، نعم ، لا بد من أن تكون الآثار المذكورة البالغة تلك الدرجة من الكمال قد سبقتها تحسُّسٌ طويل في الظلام ، بيد أنك لا تجد أي رسم أو أي أثر مُنحطَّ يَتمُّ على ذلك التحسُّس .

وما حدث في بعض البقاع النائية الواقعة في شمال شبه جزيرة الهند الغربي من اكتشاف جديد لبقايا من التماثيل والمباني التي تتم على المؤثرات اليونانية الظاهرة حمل العلماء المشتغلين بأمور الهند على القول بأن الهند استعارت فنونها من الإغريق .

وما كان من تطبيق للمبادئ المعروضة آنفاً ومن البحث العميق في معظم المباني التي لا تزال قائمة في الهند فإنه يسير بنا إلى حل معاكس لذلك معاكسة تامة ، فعلى ما كان للهند من صلة عابرة بالحضارة اليونانية نرى أن الهند لم تقتبس أي فن من فنونها ، وأن الهند لم تكن قادرة على استعارة ذلك ، فالعرفان المتواجهان إذا كانا متباينين كثيراً وكانت أفكارها مختلفة اختلافاً كبيراً وكانت عبقريتهما الفنية متنافية تنافياً شديداً لم يكن أحدهما ليؤثر في الآخر .

ثم إن دراسة الآثار المنشورة في الهند تدل من قورها على عدم وجود أي نسب بين فنونها وبين فنون الإغريق ، وبينما ترى جميع آثارنا الأوربية مُشبعة من العناصر المقتبسة من الفن الإغريقي لا تجد في عناصر فنون الهند أي عنصر من

ذلك الفن ، ويُثبت أبسط المباحث أننا تجاه عروق مختلفة إلى الغاية وأنه لم يُوجد من العبقريات ما هو متباين ولا متنافر كتباين العبقرية الإغريقية والعبقرية الهندوسية وتنافرها .

وكما أوغلنا في دراسة مباني الهند وروح الأمم التي أوجدتها زادت تلك المعرفة جلاءً ، ونحن لا نعتَم أن نرى أن العبقرية الهندوسية ذاتية كثيراً ، فلا تتأثر بمؤثر أجنبي بعيد من فكرها ، أجل ، يمكن هذا المؤثر الأجنبي أن يُفرض فرضاً ، بيد أنه يظل سطحياً مؤقتاً مهما طال أمدّه ، والذي يظهر هو أن بين مزاج مختلف عروق الهند النفس ومزاج الأمم الأخرى حواجز عالية علوّ الحواجز الهائلة التي جعلتها الطبيعة بين شبه جزيرة الهند الكبرى وبقاع العالم الأخرى ، وقد بلغت العبقرية الهندوسية من الاستقلال ما تحوّل به في الحال كلّ أمرٍ تقضى الضرورة عليها بتقليده فتجعله هندوسياً ، حتى في فنّ البناء حيث يصعب إخفاء ما هو مستعار تجدّ ذاتية العبقرية الهندوسية الغربية ومملكتها في التغيير سافرتين ، ومن الممكن أن يُقلد المهندس المعاري عموداً إغريقياً ، ولكن ذلك لا يحول دون تحويله إياه بسرعة إلى عمودٍ يبدو عند أبسط الأبحاث أنه هندوسيّ ، ومن الواقع أن مثل هذه التحويلات يشاهد اليوم في الهند حيث بلغ النفوذ الأوربيُّ الغاية في الزمن الحاضر ، وأعطوا أحد متفني الهندوس أيّ نموذجٍ أوربيّ لينقله تجدّوه مُنتحلاً لشكله العام ، ولكن مع مبالغة في صنع بعض أجزائه ومع زيادة وتبديل في دقائق زخارفه ، وهذا النموذج إذا ما نُقل مرة ثانية أو مرة ثالثة جُرد من كلّ مسحة غريبة ليغدو هندوسياً خالصاً .

وظاهرة فنّ البناء الهندوسيّ الأساسيّة ، وهي ظاهرة تبدو في الآداب القرية

من فنِّ البناء لهذا السبب ، هي الإفراطُ في المبالغة والغلوُّ في الجزئيات والتعقيدُ الذي يعاكس على خطِّ مستقيم بساطة الفنِّ الإغريقيِّ البادية الباردة ، وبدراسة فنون الهند على الخصوص نَطَّلَعَ على درجة ما بين آثار العِرْق الماثلة ومزاجه النفسى من صلةٍ وعلى تَكَوُّنِ أوضح اللغات منها لِمَنْ يَعْرِفُ أَنْ يُفَسِّرَهَا ، ولو كان الهندوسُ قد غابوا عن التاريخ غيباً تاماً كما غاب الآشوريون لكان في نقوش معابدهم البارزة وفي تماثيلهم ومبانيهم ما فيه الكفاية لاكتشاف ماضيهم ، وكانت هذه الآثار تُخْبِرنا على الخصوص أن روح الأغارقة الجلية المنظمة لم تَسْطِعْ أَنْ تَوْثِّرَ تأثيراً دائماً في خيال الهندوس الفيّاض العاطل من الترتيب ، وكانت هذه الآثار تُوضِّح لنا السبب في أن تأثير الإغريق في الهند لم يَبْدُ غيرَ عابرٍ مقتصرٍ على البقعة التي بَسَطَ عليها سلطانه بسطاً مؤقتاً .

حتى إن الدراسة الأثرية لمباني الهند تجعلنا نَوَكِّدُ بوثائقٍ دقيقةٍ ما تَنَمُّ عليه معارفُ الهند العامة وروحُ الهندوس في الحال ، وقد أدَّتْ تلك الدراسة إلى تحقيقنا الأمرَ الطريف القائل إن ملوك الهندوس ذوى الصّلات بملوك فارسِ الأشكانية ، وقد كانت حضارة فارس متأثرةً بالطابع اليونانيِّ ، أرادوا إدخال الفنِّ الإغريقى إلى الهند في مرات كثيرة ولاسيما في القرنين الأولين من الميلاد فلم يُوفِّقُوا لإبقائه في الهند . ولم يلبث ذلك الفنُّ المستعار الرسميُّ وغير الملائم لفكر الشعب الذى أُدخل إليه أن زال بزوال المؤثرات السياسية التى أوجبت ظهوره ، ثم إن العبقرية الهندوسية كانت تَكْرَهُ ذلك الفنَّ المستعار فلم يكن ذا أثرٍ في فنِّ الهند القومى حتى في الزمن الذى فُرِضَ فيه ، والحقُّ أنك لا تَجِدُ أثراً إغريقياً في المباني الهندوسية المعاصرة لذلك الحين أو التى شِيدَتْ بعده كالمعابد المنحوتة تحت الأرض مثلاً ، وهذا

إلى أن من السهل تمييز الأثر الإغريقي فلا يمكن إنكاره ، فإذا عدّدت المجموع
البادئ الإبداع على الدوام وجدت في الحال أن بعض الجزئيات الفنية ، كعمل
النسج ، قد صنّع بيد متفنن إغريقي .

وكان زوال الفن الإغريقي عن الهند مفاجئاً كظهوره فيها ، وتثبتت هذه
المفاجأة أمر فن صار استيراده وفرضه رسمياً من غير أن تكون بينه وبين الأمة التي
حملت على انتحاله أية قرابة ، والفنون لا تمحى على ذلك الوجه أبداً ، بل تتحول
فيستعير الفن الجديد من الفن الذي ورثه شيئاً على الدوام ، والفن الإغريقي إذ جيء
به إلى الهند بغتة على أثر المغازي زال من الهند بغتة ، وهو لم يتفق له غير تأثير
ضعيف ضَعَفَ تأثير المباني الأوربية التي يشيدها الإنكليز في الهند منذ قرنين .

وما كان من عدم تأثير الفنون الأوربية العتيد في الهند مع مرور أكثر من
مئة عام على ذلك السلطان المطلق فيمكن تشبيهه بقلة تأثير الفنون الإغريقية منذ
ثمانية عشر قرناً ، ولا إنكار لما هنالك من تنافر بين مشاعر الفريقين الفنية ،
والدليل على ذلك ما حدث من تقليد الفنون الإسلامية في جميع أنحاء شبه جزيرة الهند
مع أنها غريبة عن الهند غرب الفنون الأوربية عنها ، ومن النادر ألا تجد شيئاً من
الزخرف العربي حتى في أي معبد من معابد أجزاء الهند التي لم يكن للمسلمين
أي سلطان فيها ، نعم ، إننا نرى اليوم في الهند راجوات مثل راجه غواليار
أغوتهم سيطرة الأجانب ، كما في عهد الملك كنيشكا البعيد ، فأنشأوا قصوراً أوربية
على الطراز اليوناني اللاتيني ، غير أن هذا الفن الرسمي المنصّد على الفن الأهلّي ،
كما في زمن كنيشكا ، هو غير ذي تأثير في هذا الفن الأهلّي .

وما تقدم ترى أن الفن الإغريقي وجد بجانب الفن الهندوسي في الماضي كما

ترى الفنَّ الأوروبىَّ بجانب الفنِّ الهندوسىِّ فى الوقت الحاضر ، وذلك من غير أن يؤثِّر أحدهما فى الآخر ، ولا تجدُ بين مبانى الهند الحقيقية واحداً يمكنك أن تقول إنه يشتمل فى مجموعه أو فى جزئياته على أىِّ شَبَهٍ قريب أو بعيد بأىِّ واحد من مبانى الأغرقة .

وعجزُ الفنِّ الإغريقىِّ عن الرسوخ فى الهند أمرٌ يستوقف النظر ، ويجب عزوُّه إلى ذلك التنافر الذى ذكرنا وجوده بين روحىِّ ذَيْنِكَ العِرقَيْنِ ، لا إلى عجز الهند الفطرىِّ عن هَضْمِ الفنون الأجنبية ما دامت الهند قد عَرَفَتْ كيف تهضمُّ الفنون الملائمة لمزاجها النفسىِّ وكيف تُحوِّلها .

وما استطعنا جمعه من الوثائق الأثرية فُيُثِبَتْ فى الحقيقة كيف أن فارسَ قد حَبَّت الهندَ بمصدر فنونها ، وليست فارسُ هذه هى فارسَ التى تَأَثَّرَتْ بشىء من الفنِّ اليونانىِّ فى عهد الأشكانيين ، بل هى فارسُ التى وَرِثَتْ حضارتىَّ آشور ومصرَ القديمتين ، ومما نعلم أن الإسكندر عند ما أسقط أُسْرَةَ الملوك الكينية قبل الميلاد بثلاثمئة سنة كان الفرسُ حائزين لحضارة ساطعة منذ قرنين ، والفرسُ هؤلاء لم يكونوا قد انتهوا إلى طراز جديد فى الفنون لا ريب ، غير أن مَزَجَهم للفنون المصرية والآشورية التى وَرِثوها أدَّى إلى إنتاجهم آثاراً ممتازةً ، وذلك كما يُعْلَم من أطلال برسپوليس (إصطخر) التى لا تزال شاخصة ، فهناك ترى أن الأبواب المصرية الشاهقة وثيرانَ آشورَ المُجَنَّحة وبعضَ العناصر اليونانية دالةً على تقابل جميع فنون الحضارات السابقة الكبرى فى تلك البُقعة الآسيوية الصغيرة .

وفارسُ هى التى استوحىها الهندُ ، ولكن الهند لم تَسْتَقِ فى الحقيقة سوى فنونِ كَلْدَةِ ومصرَ التى كانت فارسُ قد اقتصرت على تقليدها .

وتنمُّ دراسة مباني الهند على ما استعارته الهند في الأصل ، بيد أن تحقيق هذه الاستعارات يتطلب بحثاً في أقدم تلك المباني ، ومن صفات الروح الهندوسية أن تخضع الاقتباسات عندها لتحوّلاتٍ تغدو بها غير معروفة الأصل ، وذلك لتلائم مدارك تلك الروح .

وما هو السبب في أن الهند التي بدت عاجزة عن اقتباس شيء من اليونان استعارت من فارس بسهولةٍ ماعنّ لها ؟ يرجع سبب ذلك إلى أن فنون فارس ملائمة لمزاجها النفسى لارِيب ، على حين ترى فنون الإغريق لاتلائم تلك الروح أبداً ، ويرجع سبب ذلك إلى أن ما في المباني الإغريقية من أشكال بسيطة ووجّهات قليلة الزخرف لا يناسب الروح الهندوسية ، على حين ترى الأشكال المركبة وفرط الزينة وغنى الزخرف في مباني فارس تُغوى تلك الروح .

على أن تأثير فارس بفنونها في الهند ، وذلك حين تمثل فارس لمصر وآشور ، لم يقتصر على ذلك الدور البعيد الذى هو أقدم من التاريخ الميلادى ، فلمّا ظهر المسلمون بعد ذلك بقرون كثيرة في شبه جزيرة الهند أُشيعت حضارتهم في أثناء قطعها لفارس من العناصر الفارسية ، فكان ما جاءت به تلك الحضارة إلى الهند فارسياً مُشرباً بأثر التقاليد الآشورية القديمة التى أدامها الملوك الكينيون فعُدّت أبواب المساجد الهائلة وما يَسْتُرُ هذه الأبواب من الأجر المطلىّ بالمينا من بقايا الحضارة الكلدانية الآشورية ، والهند قد عرّفت أن تهضم هذه الفنون أيضاً لملاءمتها عبقرية عرقها ، مع أن الفن الإغريقى في الماضى والفن الأوروبى في الحاضر منافيان لشعورها وتفكيرها فضلاً غير مؤثرين فيها على الدوام .

إذن، ترتبط الهند في مصر وآشور من طريق فارس كما نرى ، لافى الإغريق كما يذهب

إليه بعض علماء الآثار ، والهند لم تأخذ من الإغريق شيئاً ، ولكن الهند والإغريق قد استقتا من ينابيع واحدة ، من كنز واحد هو أساس جميع الحضارات التي أنضجتها شعوب مصر وكلمة في قرون كثيرة ، والإغريق قد اقتبست ذلك الكنز بواسطة الفنيقيين وأمم آسية الصغرى ، والهند قد اقتبسته بواسطة فارس ، وهكذا ترى أن حضارتى الإغريق والهند تَرَدَّانِ إلى يَنْبُوع واحد مع العلم بأن المَجْرَيْنِ اللذين تَفَرَّعا من هذا الينبوع لم يَلْبِثَا أن اختلفا في كلا البلدين اختلافاً كلياً وفق عبقرية كلٍّ من عِرْقَيْهِمَا .

بيد أن الفن ، كما قلنا ، إذا كان ذا علاقة وثيقة بمزاج العِرْقِ النفسى وإذا كان الفن الذى تقتبسه عروقٌ مختلفة يكتسب وجوهاً متباينةً لذلك السبب وجب علينا أن ننتظر حياة الهند التى تَسْكُنُها عروقٌ مختلفة أشدَّ الاختلاف فنوناً متباينةً وطُرُزَ بناءٍ غير متشابهة على الرغم من وحدة العقائد .

وإن البحث فى مباني مختلف بقاع الهند ليُوَيِّدُ ذلك المبدأ ، وما بين مباني الهند من فروقٍ فقد بَلَغَ من بُعْدِ الغور ما تُقَسِّمُها معه بحسب البقاع ، أى بحسب العِرْقِ ، لا بحسب دين الشعوب التى شادتها ، وإنا لَنَجِدُ أىَّ شَبَهٍ بين مباني شمال الهند ومباني جنوبها التى أُقيمت فى دور واحد من قَبْلِ أُمِّ تَدَيْنِ بدين متماثل على الخصوص ، حتى فى أيام سلطان الإسلام ، فى ذلك الدور الذى بلغت الوَحْدَةُ السياسية فيه حَدَّها والذى وَصَلَتِ السُلْطَةُ المركزية فيه إلى غايتها ، تُبَصِّرُ اختلافَ المباني الإسلامية الصَّرْفَةَ بين بُتْعَةٍ وَبُتْعَةٍ اختلافاً كبيراً ، فلا ترى بين مساجد أحمد آباد ولاهور وأغره وبيجاپور سوى نَسَبٍ ضعيف ، سوى نَسَبٍ أَقَلِّ مما بين عمارة أُقيمت فى عصر النهضة ومباني العصر الغوطى مع أن تلك المساجد خاصةً بدين واحد .

وليس فنُّ البناءِ هو الذى يختلف فى الهند بين عِرْقٍ وعِرْقٍ ، بل تَجِدُ
صُنْعَ التماثيل يختلف فى مختلف بقاعها أيضاً ، لامن حيث الأمثلة التى تُعْرَضُ
وحدّھا ، بل من حيث الوجه الذى تُعْمَلُ به أيضاً ، فقابلوا بين تماثيل سانجى
أو نقوشها البارزة بما فى بهارت تَجِدُوا الفرقَ واضحاً مع أن ما فيهما قد صُنِعَ فى
زمن واحد تقريباً ، ويشدُّ هذا الفرق عند المقابلة بين تماثيل ولاية أوريسه
ونقوشها وبين ما فى بُنْدِيل كَهَنَد ، أو عند المقابلة بين تماثيل ميسور بما فى المعابد
الكبرى بجنوب الهند ، وهناك يبدو تأثيرُ العِرْقِ فى كلِّ مكان ، ثم هو يبدو
فى أقلِّ الأدوات الفنية ، ولا أحدَ يحفل بدرجة اختلاف هذه الأدوات بين ناحيةٍ
وناحيةٍ من أنحاء الهند ، ولا احتياجَ إلى كبيرِ خِبْرَةٍ للتفريق بين صُنْدُوقٍ صغير
مصنوع من الخشب المحفور فى ميسورَ وصُنْدُوقٍ صغير مصنوع من الخشب المحفور
فى الكَجَرَات ، كما أنه لا احتياجَ إلى كبيرِ خِبْرَةٍ للتفريق بين حِلْيَةٍ صُنِعَتْ فى
ساحل أوريسه وحِلْيَةٍ صُنِعَتْ فى ساحل بَمْبِي .

أَجَلْ ، إن فنَّ بناء الهند هو فنُّ دينيٍّ على الخصوص كفنُّ بناء جميع الشرقيين ،
ولكن المؤثر الدينيّ مهما كان كبيراً فى الشرق خاصّة تَجِدُ التأثيرَ العِرْقِيَّ أعظمَ
منه بدرجات .

وروحُ العِرْقِ التى تُسَيِّرُ مصير الأمم تُوجِّهُ معتقداتها ونُظُمَها وفنونها إِذَنْ ،
ومهما يكن عنصر الحضارة الذى نبحت عنه نَجِدُ فيه تلك الروحَ على الدوام ، وتلك
الروحُ هى القدرةُ الوحيدة التى لا تَغْلِبُها قدرة ، وهى تُمَثِّلُ وطأة الأجيال
وخلاصة أفكارها .

البَابُ الثَّالِثُ

اشْتِاقُ نَارِ مِخْ الْأَمِّ مِنْ خِلَافِهَا

الفصل الأول

كيف تشتق النظم من روح الأمة

يشتق تاريخ كل أمة من مزاجها النفسى على الدوام — أمثلة مختلفة —
كيف تشتق نظم فرنسة السياسية من روح العرق — ثباتها الحقيقى تحت
تقلبها الظاهر — تسير أحزابنا السياسية كلها إلى أهداف سياسية واحدة
وإن اختلفت الأسماء — مثل أحزابنا الأعلى هو النظام المركزى والقضاء على
خلق المبادرة الفردى فى سبيل الدولة — كيف أن الثورة الفرنسية لم
تصنع غير تنفيذ برنامج نظامنا الملكى السابق — تشتق نظم الأمم من أخلاقها
على الدوام .

يمكن عدُّ التاريخ عَرَضاً بسيطاً للنتائج الصادرة عن مزاج العروق النفسى ،
والتاريخ يُشْتَقُّ من ذلك المزاج كما تُشْتَقُّ أعضاء التنفس فى الأسماء من حياتها
المائية ، وتطوُّر التاريخ بغير سابق معرفة لمزاج الأمة النفسى يغدو خطأً من الحوادث
التي لا سيِّد لها سوى المصادفة ، والأمة عندما نَعْلَمُ روحها تبدو حياتها بالعكس نتيجةً
منتظمة مقدَّرة لصفاتها النفسية ، ونَجِدُ فى جميع مظاهر العيش لدى الأمة دوماً روحَ
العرق الثابتة الناسجة لمصيره الخاص على الدوام .

ويبدو سلطانُ روح العرق القاهرُ واضحاً فى النُّظُم السياسية على الخصوص ،
ومن السهل إثبات ذلك ببعض الأمثلة .

ولننْظُرْ إلى فرنسة قبل كلِّ شيء ، لننْظُرْ إلى هذا البلد الذى خَضَعَ لأعمق

الانقلابات ، هذا البلد الذي يلوح أن النظم السياسية تغيرت فيه تغيراً أساسياً في سنين قليلة ، هذا البلد الذي تبدو الأحزاب السياسية فيه مختلفة أشدَّ الاختلاف ، ولو نظرنا من الناحية النفسية إلى تلك الآراء البادية التناقض وإلى تلك الأحزاب المتناحرة لعلمنا أنها في الحقيقة أساسٌ مشترك فيه مماثلٌ ممثِّلٌ لهَدَفٍ عِرْقنا الأعلى تمثيلاً كاملاً ، ولا غَرَوُ ، فالتشددون والجذريُّون والملكيُّون والاشتراكيُّون عندنا ، وإن شئت فقلُّ جميع المناضلين عن أشدَّ المذاهب تبايناً عندنا ، يتعقبون غايةً واحدة بعناوين متباينة ، وتلك الغاية هي ابتلاع الدولة للفرد ، وكلُّ ما يرغب فيه الجميعُ بحجارةٍ واحدة هو النظام المركزيُّ القيصريُّ القديم ، أى الدولة الموجهة لكلِّ شىء والمنسقة لكلِّ شىء والمستغرقة لكلِّ شىء والمنظمة لحياة أبناء الوطن في أدقِّ جزئياتها مُعَفِيَةً إياهم عن إبداء أىِّ بصيصٍ من التأمل والمبادرة ، وسواء أَدْعَى السلطان الذى يكون على رأس الدولة ملكاً أم قيصراً أم رئيساً أم غير ذلك ، وذلك السلطان مهما كان أمره ، يُمَثِّلُ مثلاً واحداً بحكم الضرورة ، يُمَثِّلُ ذلك المَثَل الذى يُعَبِّرُ عن مشاعر روح العِرْق ، والعِرْقُ لا يُطِيقُ مثلاً سواه .

وإذا كانت شِدَّةُ انفعالنا ، ومَلَامَتُنَا المتصلةُ ضدَّ الحقائق الراهنة ، وفكرتُنَا فى أن تغيير الحكومة يجعلنا أوفرَ حظاً ، أموراً تَحْفِزُنَا إلى تبديل نَظْمنا على الدوام فإن إرادة الأموات التى تقودنا تَقْضِي علينا بالألَّا نُغَيِّرَ غيرَ الألفاظ والظواهر ، وقد بَلَغَ ما فى روح العِرْق من قدرةٍ لاشاعرةٍ مبلغاً لا نُبْصِرُ به حتى الوهم الذى نذهب ضحيته .

ولا جَرَمَ أننا إذا لم ننظر إلى غير الظواهر لم نَجِدْ ما هو أكثر اختلافاً بين النظام القديم والنظام الذى أسفرت عنه ثورتنا الكبرى ، وهذه الثورة لم تَصْنَعْ مع ذلك

غير إدامة التقاليد المَلَكِيَّة من غير قصدٍ مُتَمَّةٍ لنظام المركزية الذى بُدِئَ به فى العهد المَلَكِي منذ بضعة قرون ، ولو بُعث لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر من قَبْرِيهما ليَحْكُمَا فيما صنعتَه الثورة الفرنسية لَأَنَحِيَا باللائمة ، لا ريب ، على القسوة التى اتَّخَذَتْ فى سبيل تحقيقه ، ولكن مع عَدَّها إياه ملائماً لتقاليدهما وبرنامجهما ومع اعترافهما بأنهما لو فَوْضَا إلى وزير تنفيذ هذا البرنامج ما كُتِبَ له نجاحٌ أحسنُ مما وقع ، وقد كانا يُبينان كيف أن أقلَّ الحكومات التى عَرَفَتْها فرنسة ثورةً هى حكومةُ الثورة الفرنسية ~~ل~~ وقد كانا يُحَقِّقان فضلاً عن ذلك أنه لا نظام من النُظُم التى تداولت فرنسة منذ قرنٍ حَاوَلَ مَسَّ ذلك العمل ما دام ثَمَرَةً تطوّر مُنَظَّم وإدامةً للمَثَلِ المَلَكِيِّ الأعلى وعنواناً لعبقرية العِرْق ، ومما لا مِرَاء فيه أن ذَيْنِكَ الطَّيْفَيْنِ الشَّهِيرَيْنِ يُبْدِيَان إِذْ ذَاك شيئاً من النقد بسبب تجربتهما العظيمة فيلاحظان على ما يحتمل أن إقامة الطائفة الإدارية مقام الطائفة الأريستوقراطية الحكومية يَعْنِي إحداثاً فى الدولة لسلطة لا شخصية مرهوبة أكثر من طبقة الأشراف القديمة لحيازتها وهى تنفلت من التغيرات السياسية تقاليداً وروحاً طائفةً وعدمَ تَبَعَةٍ وَدَيْمُومَةٍ ، أى سلسلةً من الأحوال التى تُؤَدِّى إلى جعلها السيد الوحيد ، وأعتقدُ أنهما لا يُصِرَّان على هذا الاعتراض مع ذلك عَادَيْنِ الأَمِّ اللاتينية ، وهى قليلةُ المبالاة بالحرية كثيرةُ الطمع فى المساواة ، أنها تحتمل بسهولةً ضروبَ الاستبداد على أن يكون الاستبدادُ بأنواعه غيرَ شخصيٍّ ، وقد يَجِدَان أيضاً شيئاً من الإفراط والظغيان فى الأنظمة التى لا يُحْصِيها عَدٌّ ، وفى ألوف القيود التى تُحِيط اليوم بأدقِّ شُؤْنِ الحياة ، ومما قد يذكُر أنه أن الدولة إذا ما ابتلعت كلَّ شَيْءٍ وَنَظَّمَتْ كلَّ شَيْءٍ وَجَرَدَتْ أبناء الوطن من كلِّ مبادرة أصبحنا فى سواءٍ الاشتراكية من

تَلْقَاءَ أَنْفُسِنَا وَمِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى ثَوْرَةٍ جَدِيدَةٍ ، وَلَكِنَّهُمَا يُبْصِرَانِ بِالنُّورِ الْإِلَهِيِّ
الَّذِي يُضِيءُ الْمُلُوكَ ، أَوْ يُبْصِرَانِ عِنْدَ عَدَمِ هَذَا النُّورِ بِالنُّورِ الرِّيَاضِيِّ الْقَائِلِ إِنْ
الْمَعْلُولَاتِ تَزِيدُ عَلَى نِسْبَةِ هِنْدُسِيَّةٍ عِنْدَ وَجُودِ الْعِلَالِ ذَاتِهَا ، أَنْ الْإِشْتِرَاقِيَّةَ لَيْسَتْ
سِوَى آخِرِ تَعْبِيرٍ لِلْفِكْرَةِ الْمَلَكِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنِ الثَّوْرَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ غَيْرَ طَوْرٍ
مُعْجَلٍ لَهَا .

وَهَكَذَا نَجِدُ فِي نَظْمِ إِحْدَى الْأُمَمِ الْأَحْوَالُ الْعَرَضِيَّةَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي أَوَّلِ
هَذَا الْكِتَابِ وَالشُّنَنَ الدَّائِمَةَ الَّتِي حَاوَلْنَا تَحْدِيدَهَا ، وَالْأَحْوَالُ الْعَرَضِيَّةَ تُوَلَّدُ
الظَّوَاهِرَ عَلَى الْخُصُوصِ ، وَالشُّنَنُ الْأَسَاسِيَّةُ الْمَشْتَقَّةُ مِنْ أَخْلَاقِ الشُّعُوبِ تُوَلَّدُ
مَصِيرَ الْأُمَمِ .

وَيُمْكِنُنَا أَنْ نُضِيفَ إِلَى الْمَثَالِ السَّابِقِ مَثَالَ عِرْقٍ آخَرَ ، مَثَالَ الْعِرْقِ
الْإِنْكِلِيزِيِّ الَّذِي يَخْتَلِفُ بِمَزَاجِهِ النَّفْسِيِّ أَشَدَّ الْاِخْتِلَافِ عَنْ عِرْقِنَا ، وَبِهَذَا الْأَمْرِ
وَحْدَهُ تَبْتَعِدُ نَظْمُهُ ابْتِعَادًا أَسَاسِيًّا عَنْ نَظْمِنَا .

وَسِوَاءُ أَكَانَ عَلَى رَأْسِ الْإِنْكِلِيزِ مَلِكٌ كَمَا فِي إِنْكَلْتَرَةِ ، أَمْ رَئِيسٌ كَمَا فِي
الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ ، تَتَّصِفُ حُكُومَتُهُمْ دَوِّمًا بِالْمُمَيِّزَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ الْآتِيَةِ وَهِيَ : تَقْلِيلُ
عَمَلِ الدَّوْلَةِ إِلَى أَقْصَى حَدٍّ وَزِيَادَةُ عَمَلِ الْأَفْرَادِ إِلَى أَعْدَدٍ غَايَةٍ ، أَيْ عَكْسُ الْمَثَلِ
اللَّاتِينِيِّ الْأَعْلَى ، فُتُنْشَأُ الْمَرَافِي وَالْقَنَوَاتُ وَالخُطُوطُ الْحَدِيدِيَّةُ وَدَوْرُ التَّعْلِيمِ إلخ ،
وَتَدَارُ بِمَبَادِرَةِ الْأَفْرَادِ لَا بِمَبَادِرَةِ الدَّوْلَةِ ^(١) ، وَمَا كَانَتِ الثَّوَرَاتُ أَوْ الدَّسَاتِيرُ
أَوْ الطَّغَاةُ لَتَمْنَحَ الْأُمَّةَ مَا لَا تَمْلِكُهُ ، أَوْ تَنْزِعَ مِنْهَا مَا تَمْلِكُهُ ، مِنْ الصِّفَاتِ

(١) يَجِبُ أَنْ تُلَاحَظَ زِيَادَةُ الْمَبَادِرَةِ الْفَرْدِيَّةِ فِي أَمْرِيَّةٍ عَلَى الْخُصُوصِ ، وَأَمَّا فِي إِنْكَلْتَرَةِ فَقَدْ
أَخَذَتْ تَهْطُ مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً بِمَا يَسْتَوْقِفُ النَّظْرَ ، فَالْحُكُومَةُ فِي إِنْكَلْتَرَةِ أَخَذَتْ تَسْتَوْعِبُ كُلَّ شَيْءٍ
مَقْدَارًا فَقْدَارًا .

الْخُلُقِيَّةِ الَّتِي تُشْتَقُّ نُظْمُهَا مِنْهَا ، وَمَا كُرِّرَ غَيْرَ مَرَّةٍ أَنَّ الْأُمَّ تُعْطَى الْحُكُومَاتِ الَّتِي تَسْتَحِقُّهَا ، وَهَلْ لَنَا أَنْ نَتَصَوَّرَ لِلْأُمَّ حُكُومَاتٍ أُخْرَى ؟

وَسُنْبِينِ بِمَخْتَلَفِ الْأُمَثَلِ أَنَّ الْأُمَّ لَا تَتَقَلَّتْ مِنْ تَتَأَجَّجِ مَزَاجِهَا النَّفْسِيَّ ، وَأَنَّهَا إِذَا مَا تَقَلَّتْ مِنْهَا كَانَ ذَلِكَ لَوْحَةً قَصِيرَةً ، وَذَلِكَ كَالرَّمْلِ الَّذِي تُثِيرُهُ الزُّبُوعَةُ فَيَبْدُو فِرَارُهُ مِنْ سُنَنِ الْجَازِيَّةِ ذَاتَ حِينٍ ، وَمِنْ الْوَهْمِ الْخَطِرِ أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّ الْحُكُومَاتِ وَالِدَسَاتِيرَ ذَاتُ تَأْثِيرٍ فِي مُضِيرِ الْأُمَّةِ ، وَمُضِيرِ الْأُمَّةِ فِي يَدِهَا لَا فِي الْأَحْوَالِ الْخَارِجَةِ عَنْهَا بِالْحَقِيقَةِ ، وَكُلُّ مَا يُمْكِنُ الْحُكُومَةُ أَنْ تُسْأَلَ عَنْهُ هُوَ أَنْ تُعَبَّرَ عَنْ مَشَاعِرِ الْأُمَّةِ الَّتِي تُدْعَى إِلَى الْهَيْمَنَةِ عَلَيْهَا وَعَنْ أَفْكَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَالْحُكُومَةُ هِيَ صُورَةُ الْأُمَّةِ عَلَى الْعُمُومِ ، وَلَا يَقَالُ عَنْ أَيْةِ حُكُومَةٍ وَلَا عَنْ أَيْ نِظَامٍ إِنَّهُمَا طَيِّبَانِ أَوْ فَاسِدَانِ مُطْلَقًا ، وَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ كَانَتْ حُكُومَةُ مَلِكِ الدَاهُومِيِّ صَالِحَةً لِلْأُمَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَسُوسُهَا ، وَقَدْ يَكُونُ أَحْكَمُ الدَسَاتِيرِ الْأُورِيبَةِ سَيِّئًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَمِنْ الْمَوْسُفِ أَنْ يَجْهَلَ رِجَالُ الدَّوْلَةِ ذَلِكَ فَيَرَوْنَ أَنَّ الْحُكُومَةَ سِلْعَةٌ لِلتَّصْدِيرِ وَأَنَّ مِنَ الْمُمْكِنِ حُكْمَ الْمُسْتَعْمَرَاتِ بِنِظْمِ أُمِّ الْوَطَنِ ، وَهَذَا يَعْدِلُ مُحَاوَلَةَ إِقْنَاعِ السَّمَكِ بِالْعَيْشِ فِي الْهَوَاءِ بِحُجَّةِ أَنَّ التَّنَفْسَ الْهَوَائِيَّ هُوَ تَنْفَسُ جَمِيعِ الْخَيَوانَاتِ الْعَالِيَا .

وَالْأُمَّمُ الْمُخْتَلِفَةُ لِاخْتِلَافِ مَزَاجِهَا النَّفْسِيَّ وَحَدَهُ لَا تَبْقَى تَحْتَ نِظَامٍ وَاحِدٍ لَطَوِيلِ زَمَنٍ ، وَمَا كَانَ الْإِيرْلَنْدِيُّ وَالْإِنْكِلِيزِيُّ أَوْ السَّلَافِيُّ وَالْمَجَرِيُّ أَوْ الْعَرَبِيُّ وَالْفَرَنْسِيُّ ، لِيَخْضَعَا لِقَوَانِينِ وَاحِدَةٍ إِلَّا بِأَقْصَى الصَّعُوبَاتِ وَمُتَّصِلِ الثَّوَرَاتِ ، وَلَمْ تَكُنِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّاتُ الْكُبْرَى الْمَشْتَمَلَةُ عَلَى أُمَّمٍ مُخْتَلِفَةٍ لَتَعِيشَ إِلَّا عَيْشًا مُوقْتًا عَلَى الدَّوَامِ ، وَإِذَا مَا كُتِبَ لِتِلْكَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّاتِ الْكُبْرَى بَقَاءٌ طَوِيلٌ كَمَا كُتِبَ لِإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْمَغُولِ ثُمَّ لِإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْإِنْكِلِيزِ فِي الْهِنْدِ فَذَلِكَ لِأَنَّ الْعُرُوقَ الْمُتَقَابِلَةَ

هي من الكثرة والتباين والتنافس ما لا تُفكر معه في الاتحاد ضدَّ الأجنبيِّ ،
وذلك لأن سادتها الأجانب لهم من الغرائز السياسية الصادقة ما يحترمون به عاداتِ
الأمم المغلوبة ويدعونها تعيش به خاضعةً لشرائعها الخاصة .

ولو أُريدَ بيانُ جميع النتائج الصادرة عن مزاج الأمم النفسى لَكُتِبَتِ عِدَّةُ
مجلداتٍ ولَجُدَّدَ التاريخ بأُسره ، ويجب أن يكون البحث العميق في ذلك المزاج
النفسى أساسَ السياسة والتربية ، ولو كانت الأممُ تستطيع أن تتفكَّلت من مقادير
عرقها ، ولو كان صَوْتُ الأموات المُتَجَبِّرُ غيرَ خائقٍ لصوتِ العقل ، لصان الأمم
ذلك البحثُ من أغاليطَ كثيرةٍ وانقلابات غير قليلة .

الفصل الثاني

تطبيق المبادئ السابقة على البحث المقارن

في تطور الولايات المتحدة بأمريكا

والجمهوريات الإسبانية الأمريكية

الحلق الإنكليزي — كيف تكونت الروح الأمريكية — شدة الانتخاب
الناسي عن أحوال الحياة — زوال العناصر الدنيا القسري — الزنوج
والصينيون — أسباب رخاء الولايات المتحدة وأنحطاط الجمهوريات الإسبانية
الأمريكية على الرغم من تماثل النظم السياسية — الفوضى القهرية في
الجمهوريات الإسبانية الأمريكية نتيجة لانحطاط أخلاق العرق .

ثبتت الملاحظات المختصرة السابقة أن نُظْمَ الأمة تُعبر عن روحها وأن الأمة إذا
سُهل عليها أن تُغير شكل هذه النُظْم لا تقدر على تغيير أساسها ، والآن نُبَيِّن
بأمثلة واضحة درجة سيطرة روح الأمة على مصيرها كما نُبَيِّن الشأن الضئيل الذي
تُمثله النُظْم في ذلك المصير ^(١) .

(١) كان العالم الاجتماعي الشهير هربرت سبنسر قد ترك في كتبه الكبيرة ، جانباً ، تأثير
أخلاق الأمم في مصيرها ، وقد ساقته نظرياته الجميلة في بدء الأمر إلى نتائج تدعو إلى التفاؤل الكثير ،
فلما تقدم في السن رأى أن ينظر إلى شأن الأخلاق الأساسي فاضطر إلى تغيير نتائجه الأولى تغييراً تاماً
فاستبدل بها نتائج داعية إلى تشاؤم عظيم ، ونجد ذلك في خطبته التي قتلها مجلة المجلات ، وإليك
بعض ما جاء فيها :

« ضعف إيمانى بالنظم الحرة ضعفاً كبيراً في هذه السنوات الأخيرة بعد أن كان متيناً في
البداية ... ونحن نرجع إلى نظام اليد الحديدية الذي يتجلى في الاستبداد القرطاسي لنظام اشتراكي ،
ثم يتجلى في الاستبداد العسكري الذي يخلف الاستبداد القرطاسي ما لم يأتنا هذا الاستبداد العسكري
لجأة بفعل انقلاب اجتماعي » .

وإننى آخذُ هذه الأمثلةَ من بلد تعيش فيه جنباً لجنب ، وذلك فى بيئة ذات أحوال قليلة الاختلاف ، عروقُ أوربية متماثلة فى الحضارة والذكاء غيرُ مختلفة فى سوى الأخلاق ، أى أخذها من أمريكا ، وتؤلفُ أمريكا من قارتين يجمعهما برزخٌ ، وتتساوى تانك القارتان مساحةً تقريباً وتتشابهان تراباً تشابهاً كبيراً ، والعرقُ الإنكليزى كان قد استولى على إحداها ، والعرقُ الإسبانى كان قد استولى على الأخرى ، وكلا العرقين ذودساتير متشابهة ما دامت جمهورياتُ أمريكا الجنوبية قد نقلت دساتيرها من دستور الولايات المتحدة ، وهناك لا ترى ، إذن ، غيرَ اختلافِ عروقٍ متقابل نستعين به على إيضاح مختلف مصائر تلك الأمم ، وإليك نتائج هذا الاختلاف .

ولنبداً بتلخيص أخلاق العرقِ الأنغلو سكسونى الذى عمَرَ الولايات المتحدة ، وذلك فى بضع كلمات ، وفى العالم لا تجدُ عرقاً أكثر تجانساً منه مع اختلاف أصله ، وفى العالم قد لا تجدُ عرقاً ذا مزاج نفسى أسهل تعريفاً من مزاجه فى خطوطه الكبرى .

ومن الناحية الخلقية يمتاز ذلك المزاجُ النفسى بإرادةٍ قلما اتفقت لأمة خلا الرومان وبهمةٍ لا تُقهر وبقوةٍ مبادرةٍ ناميةٍ إلى الغاية وبضبطِ نفسٍ وباستقلالٍ يخرج عن حدِّ الأنس وبنشاطٍ قوى وبشعور دينى شديد وبأدب ثابت وبمعرفة جليّة للواجب . ومن الناحية الذهنية لا نجدُ ما يسهل بيانه من الصفات الخاصة ، أى من العناصر الخاصة التى لا يشاهد مثلها لدى الأمم المتمدنة الأخرى ، ولا ترى غيرَ ذكر ذلك التمييز الصادق الذى تُدرك به ناحية الأمور العملية الإيجابية ولا يُصلُّ به فى المباحث الوهمية ، وغيرَ ذكر ذلك الذوق الممتاز للوقائع وذلك التذوق الهزيل للمبادئ

العامة ، وغيرَ ذكرِ ذلك البَصَرِ الضَّيِّقِ الذى يَحُولُ دونَ تَبَيُّنِ ما فى المعتقدات الدينية من نواحٍ ضعيفةٍ والذى يجعل هذه المعتقداتِ فى حِمَى من الجَدَلِ .
 وإلى تلك الصفات العامة تُضاف صفة التفاؤل التامُّ التى تَبْدُو بها طريق الرجل فى الحياة مُمَهَّدَةً فلا يَقْتَرِضُ أنه يَقْدِرُ على اختيار ما هو أحسن منها ، وهو يَعْلَمُ دوماً ماذا يَطْلُبُ منه وطنه وأُسْرَتُهُ وآلِهَتُهُ ، ويبلغ هذا التفاؤل من الشدة درجةً يُعَدُّ بها كلُّ عنصر أجنبيٍّ مُحْتَقَرًا ، والحقُّ أن احتقار الأجنبيِّ وعاداتِهِ يجاوزُ فى إنكلترة الحدِّ الذى كان الرومان فى إِبَّانِ عظمتهم يَحْتَقِرُونَ البرابرة به ، ولهذا الاحتقار تُبَصِّرُ زوالَ كلِّ مقياس أدبٍ تَجَاهُ الأجنبيِّ ، واحتقارُ الأجنبيِّ هذا يَنْبَغُ على شعور متأخر من الناحية الفلسفية لا ريب ، غير أنه بالغُ الفائدة فى تقدم الأمم ، ومن الإصابة قولُ القائد الإنكليزى وُلْسلى إن ذلك الاحتقار من عوامل قوة إنكلترة ، ومن الإصابة أن قيل إن الإنكليز يُعْنَوْنَ كالصينيين بمنع تسرب أى نفوذ أجنبيٍّ فيهم ، وذلك بسبب رفضهم الصائب إنشاء نفقٍ تحت المانش تَسْهُلُ به العلائق بينهم وبين القارة .

وتَجَدُّ الأخلاقُ المذكورة فيما تقدم فى مختلف الطبقات الاجتماعية ، ولا تبصر عنصراً عن عناصر الحضارة الإنكليزية إلَّا وعليه طابعٌ قوىٌّ من تلك الأخلاق ، وتلك الأخلاقُ تَقِفُ نظر الأجنبيِّ الذى يزور إنكلترة ولو لبضعة أيام ، ومما يراه هذا الأجنبيُّ ذلك الاحتياج إلى الحياة المستقلة فى كُوخٍ أدنى مستخدم ، وهذا الكوخُ منزلٌ ضَيِّقٌ لا ريب ، ولكنه فى حِمَى من كلِّ ضغط وفى مُنْتَأَى من كلِّ جوار ، ويرى الأجنبيُّ ذلك الاحتياج إلى الاستقلال فى المحطات المطروقة حيث يَطُوفُ الجُمُهور فى كلِّ ساعة من غير أن يُزْرَبَ كقطع من الغنم الطيِّع خلف حاجزٍ

يَحْرُسُهُ موظف كما لو وجب عليه حفظ سلامة الناس الذين لا يَجِدُونَ في أنفسهم من الانتباه الضروري ما يصونون به أنفسهم من الدَّوْس ، وَيَطَّلِعُ ذلك الأجنبيُّ على نشاط ذلك العِرْق في عمل العامل القاسي كما يَطَّلِعُ عليه في عمل الطالب الذي وُضِعَ جُلُّهُ على غار به منذ صباه فيتعلم السَّيْرَ وحده عالماً أنه لا أحدَ غيره يُعْنَى بمصيره ، وَيَطَّلِعُ ذلك الأجنبيُّ على نشاط ذلك العِرْق لدى الأستاذة الذين يكتفون بقليلٍ تعليمٍ وبيالون بكثيرٍ أخلاقٍ عَادِّينَ الخُلُقِ من أقوى العوامل المُحَرِّكة في العالم^(١) ، وذلك الأجنبيُّ إذا ما رَجَعَ بَصَرَهُ إلى حياة ابن الوطن العامَّةَ أَبْصَرَ أنه يُعْتَمَدُ دوماً على قوة المبادرة الفردية لا على الدولة ، لا فرق في ذلك بين إصلاح يَذْبُوع قريَّةٍ وإنشاء مرفأٍ بحريٍّ ومدٍّ خطٍّ حديديٍّ ، وذلك الأجنبيُّ حين يتابع بَحْثَهُ لم يلبث أن يعترف بأن تلك الأمة هي الأمة الحرة الوحيدة حقاً على الرغم من معايها التي تجعلها في نظر الأجنبيِّ أكثرَ الأمم جفاءً ، وذلك لأنها وحدها هي التي استطاعت أن تعرِّف كيف تسير طليقةً فلا تترك لحكومتها غير أدنى حدٍّ من العمل ، والباحث إذا ما تصفَّح تاريخ تلك الأمة وَجَدَ أنها أولُ من عَرَفَ أن يتخلص من كلِّ سيطرة للكنيسة أو للملوك ، وفي القرن الخامس عشر كان الفقيه فورْتِسْكُو يعارض « القانون الرومانيَّ » الذي هو تراث الأمم اللاتينية بالقانون الإنكليزيَّ فيقول إن الأول هو من صنع الأمراء المطلقين فيعمل على التضحية بالفرد ، وإن الثاني هو من عمل الجميع فيعمل على حماية الفرد .

وإذا ما هاجرت أمةٌ تلك هي حالها إلى أية مُبْتَعَةٍ من بِقَاعِ الدُّنْيَا لم تُعْتَمَدْ أن تصير

(١) عهدت ملكة إنكلترة إلى الأمير ألبرت في تعيين شروط المكافأة السنوية التي تمنحها لكلية ولغتين ، فقرر هذا الأمير أنها ستعطى لأعلى الطلاب أخلاقاً لا لأكثرهم تعلماً ، ولو كان الأمر لدى إحدى الأمم اللاتينية لكانت المكافأة نصيب الطالب الذي يفوق غيره في استظهار مآلعه في الكتب ، فالحق أن جميع تعليمنا ، حتى التعليم الذي نصفه بالعالى ، يقوم على استدراك الشبهة للدروس ، والشبهة تحتفظ بعد ذلك بعادة الاستدراك في بقية حياتها .

ذات شوكة وأن تُؤسَّس دولاً قوية ، وإذا كان العِرْقُ الذي تغزوه على جانب كبير من الضَّعْف فلا يُنتَفَع به ، كأصحاب الجلود الحُمْر (الْيُورُوج) بأمرِكة مثلاً ، أبادته بانتظام ، وإذا كان العرق المقهور كثير العدد وكان يمكن استغلاله ، كأهل الهند ، أُكْرِه على العمل في سبيل سادته واستثمر بمهارة مع تركه حراً في عاداته ونُظُمه .

وفي بلد جديد كأمرِكة يجب تَتَبُّع التقدم العجيب المَدِينِ لمزاج العِرْق الإنكليزيِّ النفسى ، ولا أحد يجهل ماذا أصبح هذا العِرْق ، وهو المعتمد على نفسه ، فيما نُقِلَ إليه من تلك البقاع العاطلة من الفِلاحة والتي لم يَكْد يسكنها بعض المتوحشين ، فقد كفاه قرن واحد لينال إحدى المراتب الأولى بين دول العالم العظمى حتى قَلَّ من يقدِّر على مكافحته في الوقت الحاضر ، وترانى أوصى بقراءة كتب مسيوروزيه عن الولايات المتحدة أولئك الذين يرغبون في الوقوف على مقدار المبادرة العظيمة والنشاط الفردى الذين يَبْذُلها أبناء تلك الجُمهورية القوية ، فهناك يُبْصِرُونَ استعدادَ الناس إلى أقصى حدٍّ لإدارة أنفسهم بأنفسهم وللإشتراك في إنشاء المشاريع الكبيرة وبناء المدن وشيْد المدارس والمرافئ والخطوط الحديدية إلخ ، وهناك يصرون عمل الدولة إلى أدنى حدٍّ حتى يُمكن القولُ بعدم وجود سلطات عامة تقريباً ، وماذا يكون نَفْعُ تلك السلطات فيما خلا الشرطة والجيش والتمثيل الدَّبْلُومِيّ .

ثم إنه لا يُكْتَب في الولايات المتحدة فَلَاحٌ إلا لمن هو حائز للصفات الخُلُقِيَّة المذكورة سابقاً ، ولذلك ترى المُهاجراتِ الأجنبيَّة لا تُغَيِّرُ رُوحَ العِرْقِ العامَّة أبداً ، ومن شروط الحياة هنالك أن الذى يكون عاطلاً من تلك الصفات يغدو

محكوماً عليه بالزوال السريع ، والأفغولوسكسونيَّ وحده هو الذي يَقْدِرُ على العيش في ذلك الوسط المُشْبِع من الاستقلال والإقدام ، وأما الإيطاليُّ فيموتُ فيه جوعاً ، وأما الأيرلنديُّ والزنجيُّ فيعيشان في الخِدم الدنيا .

وتمثِّلُ تلك الجُمهوريَّة الكبرى أرضَ الحرية لا ريب ، وهي ليست أرضَ المساواة والإخاء ، ذَيْنِكَ الوهمين اللاتينيين اللذين لا تَعْرِفُهما سُنَّةُ التقدُّم ، ولا تَجِدُ في العالمِ مثلاً ذلك القطر قطراً أنشَبَ الانتخابُ الطبيعيُّ فيه أظفاره ، نَعَمْ ، يبدو ذلك الانتخابُ الطبيعيُّ فاقدَ الرحمة هنالك ، وهو لِعَطْلَةٍ من الرحمة حافظُ العرْقُ الذي أوجب تَكْوِينَهُ على قُوَّتِهِ وإقدامه ، ولا مكان في الولايات المتحدة للضعفاء ومتوسطي الحال والقاصرين ، ولعامل الانحطاط وحده تَجِدُ الأشخاصَ المنحطين مُعرَّضين للهلاك هنالك شعوباً ومنفردين ، وأصحابُ الجلود الحُمْرِ أُبيدوا برصاص البنادق أو بالموت جوعاً لعدم نفعهم ، وسيكون للعمَّال الصينيين الذين تشدُّ وطأة مزاحمتهم مثلُ ذلك النصيب في نهاية الأمر ، ولم يُنفذ القانون الذي سُنَّ لطردهم جُمْلَةً بسبب ما يقتضيه من النفقات العظيمة ^(١) ، ومن المحتمل أن يُستبدل به استئصالُ مُنظَّم كالذي بُدِيَ به في كثير من المديريات ذات المناجم ، ومما سُنَّ حديثاً قوانينُ لِحَظَرِ دخول البلاد الأمريكية على المهاجرين الفقراء ، وأما الزوجُ الذي اتَّخَذُوا حُجَّةَ حرب الانفصال (وهي الحرب التي اشتعلت بين الأمريكيين الذين يملكون عبيداً والأمريكيين الذين أرادوا منع أولئك من اقتناء العبيد لعجزهم عن أن يملكوا مثلهم) فلم يُنظَرْ إليهم بعين التسامح تقريباً

(١) لم يؤجل المؤتمر (الكونفرس) الثالث والمُحسِنون تنفيذ قانون جباري القائل بإخراج الصينيين إلا بعد أن وجد أن إعادة مئة ألف صيني إلى بلادهم يتطلب ثلاثين مليون فرنك على حين كان المال المخصص في الميزانية لطردهم العمال الصينيين مئة ألف فرنك فقط .

إلا لاقصّارهم على خِدمٍ منحة يُعْرِضُ عنها أى أمريكىّ كان ، وللزّوج هؤلاء جميعُ الحقوق نظريّاً ، والزّوج هؤلاء يعاملون عمليّاً كحيوانات ذات نفعٍ فيُتخلص منهم إذا ما أضحوّ خطرين ، وقد وُجدت الكفاية في الأساليب الحاسمة التي تقول بها طريقة لنش على العموم فيُعَدَم بها الزّوج رُمياً بالرصاص أو شنقاً عند أول جرم مزعج يقترفونه . وتلك هي النواحي السّود في الصورة لا ريب ، وما في هذه الصورة من بهاء فيَحْمِل على احتمالها ، وإذا ما وُجِب تعريفُ الفرق بين أوربة البرية والولايات المتحدة بكلمة واحدة أمكننا أن نقول إن أوربة البرية تُمثّل الحدّ الأقصى لما يمكن أن يُؤدّى إليه التنظيم الرسمى الذى يقوم مقام المبادرة الفردية ، وإن الولايات المتحدة تُمثّل الحدّ الأقصى لما يمكن أن تُؤدّى إليه المبادرة الفردية المستقلة عن كل تنظيم رسمى ، وفروقٌ أساسية كهذه هي من نتائج الخلق وحده ، وليس من جُظّ للاشتراكية الأوربية في التّأصل في أرض تلك الجُمهورية الصّلد ، والاشتراكية الأوربية ، إذ كانت آخر عُنوان لطغيان الدولة ، لا تزدهر إلا عند العروق المُسِنَّة الخاضعة منذ قرونٍ لنظامٍ نَزَعَ منها كل استعداد لحكم نفسها بنفسها^(١) .

وفيا تقدم رأينا ماذا أحدثته في قسم من أمريكية شعبٌ حائز لمزاج نفسى تغلب عليه الثبات والإقدام والعزم ، فبقى علينا أن نبين ماذا آل إليه بلدٌ مماثل لذلك تقريباً على أيدي عرقٍ آخر ذكى على الخصوص ، ولكن مع عطل من الصفات الخلقية التي قرّرت نتائجها .

حقاً أن أمريكية الجنووية هي من أغنى بقاع الدنيا في حاصلاتها الطبيعية ،

(١) تلك هي أمريكية الأمس واليوم ، لا أمريكية الغد على ما يحتمل ، فسرى في فصل آت أن أمريكية عرضة لحرب أهلية ولا تقسم إلى عدة دول مستقلة متقاتلة على الدوام كدول أوربة ، وذلك بفعل ما يصدر من الغزو الجديد عن عناصر منحة لا يمكن هضمها .

وأمریكة الجنویة هذه هی أكبرُ من أوربة مرتین وأقلُ منها سكانًا عشرَ مرات ، وهی لا تعوزها الأرضُ ، وهی لمن یثیرُها إذنْ ، وأهلوها السائدون هم من أصل إسبانیّ ویقسّمون إلى عدّة جُمهوریات ، ومن هذه الجُمهوریات : الأرجنتینُ والبرازیلُ والشیلی والپیرو إلخ ، وجميعها قد انتحل دُستورَ الولايات المتحدة السیاسیة ، وله قوانینُ تماثل قوانینَها لهذا السبب ، والآن ، وقد كان عِرْقُ تلك الجُمهوریات مختلفًا عن العرق الذي یَعمرُ الولايات المتحدة عاطلاً من صفاته ، فإن هذه الجُمهوریات کلّها تبدو طُعْمَةً للفوضى الدامیة على الدوام ، وهی مع كنوز أرضها العجیبة تراها غارقةً فی ضروب التبذیر ، غارقةً فی الإفلاس والطفیان .

وتجدُ أسبابَ ذلك الانحطاط کلّها فی المزاج النفسیّ لعِرْقٍ من المولّدين عاطلٍ من الإقدام والعزم والأدب ، وفقدانُ الأدب على الخصوص یجاوز جمیع ما نعرفه من قبائح فی أوربة ، وقد أوردت . شیلد مدینة بوینوس ایریس التي هی إحدى المدن المهمة مثلاً فصرّح بأنها لا تصلح لسكنی من هو على شیء من رِقّة الشعور ومن الأدب ، وقصدَ ذلك الكاتبُ جُمهوریة الأرجنتین التي هی من أقلّ تلك الجُمهوریات انحطاطاً بقوله : « لیدرس الباحثُ تلك الجُمهوریة من الناحية التجاریة حتى یظلّ مبهوراً من عدم الذمة البادی فی كلِّ مكان منها » .

ولا ترى مثلاً أحسنَ من ذلك دلالةً على كون النُظم ولیدة العِرْق وعلى استحالة نقل هذه النُظم من أمة إلى أخرى ، ومن الطریف أن یُعَلِّم ماذا تصیر إليه نُظم الولايات المتحدة الحرة بانتقالها إلى عِرْق متأخر ، قال مسیو شیلد مُحَدَّثاً إيانا عن الجُمهوریات الإسبانیة الأمریكية : « یَقْبِضُ على زمام تلك البلاد رؤساء لا یَقْلَوْنَ استبداداً عن قیصر روسیة ، بل هم أشدُّ إطلاقاً منه لُبْعَدهم من مُزَعجات

الرّقابة الأوربية ونفوذها ، وما الموظفون الإداريون إلا من صنائعهم ... ويصوت أبناء الوطن كما يَرَوْن ، ولكن من غير أن يُلتفت إلى أصواتهم ، وليست الأرجنتين جُمهوريةً إلا بالاسم ، والحقيقة أنها حكومة أناسٍ يجعلون من السياسة تجارةً » .

والبرازيلُ هي البلد الوحيد الذي كان قد نَجَا من ذلك الانحطاط العميق ، وذلك بفضل نظام مَلِكِيٍّ كان يَضَعُ السلطةَ في مَأْمِنٍ من المنافسات ، وإذا كان هذا النظام من الحرية ما هو كثيرٌ على عروق فاقدة الإقدام والإرادة فإنه لم يلبث أن انهار ، فغداً ذلك البلدُ فريسةَ الفوضى التامة ، ولم يَمُضِ غيرُ قليلٍ سنواتٍ حتى بلغ أولياء الأمور من تبديد أموال بيت المال ما قضت الضرورة معه بزيادة الضرائب على نِسَبٍ عظيمة .

ومن الطبيعيُّ ألا يَتَجَلَّى انحطاط العِرْق اللاتينيِّ الذي يَعْمُرُ جَنُوبَ أمريكا في السياسة وحدها ، بل يَتَجَلَّى في جميع عناصر الحضارة ، وتلك الجُمهورياتُ التعيسة إذا ما تَرَكَّتْ هي وشأنها عادت إلى المهمجية الصَّرفة ، ولذلك أصبحت الصُّناعة والتجارة فيها قَبْضَةُ الأجنبي من إنكليز وأمريكيين وألمان ، فصارت فالپاريزو مدينةً إنكليزية ، ولولا الأجنبي ما بَقِيَ شَيْءٌ للشَّيْلِ ، وبفضل الأجنبي وحدهم تحافظ تلك البقاعُ على طلاء خارجيٍّ للحضارة لا يزال يَخْدَعُ أوربة .

وإن هذا الانحطاط الهائل الذي يبدو في أولئك السكان المؤلَّدين من العِرْق الإسبانيِّ وأهل البلاد الأصليين إذا ما قِيسَ بِرُقِيِّ العِرْق الإنكليزيِّ المقيم ببلد مجاور ظَهَرَ من أكثر التجارب سواداً وإثارةً للحسرة وكان من أمتع التجارب التي يُسْتَشْهَدُ بها لتأييد الشُّنن النفسية التي عرضتها .

الفصل الثالث

كيف يؤدّي تغيير روح العِرق

إلى تغيير تطور الأمم النازيحي

تأثير العناصر الأجنبية يحول روح العرق وحضارته — مثال الرومان —
لم تسقط حضارة الرومان بالمغازى الحربية ، بل بمغازى البرابرة السامية —
لم يفكر البرابرة في هدم الإمبراطورية قط — لم تكن لغاراتهم صفة الفتوح —
كان رؤساء الفرنج الأولون يعدون أنفسهم موظفين في خدمة الإمبراطورية
الرومانية — احترم أولئك الرؤساء حضارة الرومان على الدوام ، وهم لم يفكروا
في غير إدامتها — لم يعدل رؤساء البرابرة عن عد القيصر رئيساً لهم إلا من القرن
السابع — لم يكن تحول الحضارة الرومانية التام نتيجة هدم ، بل نتيجة اتحال
حضارة قديمة من قبل عرق جديد — المغازى الحديثة في الولايات المتحدة —
المنازعات الداخلية وما توجبه من انقسام إلى دول مستقلة متنافسة — مغازى
الأجانب في فرنسا وتناحجها .

تدل الأمثلة التي ذكرناها على أن تاريخ الأمة يرجع إلى خلقها أى إلى
عرقها لا إلى نظمها ، ونحن حين بحثنا في تكوين العروق التاريخية رأينا أن انحلال
هذه العروق يتم بالتوالد وأن الأمم التي حافظت على وحدتها وقوتها كالآريين في
الهند قديماً وكالإنكليز في مختلف مستعمراتهم هي التي ابتعدت بعناية عن كل
اختلاط بالأجانب ، ووجود الأجانب وإن قلوا يكفي لتغيير روح الأمة ، ووجود
الأجانب يُفقد الأمة أهليتها للدفاع عن أخلاق عرقها وعن آثار تاريخها وعن
أعمال أجدادها .

وتلك النتيجة صادرة عما تقدم ، وإذا ما وَجَبَ عُدَّ عناصر إحدى الحضارات مظهرًا خارجيًا لروح الأمة كان من البديهي أن تتغير حضارة الأمة بتغير روحها . ولنا في تاريخ الماضي أدلة لا جدال فيها ، وسيكون لنا في تاريخ المستقبل أدلة أخرى أيضاً .

تحوُّل الحضارة الرومانية التدريجيُّ هو من أبرز الأمثلة التي يمكن الاستناد إليها ، وعلى العموم يُظهِر المؤرخون لنا هذا الحادثَ نتيجةً لما قام به البرابرة من غارات مُحَرِّبَةٍ ، غير أن البحث الدقيق في الوقائع يُثَبِّت من جهةٍ أن الغارات التي أوجبت سقوطَ الإمبراطورية الرومانية كانت سَلْمِيَّةً لا حربيةً ، وهو يُثَبِّت من جهةٍ أخرى أن البرابرة كانوا يحترمون هذه الإمبراطوريةَ احترامَ إعجاب على الدوام وأنهم لم يَأْلُوا جُهداً في انتحالها وإدامتها ، والبرابرة هؤلاء قد حاولوا اعتناق لغة تلك الإمبراطورية ونُظُمها وفنونها ، والبرابرة هؤلاء قد عَمِلُوا حتى أواخرَ عهد الميروفنجيين على إدامة الحضارة القوية التي ورثوها ، وتَرَى جميعَ أعمال الإمبراطور العظيم شارلمان مُشْبَعَةً من هذه الفكرة .

ولكننا نَعْلَمُ أن عملاً كهذا مما يتعذر تحقيقه على الدوام ، فقد تَطَلَّبَ تكوينُ البرابرة لعرقٍ متجانسٍ بعضَ التجانسِ مرورَ قرونٍ قَصُودِها في التوالد المُكَرَّرِ وفي أحوال عيشٍ متماثلة ، وذلك العرقُ عندما تَكُونُ حَازَةً بسبب تَكُونِهِ وحده فنوناً جديدة ولغةً جديدة ونُظْماً جديدة وحضارة جديدة من حيث النتيجة ، وما انفكت ذكرى رومة تشتدُّ على هذه الحضارة ، وما بُذِلَ من جهود كثيرة في سبيل إحيائها فقد ذهب أدراج الرياح ، ومن العَبَثُ أن حاولت (النهضة) بعثَ فنون رومة وأن جَدَّت الثورةُ الفرنسيةُ في إعادة نُظُمها .

إذن ، لم يُفكّر البرابرة الذين أغاروا بالتدريج على الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الأول من الميلاد والذين ابتلعوها مؤخرًا في هدم حضارة هذه الإمبراطورية ، بل كانوا يُفكّرون في إدامتها فقط ، حتى إن مجرى التاريخ ما كان ليتغير لو لم يحارب البرابرة رومة ويقتصروا على الاختلاط بالرومان شيئًا فشيئًا ويقلّ عدد الرومان بذلك يوماً فيوماً ، أى إن اختلاط الفريقين كان كافياً لتقويض الروح الرومانية وإن لم يخرب البرابرة رومة ، ولذلك يمكن القول بأن الحضارة الرومانية لم تدمر قط ، بل أُدمت بتحويلها في غضون القرون ، وذلك لوقوعها في أيدي عروق مختلفة . وإن أقلّ نظرةٍ إلى تاريخ غارات البرابرة يُؤيّد ذلك تأييداً كبيراً .

وقد دلّت مباحث علماء العصر الحاضر ، ولا سيما مباحث فوستل دوكولا نيج ، على أن غارات البرابرة السامية هي التي أدّت إلى اضمحلال الدولة الرومانية بالتدريج ، لا الغزوات العدوانية التي ردها مرتزقة الإمبراطورية في أكثر الأحيان ، وكان من العادات التي اتّخذت منذ عهد الأباطرة الأولين هو استخدام البرابرة في الجيوش ، وكانت هذه العادة تستفحل كلما زاد الرومان ثراءً وزهداً في الخدمة العسكرية ، فلما انقضت بضعة قرون عاد لا يكون في الجيش سوى أناس من الغرباء كما في الإدارة ، « وكان القوط والبورغون والفرننج جنوداً مؤتلفين في خدمة القيصر الروماني » .

وعندما أصبحت رومة لا تملك جنوداً من غير البرابرة وعندما صارت الولايات الرومانية لا تُدارُ بسوى رؤساء من البرابرة غدا من البديهي أن يميل هؤلاء الرؤساء إلى الاستقلال ، والواقع هو أنهم وفّقوا لذلك ، بيد أن رومة كانت تتمتع بنفوذ بالغ لم يفكر معه أحدٌ من هؤلاء في هدم الإمبراطورية الرومانية ، وذلك مع وقوع رومة في سلطانه ، وفي سنة ٤٧٦ حينما استولى ملك الهيرول أدواكر التابع للقيصر

على رومة لم يلبث أن التمس من القيصر المقيم بالقسطنطينية أن يُنذِر أن يسمح له بأن يتولى أمر إيطاليا حاملاً لقب بطريق^(١)، ولم يسِر أحدٌ من أولئك الرؤساء على غير هذه السُنَّة، وأولئك الرؤساء كانوا يديرون شؤون الولايات باسم رومة على الدوام، وهم لم يفكروا قطُّ في التصرف في الأرض أوفى مَسِّ النُظُم، وكان كلوفيس يعدُّ نفسه موظفاً رومانياً وكان فخوراً بنيله من القيصر لقبَ قنصل، ومضت ثلاثون سنة بعد موته فلم ينفك خلفاؤه في أثنائها يمتثلون ما يئليه القياصرة من الأحكام ملزمين أنفسهم بمرعاتها، ولم يجزؤ رؤساء البرابرة الغول على ضرب النقود الحاملة لصورهم إلا في أوائل القرن السابع، وهذه النقود لم تحمِل غير صور الأباطرة حتى ذلك الحين، وبعد هذا التاريخ فقط صار الغوليُّون لا يعدُّون القيصرَ رئيساً لهم، ولذلك ترى المؤرخين يبدئون بتاريخ فرنسة قبل الواقع بمئتي سنة ويضيفون بضعة عشر ملكاً إلى سلسلة ملوكنا.

ولا شيء أقلُّ شَبهاً بالفتح من غزوات البرابرة مادام الأهالي قد حافظوا على أراضيهم ولغتهم وقوانينهم وما دام هذا لا يقع في الفتوحات الحقيقية كفتح النورمان لإنكلترة.

ومن المحتمل أن زالت الدولة الرومانية بالتدريج فلم يشعُر المعاصرون بذلك، وبيان ذلك أن الولايات كانت قد تعوَّدت منذ قرون وجود رؤساء يديرون شؤونها باسم الأباطرة، ثم تدرَّج أولئك الرؤساء إلى السَّيَر على حساب أنفسهم فلم يُغيَّر شيءٌ لهذا السبب، وقد عمل بهذا النظام تحت سادةٍ جُدُّ طيلة العهد الميرُوفنجي^(٢).

(١) البطريق رتبة شرف عند الرومان، وأما البطريك فرتبة رؤساء الكنائس (الترجم).

(٢) قال مسيو فوستل دو كولايج: « تكاد الحكومة الميروفنجية تكون إدامة للحكومة التي منحها الإمبراطورية الرومانية لبلاد الغول ... ولا إقطاعية في حكومة الميروفنجيين ».

وإنما التغيرُ الحقيقيُّ الوحيدُ ، وهو الذى أخفى عميقاً مع الزمن ، هو ظهورُ عِرْقٍ جديدٍ وظهورُ حضارةٍ جديدةٍ كنتيجةٍ لازمةٍ له ، وذلك وَفْقَ الشَّنِّ التى عرضناها .

وبتكرارِ الأمورِ الأبدىِّ ذلك الذى يبدو أنه أقوى سُنَنِ التاريخِ ترانا اليومَ مدْعُوِّينَ على الأرجحِ إلى مثل تلك الغزواتِ السَّلميةِ التى أدت إلى تحويلِ الحضارةِ الرومانية ، وقد يدعو انتشار الحضارةِ الحديثةِ العالمُ إلى الاعتقادِ بأنه لا برابرةَ اليومِ ، أو أن البرابرةَ التَّامِّينَ فى سَوَاءِ آسية وإفريقية هم من البُعْدِ منا مالا نخشى معه غزواتِهِمْ ، وليس لدينا ما نخاف به مغازيهِمْ لا ريب ، وأنهم لن يصبحوا خَطِرِينَ علينا إلا بمزاحمتهم الاقتصاديةِ التى سيوجهونها إلى أوربة ذاتِ يومٍ كما بَيَّنْتُ فى كتابٍ آخر ، وليس أولئك هم الذين نَقْصِدُهُمْ هنا إذَنْ ، والبرابرةُ قريباون فى الحقيقة وإن بَدَوْا بعيدين ، وهم أقربُ جداً مما كانوا أيامَ أباطرةِ الرومان ، وذلك لوجودهم فى صميمِ الأُمِّ المتمدنةِ بالواقع ، وترى كلَّ أمةٍ تشتمل على عددٍ كبيرٍ من العناصرِ الدنيا العاجزةِ عن ملاءمةِ حضارةٍ تفوقُ مستواها كثيراً لما تكلمْتُ عنه من تعقُّدِ حضارتنا الحديثةِ ومن تفاوتِ الأفرادِ بالتدرُّجِ ، وهكذا يَتَكَوَّنُ سِقْطٌ كبيرٌ لا يَنفَكُ يزيدُ فيكونُ عمله هائلاً فى الأُمِّ التى تُبْتَلَى به .

واليومَ يَتَجَبَّهُ أولئك البرابرةُ الجُدُّ نَحْوَ الولاياتِ المتحدةِ بأمرِكةٍ كما لو كانوا مُجْمَعِينَ على ذلك ، واليومَ ترى أولئك البرابرةَ يَهْدِدُونَ حضارةَ تلكِ الأُمَّةِ العظيمةِ تهديداً جديداً ، ويكونُ الهَضْمُ سهلاً نافعاً مادامت هجرةُ الأُجانبِ إلى ذلكِ البلدِ نادرةً وما دامت مُؤَلَّفَةٌ من عناصرٍ إنكليزيةٍ على الخصوص ، وهجرةُ كهذه

أوجبت عظمة أمريكة ، واليوم تخضع الولايات المتحدة لغزو هائل من عناصر
منحطة لا ترغب في هضمها ولا تقدر على امتصاصها ، وقد دخل الولايات المتحدة
نحو ستة ملايين مهاجر من أدنياء العمال المنتسبين إلى جميع الأصول بين سنة ١٨٨٠
وسنة ١٨٩٠ ، ولا تجد اليوم بين أهالي شيكاغو البالغ عددهم ١١٠٠٠٠٠ شخص
غير الربع من الأمريكيين ، وتشتمل هذه المدينة على ٤٠٠٠٠٠ ألماني و ٢٢٠٠٠٠
إيرلندي و ٥٠٠٠٠ بولوني و ٥٥٠٠ شيكي إلخ ، ولا تبصر أي امتزاج بين هؤلاء
المهاجرين والأمريكيين ، ولا يبالي أولئك المهاجرون بتعلم لغة وطنهم الجديد ، وفي وطنهم
جديد هذا ينشئون مستعمرات بسيطة ذات أعمال زهيدة الأرباح ، وأولئك هم من
الساخطين إذن ، وأولئك هم من الأعداء إذن ، وكاد أولئك يخرقون مدينة
شيكاغو حين إضراب عمال الخطوط الحديدية الكبير ، فقضت الضرورة بضرهم
بالمدافع الرشاشة بلا رحمة ، ومن أولئك وحدهم يجمع أشياح الاشتراكية المسوية
الثقيلة التي قد تحقّق في أوربة المنهوكه والتي هي منافية لخلق الأمريكيين الحقيقيين
منافاة تامة ، وما قد تُسفر عنه هذه الاشتراكية (من المنازعات فوق أرض تلك
الجمهورية العظمى فيكون بالحقيقة منازعات عروقي بلغت من التطور درجات مختلفة .
ومما يلوح واضحاً أن النصر لا يكتب للبرابرة في الحرب الأهلية التي تعدّ بين
أمريكة الأمريكيين وأمريكة الأجانب ، ولا ريب في أن هذه الحرب الضروس
ستنتهي بملحمة تقع بتمقياس واسع على غرار ملحمة مار يوس حين استأصل شأفة السّنبر
استئصالاً كاملاً ، وإذا ما تأخر النزاع قليلاً وإذا ما استمرّ الغزو لم يكن الحلّ إبادة
تامة ، بل يصيب الولايات المتحدة مثل ما أصاب الإمبراطورية الرومانية على
الأرجح ، بل ينفصل بعض ولايات الجمهورية الحاضرة عن بعض فتقوم دول

مستقلة منقسمة متحاربة بلا انقطاع كما يقع في أوربة وفي أمريكا الإسبانية .
 وليست أمريكا وحدها هي المهددة بمثل تلك الغارات ، فقل مثل ذلك عن
 فرنسة أيضاً ، وفرنسة بلد غني لا يزيد عدد سكانه ، وفرنسة محاطة ببلدان فقيرة
 يزيد عدد سكانها باستمرار ، وهجرة هؤلاء الجيران إلينا أمر محتوم ، وهو يزيد حتماً
 كلما أوجبت مطالب عمالنا المتصاعدة تلك الهجرة قضاءً لاحتياجات زراعتنا
 وصناعتنا ، وما يجد هؤلاء المهاجرون فوق أرضنا من الفوائد أمر واضح ، وتتجلى
 هذه الفوائد في عدم خضوعهم لنظامنا العسكري وفي دفعهم قليل ضرائب أو في عدم
 دفعهم ضرائب لأنهم من الغرباء المتهنئين وفي قيامهم بأعمال أسهل مما يقومون به
 في بلادهم وأجراً مما ينالونه في ديارهم ، ولا يقصد أولئك المهاجرون بلادنا
 لغناها العظيم وحده ، بل يقصدونها أيضاً لأن معظم البلدان الأخرى يضع كل
 يوم من التدابير ما يؤدّي إلى دحرهم .

والذي يزيد في خطر غارة الأجانب هو أنها تقوم بحكم الطبيعة على عناصر
 منحلة ، أي على أناس تعدّر عليهم أن يعيشوا في وطنهم الذي يهجرونه ، وإن من
 مقتضيات مبادئ الإنسانية أن يقضى علينا بمعاونة غزو من الأجانب زائد ، وإن
 عدد هؤلاء كان ٤٠٠٠٠٠ شخص منذ أربعين عاماً فعداً اليوم ١٢٠٠٠٠٠ شخص ،
 وترى صفوفهم تتراصف كل يوم أكثر من قبل ، ولولم ننظر إلى غير الطلّانية
 الذين تشتمل عليهم مرسيلية لوجدنا هذه المدينة مستعمرة إيطالية ، وإذا لم تقف
 تلك الغارات فإنه لا يمتضى غير وقت قصير حتى يكون ثلث سكان فرنسة من
 الألمان وثلث آخر من الطليان ، وماذا تكون وحدة أمة وماذا تكون حياة أمة
 تلك هي أحوالها ؟ ألا إن أسوأ المصائب في ميادين القتال أخفّ هؤلاء من مثل

تلك الغارات ، ألا إن من الغرائز الصادقة أن كانت الأمم الغابرة تَخْشَى الأَجَانِبَ ،
 ألا إن هذه الأمم كانت تَعْرِفُ جَيِّدًا أن قيمة البلد لا تُقاسُ بعدد سكانه ،
 بل بالأصليين من أبنائه .

وفما تقدم نرى مسألة العروقِ المحتومة أساساً لجميع المعضلات التاريخية والاجتماعية
 على الدوام ، وتلك المسألة هي التي تهيمن على سواها .

الباب الرابع

كيف تتغير اخلاق العروق النفسية

الفصل الأول

شأن الأفكار في حياة الأمم

المبادئ الموجهة للحضارات قليلة العدد على الدوام — بطوء نشوئها وبطوء زوالها — لا تؤثر المبادئ في السير إلا بعد تحولها إلى مشاعر — تصبح المشاعر إذ ذاك جزءاً من الخلق — الحضارات تكون على شيء من الثبات بسبب بطوء تطور المبادئ — كيف تستقر المبادئ — لا تأثير للمعقول في ذلك — تأثير التوكيد والنفوذ — شأن المؤمنين والرسل — ما يعتور المبادئ من تشويه بهبوطها إلى الجماعات — لا يلبث المبدأ الذي يجمع عليه أن يؤثر في جميع عناصر الحضارة — يكون لأهل كل جيل بفعل وحدة المبادئ إدراكات متوسطة يماثلون بها في أفكارهم وأعمالهم — نير العادة والرأى — لا يخف ذلك النير إلا في أدوار التاريخ الحرجة حيث تخسر المبادئ القديمة نفوذها من غير أن تقوم مبادئ أخرى مقامها — الدور الحرج هو الدور الوحيد الذي يباح فيه الجدل في الآراء — لا تدوم العقائد إلا بعدم الجدل فيها — لا تستطيع الأمم أن تغير مبادئها وعقائدها من غير أن تغير حضارتها .

بعد أن بينّا أن الأخلاق النفسية للعروق ذات ثباتٍ عظيم وأن تاريخ الأمم يُشتق من هذه الأخلاق أوضحنا كيف يمكن العناصر النفسية أن تتحول مع الزمن بتراكات وراثية بطيئة كما تتحول العناصر التشريعية للأنواع ، وعلى مثل هذه التحولات يتوقف تطور الحضارات إلى أبعد حدٍّ .

والعوامل التي تؤدّي إلى إحداث تغيرات نفسية هي متنوعة ، فترى للاحتياجات والمنافسة الحيوية ولبعض البيئات ولتقدم العلوم والفنون والترفيه والمعتقدات وغيرها

عَمَلَهَا ، وقد خَصَصْنَا مُجَلِّدًا وَاحِدًا^(١) لدراسة شأن كل واحد من هذه العوامل فلا نرى تفصيلها هنا ، وإذا ما عُدْنَا إليها في هذا الفصل وفي الفصول الآتية فلنكي نُثَبِّتَ وَجْهَ عَمَلِهَا باختيارنا بعضَ العوامل الجوهرية .

وَتُثَبِّتَ دِرَاسَةَ مَخْتَلَفِ الحضارات التي تعاقبت منذ بدء العالم أن هذه الحضارات مُسَيَّرَةٌ في نشوئها بعدد قليل من المبادئ الأساسية ، ولورَدَ تاريخ الأمم إلى مبادئ هذه الأمم ما بدا طويلاً أبداً ، والحضارة إذا ما وُقِّفَتْ في قرن واحد لإحداث مبدئين أو ثلاثة مبادئ أساسية مُوجَّهَةٌ في ميدان الفنون أو العلوم أو الآداب أو الفلسفة أمكن عَدُّها ذاتَ نصارة استثنائية .

والمبادئ لا تكون ذاتَ عمل حقيقى في روح الأمم إلا إذا هَبَطَتْ بِنُضْجٍ بَطِيءٍ جَدًّا من مناطق الفكر المتحولة إلى المِنَظَقة الثابتة اللاتَنَبُّيَّة للمشاعر حيث تَنَضَّجَ عوامل سَيْرِنا ، وهنالك تغدو تلك المبادئ عناصرَ أخلاقٍ فَتَقْدِرُ على التأثير في السَّيَرِ ، والأخلاقُ تَتَكُونُ من بعض الوجوه من تَنَضُّدِ المبادئ اللاشاعرة .

والمبادئ إذا ما نَضِجَتْ نَضْجًا بَطِيئًا عَظُمَ سُلْطَانُهَا لِمَا لَا يَبْقَى للعقل من سيطرة عليها ، والمؤمنُ الذى يستحوذ عليه مبدأ دينى أو غير دينى لا يُؤَثَّرُ فيه أى معقول هُما كان الذكاء الذى يُفَتَرَضُ له ، وكلُّ ما يمكن أن يحاوله هذا المؤمن ، وهو لا يحاوله فى الغالب ، هو أن يُدْخَلَ بِحِيلٍ فكرية وبتشويهاة كبيرة فى الغالب المبدأ الذى يُعَارِضُ به إلى مِنَظَقة المبادئ المسيطرة عليه .

والمبادئ إذا ثَبَّتَتْ أَنَّهَا لا تكون مؤثرة إلا بعد هبوطها من دوائر الشعور إلى

(١) انظر إلى الجزء الثانى من كتاب « الإنسان والمجتمعات وأصولهما وتاريخهما » ، وقد خَصَصْنَا ذَلِكَ الجزء الثانى للبحث فى تطور المجتمعات .

دوائر الاشعور أدركنا السبب في أنها لا تتحول إلا ببطء كبير وفي أن المبادئ الموجهة للحضارة قليلة العدد إلى الغاية وفي أنها تتطور في زمن طويل ، ولنا أن نهتئ أنفسنا بأن الأمر كذلك ، وإلا لم تسطع الحضارات أن تكون ذات ثبات ، ومن حسن الحظ أيضاً أن المبادئ الجديدة تُنتحل مع الوقت ، ولو كانت المبادئ القديمة ثابتة ثباتاً مطلقاً لم تُحقق الحضارات أى تقدم كان ، ولما عليه تحولاتنا النفسية من بطء وجب انقضاء عدة أجيال ليتم الفوز للمبادئ الجديدة ووجب انقضاء عدة أجيال أيضاً حتى تزول هذه المبادئ ، وأشدُّ الأمم تمدناً هي الأمم التي تجلّت فيها الأفكار الناضجة على مقياس واحد من التحول والثبات ، والتاريخ حافلٌ ببقايا الأمم التي لم تقدر على حفظ هذا التوازن .

وليست كثرة المبادئ وجديتها هما اللتان يقفان النظر عند البحث في تطور الأمم ، بل الذي يقف النظر هو قلة تلك المبادئ المتناهية وبطء تحولاتها والسلطان الذي تراوله ، وتنشأ الحضارات عن بعض المبادئ الأساسية ، وإذا ما أقبلت هذه المبادئ على التغير غدت الحضارات مقضياً عليها بالتحول ، وقد قامت القرون الوسطى على مبدئين رئيسين : المبدأ الدينيّ والمبدأ الإقطاعيّ ، وعن هذين المبدئين صدرت فنون تلك القرون وآدابها وطرّاز نظرها إلى الحياة كلّها ، ثم حلَّ عصر النهضة فطراً على ذينك المبدئين بعضُ التغيير ، فقد فرّض المثلُّ الأعلى للعالم الإغريقيّ اللاتينيّ سلطانه على أوربة ، فلم تُعَمَّ أن صيرت تبصر تحولاً في وجه النظر إلى الحياة وتحولاً في الفنون والفلسفة والآداب ، ثم تزعزع سلطان التقاليد فقامت الحقائق العلمية مقام الحقيقة المنزلة بالتدريج فأخذت الحضارة تتحول مُجدّداً ، واليوم يظهر أن المبادئ الدينية القديمة فقدت شيئاً من سلطانها

فصارت تُلَوِّحُ بواذرُ انهيار النُظُم الاجتماعية التي تستند إليها .

وتاريخُ تكوين المبادئ وسلطانها واضمحلالها وتحولاتها وزوالها لا يمكن أن يتجلى إلا إذا استند إلى عِدَّة أمثلة ، وإذا ما دخلنا دائرة الجزئيات ثبتَ لنا أن كلَّ عنصر من عناصر الحضارة ، من فلسفة ومعتقدات وفنون وآداب إلخ ، خاضعٌ لعدد قليل من المبادئ النازمة التي تتحول ببطء شديد على العموم ، ولا تَشِدُّ العلوم نفسها عن هذه القاعدة ، واليوم يُسْتَقْ جميع علم الفيزياء من مبدأ عدم فناء الطاقة ، ويُسْتَقْ جميع علم الحياة من مبدأ تحول الأنواع ، ويُسْتَقْ علم الطب من مبدأ أصغر ما يكون ، ويُثبت تاريخ هذه المبادئ أنها لم تستقر إلا مقداراً فقداً وبصعوبة مع أنها لم تُوجَّه إلى غير ذوى البصائر ، ولا يتطلب استقرار مبدأ علميٍّ أساسيٍّ أقلَّ من خمس وعشرين سنة في هذا العصر الذي يسير فيه كلُّ شيء بسرعة ، وذلك في نطاقٍ من المباحث التي لا تُؤثِّر فيها الشهوات والمآرب ، ولم يَقتَضِ زمنًا أصغر من هذا استقرارُ أوضح المبادئ العلمية وأسهلها إثباتاً وأقلها احتياجاً إلى الجدَل كبدأ الدورة الدموية .

ويتمُّ انتشار جميع المبادئ على نمطٍ واحد في كلِّ وقت سواء أكان المبدأ علمياً أم فنياً أم فلسفياً أم دينياً أم أيَّ مبدأ آخر ، والمبدأ يجب اعتناقه في بدء الأمر من قِبَل عدد قليل من الرسل الذين ينالون نفوذاً كبيراً بشدَّة إيمانهم أو منزلتهم ، والرسلُ يُؤثِّرون إذ ذاك بالتلقين أكثر مما بالبرهان ، ولا يجب أن يُبحث في قيمة البرهان عن عناصر الإقناع الجوهرية ، والمتكلمُ يفرض أفكاره بنفوذه الشخصي أو بمخاطبته الأهواء ، والمتكلمُ لا يمارس أيَّ نفوذ بمخاطبته العقل وحده ،

والجماعات لا تقنع بالأدلة أبداً ، بل بضروب التوكيد ، ويتوقف سلطان هذا التوكيد على نفوذ الشخص الذى يَصْدُر عنه .

وإذا ما وُفِّقَ الرسلُ لإقناع عدد قليل من الأشياء فكثُرَ عددهم بذلك أخذ المبدأ يدخل مِنطَقةَ الجَدَل ، فَيُثِيرُ المبدأ فى بدء الأمر اعتراضاً عاماً لما يَصْدِرُ منه من أمور كثيرة قديمة مُقَرَّرةً بحكم الضرورة ، ومن الطبعيُّ أن يُثِيرَ هذا الاعتراض مَنْ يدافع عن المبدأ من الرسل فلا يُسْفِر عن غير اقتناع هؤلاء الرسل بأفضليتهم على بقية الناس ، فيناضلون عن المبدأ الجديد بحجاسة ، لا لأن هذا المبدأ صوابٌ ، وهم فى الغالب لا يَعْرِفُونَ عنه شيئاً ، بل لأنهم اعتنقوه فقط ، وهناك يغدو المبدأ الجديد موضعَ مناظرةٍ مُشْتَدَّةٍ ، أى إنه يُنْتَحَلُ بالحقيقة جملةً واحدة من قِبَلِ فريق ويُرْفَضُ جملةً واحدة من قِبَلِ فريق آخر ، وكلا الفريقين يتبادل النفي والتوكيد ، وهما قلما يتبادلان البراهين ، وذلك لأن أسباب قبول المبدأ الواحد أو رفضه تَرْجِعُ لدى مُعْظَمِ الناس إلى المشاعر ، والمشاعرُ لا يُؤَثَّرُ فيها بالمعقول أبداً .

والمبدأ ينمو رويداً رويداً بفعل تلك المجادلات المُحْتَدِّمة على الدوام ، وتميل الناشئة الجديدة التى تَجِدُهُ مُناقِشاً فيه إلى اعتناقه لأنه نُوقِشَ فيه ، والناشئة ، وهى وَلَوْعٌ بالاستقلال فى كلِّ وقت ، تَتَّصِفُ اتصافاً كلياً بمعارضتها دفعةً واحدة للمبادئ التى سار الناس عليها .

والمبدأ يداوم ، إذن ، على النمو ، والمبدأ لا يُعْتَمَدُ أن يَسْتَفْنَى عن أية دِعامَةٍ ، والمبدأ ينتشر إذ ذاك بفعل التقليد من طريق العدوى ، والتقليد هو المَلَكَةُ التى يَتَّصِفُ بها الناس إلى أبعد درجة على العموم كما تتصف بها القِرَدَةُ الكبيرة التى يَذْهَبُ العلم الحديث إلى أنها أجداد الناس .

والمبدأ إذا ما تناوله عاملُ العدوى فأخذ ينتشر دَخَلَ الدورَ المؤدى إلى النجاح بحكم الضرورة ، ولَسُرَّعَان ما يَقْبَلُهُ الرَّأْيُ العام ، وهناك يكتسب قوةً نَفَّاذَةً دقيقةً ينتشر بها في جميع الأدمغة بالتدرّج مُحَدِّثًا جَوًّا خاصًا ، وإن شئتُ قُلْ نَمَطًا عامًّا للتفكير ، وهو ينساب في جميع مدارك أحد الأدوار وجميع إنتاجاته كالغبار الدقيق الذي يَنْفُذُ من الطرق في كلِّ مكان ، وهناك يكون المبدأ ونتائجه جزءًا من الموروثات السكيفة العادية التي تَفْرِضُها التربية علينا ، وبذلك يَتِمُّ النصر للمبدأ ويدخل في مِنطَقة المشاعر فيكون في مَأْمِنٍ من كلِّ اعتداء زمنيًا طويلًا .

ومن مختلف المبادئ التي تُسَيِّرُ إحدى الحضارات ترى ما هو خاصٌّ بالقانون والفلسفة مثلاً فيظلُّ ملازمًا لطبقات الشعب العليا ، ومن تلك المبادئ ما هو خاصٌّ بالأفكار الدينية والسياسية على الخصوص فيَهْبِطُ إلى أعماق الجماعات ، وهو يَصِلُ إلى هنالك مُشَوِّهًا إلى الغاية ، غير أن ما يمارسه إذ ذاك من سلطان على النفوس الساذجة العاجزة عن المناظرة عظيمٌ ، والمبدأ يُمَثِّلُ أمورًا لا تقاوم ، وتنتشر نتائجه بقوة السيل الذي لا سبيل إلى رَدِّه بَسَدٌ ، ومن السهل أن تَجِدَ في الأمة على الدوام مئة ألف رجل مستعدين للتضحية بأنفسهم دفاعًا عن مبدأ إذا ما تَمَكَّنَ هذا المبدأ منهم ، وتظهر عندئذ تلك الحوادثُ العظيمة التي تَقْلِبُ التاريخ والتي لا يَقْدِرُ على إنجازها غيرُ الجماعات ، ولم تَقُمْ بالْمُتَقَفِّينَ والمُتَفَنِّينَ والفلاسفة تلك الديانات التي سادت العالم ، ولا تلك الإمبراطوريات الواسعة التي امتدت من أقصى الدنيا إلى أقصاها ، ولا تلك الثورات الدينية والسياسية التي قلبت أوربة رأسًا على عَقِبٍ ، بل قامت بَأُمَمٍ استحوذ عليهم أحد المبادئ فاستعدُّوا للتضحية بأنفسهم سبيلًا في نشره ، وبتلك البضاعة المَرْجَاةِ نظريًا والقويَّةِ عمليًّا استطاع بدويُّ صحارى جزيرة

العرب أن يفتحوا قسماً من العالم اليوناني الروماني القديم وأن يسيّدوا إمبراطورية من أعظم الإمبراطوريات التي عرّفها التاريخ ، وبمثل تلك البضاعة الأدبية ، وهي هيمنة أحد المبادئ ، استطاع جنود العهد الشجعان أن يقفوا في وجه أوربة المدججة بالسلاح .

والعقيدة القوية تبُلغ من المنعة ما لا تستطيع أن تكافئها معه كفاح المنتصر غير عقيدة مماثلة ، وليس للإيمان عدو يخشاه سوى الإيمان ، والإيمان لا بدّ من انتصاره عندما تكون القوة المادية التي تُصوّب إليه مؤيِّدةً لمشاعر ضعيفة ومعتقدات متداعية ، بيد أن ذلك الإيمان إذا ما قابله إيمان أقوى مثله اشتدّ الصراع وصار الفوز رهينَ أحوال ثانوية ، أدبية في الغالب ، كروح النظام والتفوق في التنظيم ، ونحن إذا ما درّسنا تاريخ العرب عن كُتب ، وقد ألعنا إليه آناً ، وجدنا العرب في فتوحهم الأولى ، والفتوح الأولى هي أصعبُ الفتوح وأهمّها على الدوام ، قد لاَقَوْا أعداءً ضعفاءً إلى الغاية من الناحية الأدبية مع ما كان عليه هؤلاء الأعداء من تنظيم عسكري مُحكم ، وفي سورية التي كانت أولَ بلدٍ حمَلَ العرب إليه سلاحهم لم يجد العرب غير جيوش بيزنطية مؤلفة من مرتزقة قليلي الاستعداد للتضحية بأنفسهم في سبيل قضية ما ، والعرب لما كان يغلب في صدورهم من إيمان تزيد به قوتهم عشرة أمثالها شتّتوا شمل تلك الكتائب العاطلة من مثل عالٍ بسهولة كالتي شتّت بها فيما مضى ليف من الأغارقة الذين كان يُمسِكهم حبُّ المدينة جنودَ سرّخس الكثيرين إلى الغاية ، وكان الصراع ينتهي بغير ذلك لو اصطدم العرب بكتائب رومة قبل ذلك ببضعة قرون .

وإذا كانت القوى الأدبية المتقابلة متماثلة في الشدّة كان الفوز لأحسنهما تنظيماً ،

فما لا ريب فيه أنه كان لأهل قَائِدِهِ إيمانٌ حارٌّ واعتقادٌ متين ، غير أنه كان لدى جنود العهد أيضاً اعتقادٌ قوىٌّ إلى الغاية ، وجنودُ العهد هؤلاء إذ كانوا أحسنَ انتظاماً كُتِبَ النصر لهم .

وفي الدين كما في السياسة يكون النصر دَوِّماً للمؤمنين لا للملحدين ، واليومَ إذا بدا المستقبل للاشتراكيين مع مافي مبادئهم من فسادٍ فلاُنكَ لا ترى في الميدان مؤمنين حقيقيين سواهم ، واليومَ خَسِرَتِ الطبقاتُ القابضةُ على زمامِ الأمور إيمانها بأى شىء كان ، وهى عادت لا تعتقدُ أمراً ، وهى لا تعتقدُ إمكانَ الدفاعِ تجاه طوفان البرابرةِ الْمُتَوَعِّدِ الذى يُحِيطُ بها من كلِّ جانب .

والمبدأ إذا ما اكتسب شكلاً نهائياً بعد دور طويل من التَّحَسُّسِ والتَّعْدِيلِ والتشويهِ والمناقشة والدَّعَايةِ فدخل روح الجماعات غداً عقيدةً ، أى إحدى تلك الحقائق المطلقة التى لا تحتل الجَدَلُ ، والمبدأ يكون إذ ذاك قسماً من تلك المعتقدات العامة التى يقوم عليها كيان الأمم ، وما يكتسبه المبدأ من صفة الشمولِ يوجب تمثله دوراً مهماً ، ولم تكن أدوار التاريخ الكبرى كعصر أغسطس وعصر لويس الرابع عشر إلا تلك الأدوار التى تستقرُّ فيها المبادئ وتهيمن فيها على أفكار الناس بعد خروجها من أدوار التحسس والجَدَلِ ، وهناك تتألف من تلك المبادئ مناوَرُ ساطعةٌ فيصطبغ كلُّ شىءٍ تُنِيرُهُ بِصِبْغَةٍ مِمَّا تَلَّهُ .

والمبدأ الجديد إذا ما تَمَّ له النصر طَبَعَ أدقَّ عناصر الحضارة بطابعه ، والمبدأ الجديد لِكَيْ يُعْطَى جميع نتائجها لا بدَّ له من أن يَنفُذَ روح الجماعات ، والمبدأ يَهْبِطُ مِنَ الذُّرَى الذهنية التى نَبَتَ فيها إلى الطبقة التى تليها فإلى التى ما بعدها مُشَوَّهاً مَعْدَلاً بلا انقطاع إلى أن يكتسب شكلاً يلائم الروح الشعبية التى سَتَنْصُرُهُ ، وهناك يبدو المبدأ

متجمعاً في كلمات قليلة ، وفي كلمة واحدة أحياناً ، مثيراً صوراً قوية مُغرية أو هائلة ، ومن ثمّ مؤثرةً على الدوام ، ومن تلك الكلمات الجنة والنار في القرون الوسطى ، ذاك المقطعان القصيران المحتويان قدرةً سحرية على الإجابة عن كلِّ شيء وعلى تفسير كلِّ شيء عند ذوى النفوس الساذجة ، ومن تلك الكلمات كلمة الاشتراكية التي تُمثّل عند العامل المعاصر إحدى تلك الصّيغ الساحرة الجامعة القادرة على قهر النفوس ، وكلمة الاشتراكية هذه تُثيرُ بحسب الجماعات التي تنفذ فيها صوراً متنوعةً قوية على ما تنطوى عليه من تذبذب وعدم استقرار .

وُثيرُ كلمة الاشتراكية في الفرنسى النظرى صورةَ جَنَّةٍ يصبح الناس متساوين فيها فيَنعمون بسعادة مثالية تحت إشراف الدولة المتصل ، وُثيرُ كلمة الاشتراكية في العامل الألماني صورةَ حانةٍ دَخِنَةٍ تُقدّم فيها الحكومة لكلِّ قادم أهراماً عظيمة من الأمعاء المَحْشُوَّة لحمًا ومن الكُرُنْب المُخَمَّر وما لا يحصىه عدُّ من دنان الجعة مجَّاناً ، ومن المعلوم أن حالم الكُرُنْب هذا أو حالم المساواة ذلك لم يشغل ذهنه بمعرفة المقدار الحقيقي للأشياء التي تُقسَّم ولا بعدد المقتسمين ، فمن خواصَّ المبدأ أن يُفرض على النفوس بقوة مطلقة لا يُؤثّر فيها أى اعتراض .

والمبدأ إذا ما تحوّل إلى مشاعرٍ وغدا عقيدةً دام فوزه زمنًا طويلاً وذهب كلُّ عمل يأتيه العقل في سبيل زعرته أدراج الرياح ، ومما لا مرّاء فيه أن المبدأ الجديد يعانى أيضاً ما عاناه المبدأ الذى حلَّ محله فيَهْرَم ويميل إلى الزوال ، غير أنه لا بدّ من أن يعانى قبل اندثاره التام أدواراً من المَسْخِ والتحريف في عدّة أجيال ، والمبدأ قبل أن يموت بأسره يظلُّ لكبيرٍ وقتٍ جزءاً من المبادئ الموروثة المُسنَّة التي نَصِفها بالأوهام ، ولكن مع الاحترام ، وعلى ما لا يعود به المبدأ القديم

غير كلمة أو صوت أو سراب تراه حائراً لقدرة سحرية يستمر بها على إخضاعنا لحكمه .

وهكذا يبقى تراث ما نرضاه بتقوى من مبادئ قديمة وآراء وعهود فلا يقف أمام أي برهان إذا ما أردنا الجدال فيه مدة ثانية ، ولكن ما هو عدد الرجال القادرين على الجدال في آرائهم الخاصة ؟ ما أقل تلك الآراء التي تظل قائمة بعد بحث سطحي ! والخير في عدم الإقدام على ذلك البحث الخفيف ، ومن حسن الحظ أن كُنَّا غير معرضين له ، وإذا كانت روح النقد ملكة عالية نادرة إلى الغاية وكانت روح التقليد ملكة منتشرة جداً يقبل معظم الأدمغة غير مجادل جميع ما يُسفر عنه الرأي وما تنقله التربية من المبادئ المقررة .

وهكذا ترى للناس في كل جيل وعرق طائفة من الأفكار المتوسطة التي يتشابهون بها تشامهاً عجيباً بفعل الوراثة والتربية والبيئة والعدوى والرأي ، تشامهاً نعرفُ به الدور الذي عاشوا فيه بانتاجهم الفنى والفلسفى والأدبى بعد أن تثقل وطأة القرون عليهم ، أجل ، لا يمكننا أن نقول إن بعضهم كان ينقل من بعض نقلاً مطلقاً ، ولكن الذى كان مشتركاً بينهم هو تماثلهم في طُرُز الإحساس والتفكير تماثلاً يؤدي إلى إنتاجات متقاربة إلى الغاية بحكم الضرورة .

ولنا أن نفرح بذلك ، وذلك لأن روح الأمة تتألف من شبكة التقاليد والمبادئ والمشاغل والمعتقدات وطُرُز التفكير ، وقد أبصرنا أن متانة هذه الروح تكون بنسبة قوة تلك الشبكة ، وتلك الشبكة وحدها بالحققة ، ووحدها فقط ، هي التي تمسك الأمم ، وتلك الشبكة لا تنفك من غير أن يؤدي ذلك إلى انحلال هذه الأمم في الحال ، وتلك الشبكة هي قوة الأمة الحقيقية وهي مولاهما الحقيقي ،

ومما يُعْرَضُ في بعض الأحيان كونُ الملوك الآسيويين طُغَاءً أدلاؤهم أهواؤهم ،
وهذه الأهواء في الشرق هي بالعكس محصورةٌ ضمنَ حدود ضيقةٍ ضيقاً عجيباً ، وفي
الشرق ترى شبكة التقاليد أقوى مما في أيِّ بلد آخر ، وفي الشرق تُبَصِّرُ أن
المعتقدات الدينية المزعزعة كثيراً عندنا محافظةٌ على سلطانها ، وفي الشرق تجدُ
أشدَّ المستبدِّين جبروتاً لا يصدِّم التقاليد والرأى لما يَعْرِفُه فيهما من قوةٍ أشدَّ
من قوته .

والرجلُ المتمدن العصريُّ الحديث يجدُ نفسه في دور من أدوار التاريخ النادرة
الخطرة التي يَخْشَرُ فيها سلطانه ما هو أصلُ حضارته من المبادئ القديمة ، وذلك
من غير أن تتكون فيه مبادئ جديدةٌ ، فَيُباح الجدلُ فيه لهذا السبب ، ولا بدَّ
من رجوع الباحث إلى أدوار الحضارات القديمة ، أو الرجوع إلى الوراء قرنين أو
ثلاثة قرون ليتبين ماذا كان نيرُ العادة والرأى ولْيَعْرِف الثمن الذي كان على
المُبدِّع الجريء أن يُؤدِّيَه إذا ما هاجم هاتين القوتين ، وكان الأغرقة ، الذين
يعدُّهم بعضُ الجهلاء المُتفَيِّهين من الأحرار ، خاضعين لِنيرِ الرأى والعادة خضوعاً
وثيقاً ، وكان كلُّ إغريقٍ محاطاً بسور من المعتقدات التي لا تمسُّ أبداً ، وكان كلُّ
إغريقٍ لا يفكر في الجدل حول الأفكار المُقرَّرة فيعانيها غيرُ نائر ، ولم يَعْرِف
العالم الإغريقُ الحرية الدينية ولا حرية الحياة الخاصة ولا أيَّ نوع من أنواع
الحرية ، حتى إن القانون الأثني لم يكن يسمح لابن الوطن بأن يعيش بعيداً من
المجالس أو بالألَّا يحتفل بأىِّ عيد قوميٍّ احتفالاً دينياً ، وما كانت حرية العالم القديم
المرعومة إلا وجهاً تاماً غير شعوريٍّ لانتقاد ابن الوطن لمبادئ المدينة ، وما كان
لجتمعٍ يتمتع أفرادُه بحرية الفكر والسير أن يدوم يوماً واحداً في حال نزاع عامَّة كالتي

كانت تعيش فيها تلك الأمم ، وفي كلِّ زمنٍ تُبْصِرُ أن ابتداء عصر انحطاط الآلهة والنظم والعقائد هو اليوم الذى تَحْتَمِلُ الجِدالَ فيه .

وفي الحضارات الحديثة ، حيث تَجِدُ المبادئ القديمة التى كانت أساساً للعادة والرأى قد تَهَدَّمت تقريباً ، تُبْصِرُ سلطانها على النفوس قد أصبح ضعيفاً إلى الغاية ، وهذه المبادئ انتهت إلى دور من البلى ما تَعْدُو به من الأوهام ، وتظلُّ الفوضى سائدةً للنفوس مالم يَحِلَّ مبدأً جديداً محلَّ تلك المبادئ ، ولهذا الفوضى وحدها يُسْمَحُ بالجدل ، وما على الكتّاب والمفكرين والفلاسفة إلا أن يشكروا للدور الحاضر وأن يُسْرِعُوا إلى الاستفادة منه ، لأنهم لن يَرَوْا عودته ثانيةً ، نعم ، إنه دور انحطاط على ما يحتمل ، ولكنه من أزمنة التاريخ النادرة التى يكون التعبير عن الأفكار حراً فيها ، ولا يدوم ذلك الدور طويلاً ، فأحوال الحضارة الحديثة تسوق الأمم الأوربية إلى حال اجتماعية لا تحتمل الجدل ولا الحرية ، والحقُّ أن العقائد الجديدة التى يلوح ظهورها لا تستقرُّ إلا بعدم قبولها أى نوع من أنواع الجدل وبلوغها من عدم التسامح ما بلغتته العقائد التى سَبَقَتْها .

ولا يزال الرجل المعاصر يبحث عن المبادئ التى تَصْلُحُ أساساً للحالة الاجتماعية القادمة ، وهناك الخطر الذى يَحِيقُ بها ، وبيانُ الأمر أن تحولاتِ المبادئ الأساسية هى العناصرُ المهمة فى تاريخ الأمم والقادرة على تغيير مصيرها ، لا الثورات والحروب التى يَمَحِى ما تُوْدَى إليه من تخريب بسرعة ، وتلك التحولات لا تَبْقى من غير أن يُوْدَى ذلك إلى تحوُّل جميع عناصر الحضارة دفعةً واحدة ، فالثورات الحقيقية ، وهى أخطر الثورات على حياة الأمة ، هى التى تَحْدُثُ فى أفكارها .

وليس انتحالُ أمةٍ لمبدأ حديث خَطِراً بذاته ، بل الخطرُ فيما تقوم به الأمة من

تجربةً لمبادئ متعاقبة قبل أن تجد منها ما تستطيع أن تُقيم عليه بناءً اجتماعياً جديداً يقوم مقام البناء الاجتماعي القديم ، وليس خطأ المبدأ هو الذي يجعله خطراً ، وقد رأينا أن المبادئ الدينية التي عشنا عليها حتى الآن خاطئة إلى الغاية ، بل لأنه لا بد من القيام بتجارب تُكرَّر لطويل زمنٍ حتى تُعرف ملاءمة المبادئ الحديثة لاحتياجات المجتمعات التي تعتقها ، ولا يُقدَّر مدى نفع هذه المبادئ للجماعات إلا بالتجربة ، نعم ، لا احتياج إلى أن يكون الباحث عالماً نفسياً كبيراً أو عالماً اقتصادياً عظيماً حتى يُخبرنا بأن تطبيق المبادئ الاشتراكية الحاضرة يسوق الأمم التي تقول بها إلى انحطاط حقير واستبداد مرير ، ولكن كيف تمنع الجماعات التي تستهويها تلك المبادئ من اعتناق الإنجيل الجديد الذي بُشِّرَ به ؟

ويدلُّنا التاريخ كثيراً على ما تُكلفه من ثمنٍ تجربة المبادئ غير الملائمة لأحد الأدوار ، ولكن الإنسان لا يستنبط دروسه من التاريخ ، ومن العبث أن حاول شارلمان تجديد الإمبراطورية الرومانية ، فقد كان تحقيق مبدأ الوحدة متعذراً في ذلك الحين ، فمات عمله بموته كما مات عمل نابليون ، ومن العبث أن استنفد فيليب الثاني عبقريته وسلطان إسبانية ذات الصَّولة إذ ذاك في مكاتبة روح البحث الحر التي كانت تنتشر في أوربة باسم البروتستانتية ، ولم تُسفر مساعيه كلها في مناهضة المبدأ الجديد عن سوى إلقاء إسبانية في حال من الخراب والانحطاط لم تنهض منها قط ، وفي فرنسا أدت مبادئ متهوسٍ مُتَوَجِّعٍ مُشْبَعٍ من شعور أمته الدَّولى المصنوع الفاسد المستعصى إلى تسهيل الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية فكلفنا ذلك ولايتين كما كلفنا السَّلم إلى أمدٍ طويل ، وفي أوربة أوجب المبدأ القائل بأن القوة في العدد

سَتَرَهَا بِجُنُودٍ مُدْجَجِينَ بِالسَّلاحِ وَسَوَّقَهَا إِلَى إِفْلَاسٍ مَحْتَمٍ ، وَسَتَأْتِي مَبَادِيُ
الْإِشْتِرَاقِيَّينَ فِي الْعَمَلِ وَرَأْسِ الْمَالِ وَجَعَلَ الْمُلُوكَ الْخَاصُّ مُلُوكًا لِلدَّوْلَةِ إِخْلَاحًا ، عَلَى
الْأُمَمِ الَّتِي كَانَتْ تَحْفَظُهَا الْجِيُوشُ الضَّرُورِيَّةُ الدَّائِمَةُ ..

وَيُمْكِنُ ذِكْرُ مَبْدَأِ الْقَوْمِيَّاتِ أَيْضًا بَيْنَ الْمَبَادِيِ الْمَوْجَّهَةِ الَّتِي يَجِبُ الْخُضُوعُ
لِنَفْوذِهَا الْخَطِرُ ، وَسَوْفَ يَسُوقُ تَحْقِيقُهُ أَوْرَبَةً إِلَى أَشَدِّ الْحُرُوبِ ضَرَرًا وَسَوْفَ يَجْرُ
بِالْتَّبَاعِ كَثِيرًا مِنَ الدُّوَلِ الْحَدِيثَةِ إِلَى الْخَرَابِ وَالْفَوْضَى .

وَلَكِنْ لَمْ يُعْطَ الرِّجَالُ قُدْرَةً عَلَى وَقْفِ سَيْرِ الْمَبَادِيِ إِذَا مَا نَفَذَتْ فِي النُّفُوسِ ،
وَهُنَاكَ يَجِبُ أَنْ يَتِمَّ تَطَوُّرُهَا ، وَيَبْدُو الْمُدَافِعُونَ عَنْهَا فِي الْغَالِبِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
يَكُونُونَ ضَحَايَاهَا الْأَوَّلَى ، وَلَيْسَتْ الْغَنَمُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَتَّبِعُ دَلِيلَهَا طَائِعَةً إِلَى
الْمَسْلَخِ ، فَلَمَّا كَمَعَ أَمَامَ سُلْطَانِ الْمَبْدَأِ ، وَالْمَبْدَأُ إِذَا مَا بَلَغَ دَوْرًا مِنْ تَطَوُّرِهِ لَمْ يُوجَدْ
بِرْهَانٌ وَلَا بَيَانٌ يَتَغَلَّبُ عَلَيْهِ ، وَالْأُمَمُ لَكِي تَتَخَلَّصَ مِنْ رِبْقَةِ أَحَدِ الْمَبَادِيِ تَسْتَلْزِمُ
قُرُونًا كَثِيرَةً أَوْ ثَوَرَاتٍ عَنِيفَةً ، أَوْ كِلَيْهِمَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، وَلَا شَيْءَ أَكْثَرَ مِنْ
الْأَوْهَامِ الَّتِي ابْتَدَعَتْهَا الْبَشَرِيَّةُ فَذَهَبَتْ ضَحِيَّتُهَا بِالتَّبَاعِ .

الفصل الثاني

شأن المعتقدات الدينية في تطور الحضارات

تأثير المبادئ الدينية العظمى — يتألف من هذه المبادئ أهم عنصر في حياة الأمم — يشتق معظم الحوادث التاريخية ، كالنظم السياسية والاجتماعية ، من مبادئ دينية — بولدمع كل مبدأ ديني جديد حضارة جديدة على الدوام — قوة المثل الديني الأعلى — تأثيره في الأخلاق — هو يوجه جميع الملكات نحو غرض واحد — تاريخ الأمم السياسي والفني والأدبي هو وليد معتقداتها — يؤدي أقل تغير في حال معتقدات الأمة إلى سلسلة من التحولات في كيانها — أمثلة مختلفة .

مثلت المبادئ الدينية شأنًا أساسيًا عظيمًا بين مختلف المبادئ التي تُسير الأمم ، والتي هي مناور للتاريخ وقطوب للحضارة ، فترانا نقردها فصلًا خاصًا .

وتكوّن من المعتقدات الدينية في كل وقت أهم عنصر في حياة الأمم ، ومن ثمّ في تاريخها ، وكان ظهور الآلهة وموتها أعظم الحوادث التاريخية ، وتولّد مع كل مبدأ ديني جديد حضارة جديدة ، وما انفكت المسائل الدينية تكون من المسائل الأساسية في قديم الأجيال وحديثها ، ولو حدث أن أضاعت البشرية ألفتها لكان مثل هذا الحادث في نتائجه أهم الحوادث التي تمتّ على وجه الأرض منذ فجر الحضارات الأولى .

ولا يغيب عن البال أن جميع النظم السياسية والاجتماعية منذ بدء الأزمنة التاريخية قامت على معتقدات دينية وأن الآلهة مثّلت الدور الأول على مسرح

العالم في كل زمن ، وإذا عَدَوْتَ الحبَّ ، الذي هو دينٌ قوىٌ أيضاً ولكنه شخصيٌ موقت ، وجدتَ المعتقداتِ الدينية وحدها تؤثرُ في الأخلاق تأثيراً سريعاً ، ولك أن تتبين حال أمة نَوَمَتِها أوهامُها من خلال فتوح العرب والحروب الصليبية وإسبانية في زمن محاكم التفتيش وإنكلترا في الدور اليُورِيتاني وفرنسة في ملحمة سان بارتمى وحروب الثورة الفرنسية ، وللأوهام تأثيرٌ دائمٌ يَبْلُغُ من الشدَّةِ ما يتحول به كلُّ مزاجٍ نفسيٍّ تحولاً عميقاً ، ولا مِرَاءَ في أن الإنسان هو الذي يَخْلُقُ آلهته ، ولكنه إذا ما خَلَقَهَا استعبده من قُوْرِهِ ، وليست الآلهة وليدة الخوف كما زعم لوكريس ، بل هي وليدة الأمل ، ولذلك تبقى ذات نفوذ أبدي .
والذي أَنْعَمَتِ الآلهةُ به على الإنسان حتى الآن ، والآلهة وحدها هي التي استطاعت أن تُنْعِمَ به ، هو الحالُ النفسية التي تنطوى على السعادة ، ولا تَجِدُ فلسفة استطاعت أن تُحَقِّقَ مثل هذا العمل .

والنتيجةُ ، إن لم تكن الغايةُ ، لكلِّ حضارةٍ ولكلِّ فلسفةٍ ولكلِّ ديانةٍ هي إحداثُ بعض الأحوال النفسية ، ومن هذه الأحوال ما يتضمن السعادة ومنها مالا يتضمنها ، وتتوقف سعادتنا على أحوال خارجية لا ريب ، ولكنها تَرْجِعُ إلى حالتنا الروحية على الخصوص ، فمن المحتمل أن كان الشهداء يعتقدون وهم على المواقد أنهم أكثرُ سعادةً من جلاذيتهم ، ومن المحتمل أن كان مُرَمِّمُ الطُّرُق وهو يَقْضِمُ كِسْرَةَ الخبزِ المفروكةِ بالثوم أشدَّ قناعةً بمراحل من صاحب الملايين الذي تساوره الهموم .

ومن دواعي الأسف أن كان تطور الحضارات يُحْدِثُ في الإنسان الحاضر طائفةً من الاحتياجات من غير أن يُمْنَّ عليه بوسائل قضائها فيوجب بذلك سُخْطاً عاماً في النفوس ، أَجَلْ ، إن التطور أصل التقدم ، ولكنه أصل الاشتراكية والفوضى

أيضاً ، أى أصلُ ذينك التعبيرين المرهوبين اللذين يَنَمَّان على قُنُوطِ جماعاتٍ لا تَسْتَنِد إلى معتقد ، قابِلوا بين الأوربيِّ القَلِقِ الهائجِ الساخط على حظِّه والشرقيِّ الراضى بمصيره تَرَوَا أنهما يختلفان في حالهما الروحية ، والأمةُ تتحول إذا ما تحول طِرَازُ تصورِها ومن ثَمَّ تفكيرُها وسيَرُها .

وأولُ ما يجب أن يَبْحَث عنه المجتمع هو إيجادُ حالٍ نفسية تجعل الإنسان سعيداً ، وإن لم يفعل المجتمع ذلك لم يُكْتَبْ له طويلُ بقاء ، وقد استندت جميع المجتمعات التي قامت حتى الآن إلى مَثَلٍ عالٍ قادر على إخضاع النفوس ، وهذه المجتمعات قد اضمحلت بعد أن عاد ذلك المَثَلُ الأعلى لا يُخْضِعُها .

ومن أكبر أغاليط العصر الحاضر أن يُعْتَقَد وجود السعادة في الأمور الخارجية وحدها ، فالسعادة تُقيم بنا ، وهى مما نُوْجِدُه ، وهى لا تكون خارجةً عنا تقريباً ، ونحن بعد أن حَطَمْنَا مَثَلُ الأجيال القديمة العليا نُنبِصر اليومَ صعوبةَ العيش بدونها ، ويجب أن نَجِدَ سِرَّ استبدال غيرها بها خَشْيَةَ الزوال .

والمحسنون الحقيقيون لبنى الإنسان ، وهم الذين يستحقون أن تقيم لهم الأممُ الشاكرةُ تماثيلَ فَخْمَةٍ من الذهب ، هم أولئك السَّحَرَةُ الأقوياء المُبْدِعُونَ للمُثَلِّ العليا الذين تُنْجِب بهم البشرية أحياناً ولكن نادراً ، هم أولئك الذين يُحْدِثُونَ فوق سَيَلِ الظواهر الباطلة ، وهى كلُّ ما نَقْدِرُ على معرفته من الحقائق ، وفوق دُولَابِ الدنيا المُسَنَّ الصُّلْبِ الجامد ، أوهاماً قويةً مُهْدَّتةً مُخْفِيَةً عن الإنسان ما فى مصيره من نواحٍ قائمة ، هم أولئك الذين يقيمون للإنسان منازلَ عامرةً بالأمال والأحلام .

ونحن إذا ما نظرنا إلى الأمر من الناحية السياسية وحدها وجدنا تأثير المعتقدات الدينية عظيماً أيضاً ، وتقوم قوة المعتقدات التي لا تقاوم على أنها العاملُ الوحيد الذى

يستطيع أن يُنعم على الأمة بوحدة مطلقة من المنافع والمشارع والأفكار حيناً من الزمن ، وهكذا تقوم الروح الدينية دفعةً واحدةً مقام تلك التراكمات البطيئة الموروثة الضرورية لتكوين روح الأمة ، أجل ، إن الأمة التي يهيمن عليها المعتقد لا تغيّر مزاجها النفسى ، غير أن جميع ملكاتها تتوجه بذلك إلى غرض واحد ، تتوجه إلى نصر معتقدها ، فتصبح قوتها هائلةً لهذا السبب ، وفي أدوار الإيمان التي تتحول ذات حين تقوم الأمم بتلك الجهود العجيبة ، تقوم بشيّد الدول التي تُدهش التاريخ ، ومن ذلك أن بعض القبائل العربية التي اتحدت بفعل فكرة محمد قهرت في قليل سنواتٍ أمّا كانت لا تعرف منها حتى الأسماء فأقامت إمبراطورية واسعة .

ودرجة سيطرة المعتقدات على النفوس ، لاصقتها ، هي التي يجب أن يُلتفت إليها ، ولا فرق في ذلك بين دعوتك مُولك أو آىٍ إليه آخر أشدّ قسوةً ، ويقوم نفوذ الإله على عدم تسامحه وعلى غلظته في بعض الأحيان ، ولا تمنُّ الآلهة الكثيرة التسامح والحلم على عبادها بالقوة ، وقديماً ساد أتباعُ محمد الصارم قسماً كبيراً من العالم لطويل زمن ، ولا يزال هؤلاء الأتباعُ مرهوين ، وأما أتباع بُدْهَة (بوذا) المهادى فلم يؤسسوا ما هو باقٍ فنسيهم التاريخ .

إذن ، مثّلت الروح الدينية دوراً سياسياً مهماً في حياة الأمم ، وذلك لأنها كانت العامل الوحيد القادر دوماً على التأثير في أخلاقها بسرعة ، ومما لا شك فيه أن الآلهة ليست خالدة ، غير أن الروح الدينية باقية ، والروح الدينية ، وإن كانت تغفُو لحين ، تصاحو عند ابتداء ألوهية جديدة ، والروح الدينية هي التي استطاعت أن تحف بها فرنسة منذ قرنٍ ظافرةً أمام أوربة المدججة بالسلاح ، والعالم بذلك قد رأى مرةً أخرى ماذا تقدّر عليه الروح الدينية ، وذلك لأن ديناً جديداً كان يقوم آنئذ

ناخفاً من روحه في أمة بأسرها ، نَعَمْ ، إن الآلهة التي بَرَزَتْ كانت من سرعة العَطَب ما لا تدوم معه ، ولكنها كانت ذات سلطان مطلق مدة وجودها .

على أن مافي الأديان من قدرة على تحويل النفوس هو مُوقَّتٌ ، ومن النادر أن تدوم المعتقدات زمناً كافياً فتَبْلُغَ درجة من الاشتداد ما تتحول به الأخلاق تحولاً تاماً ، فالْحُمْ لا يلبث أن يَدْوِي ، والمُنُوم لا يلبث أن يَصْحُو قليلاً ، فيَبْدُو أساس الأخلاق القديم مرةً أخرى .

ومع ما تكون عليه المعتقدات من قدرة عظيمة تلوح الأخلاق القومية دوماً من خلال النَمَط الذي تُنْتَحَل به هذه المعتقدات ومن خلال المظاهر التي تُؤَدِّي إليها ، وانظروا إلى المعتقد الواحد في إنكلترة وإسبانية وفرنسة تَجِدُوا الفروق عظيمة جداً ! وهل كان الإصلاح الديني ممكناً في إسبانية ؟ وهل كانت إنكلترة تَخْضَع لنيروحاكم التفتيش الهائل ؟ أفلا تُرَى بسهولة لدى الأمم التي انتحلت الإصلاح الديني أخلاق العروق الأساسية التي حافظت بالرغم من تنويم المعتقدات على صفات مزاجها النفسي الخاصة كالاستقلال والإقدام وعادة التعقل وعدم الخنوع لسيد ؟

ولا مرأى في أن تاريخ الأمم السياسي والفني والأدبي وليدُ معتقداتها ، بيد أن المعتقدات مع تأثيرها في الأخلاق تَتَأَثَّرُ بالأخلاق تأثراً عظيماً ، وإذا سألت عن أخلاق الأمة ومعتقداتها وجدتهما مفاتيح مصيرها ، والأخلاق إما كان من عدم تَغْيَرُها في عناصرها الأساسية ، ومن عدم تَغْيَرُها وحده ، تَجِدُ التاريخ محافظاً على شيء من الوحدة على الدوام ، والمعتقدات إما كان من تَغْيَرُها ، ومن تَغْيَرُها وحده ، تَجِدُ التاريخ حافلاً بالانقلابات .

وأقلُّ تَغْيَرٍ في معتقدات الأمة يُؤَدِّي إلى سلسلة من التطورات في حياتها بحكم

الضرورة ، ومما رأيناه في غُصُون فصل سابق أن رجال القرن الثامن عشر بفرنسة كانوا يَبْدُون مختلفين عن رجال القرن السابع عشر ، وما هو مصدر هذا الاختلاف ؟ تَجِدُ مصدره في انتقال النفس من اللاهوت إلى العلم بين قرن وقرن ، وفي معارضة التقاليد بالعقل ومعارضة الحقيقة المُنَزَّلة بالحقيقة المُشَاهَدة ، وفي تحول منظر العصر في النظر إلى الأمور بسبب هذا التغير ، ونحن إذا ما درسنا نتائج هذا التَّغْيِيرُ أبصرنا أن ثورتنا الفرنسية الكبرى وما أسفرت عنه ، وما لا تزال تُسْفِرُ عنه ، من الحوادث هما نتيجةٌ تطوُّر للمبادئ الدينية .

واليومَ إذا كان المجتمع المُسِنُّ يَرْتَجُّ فوق أُسُسِهِ وكانت جميع نُظُمِهِ تَرْتَجِفُ ارتجافاً عميقاً فالأنه يَخْسِرُ بالتدريج ما قام عليه حتى الآن من المعتقدات القديمة ، وهو إذا ما تَمَّ فَقْدُهُ لهذه المعتقدات حَلَّتْ محلَّ حضارةٍ جديدةٍ قائمة على إيمان جديد بحكم الضرورة ، ومما يدل عليه التاريخ أن الأمم لا تعيش طويلاً بعد توارى آلهتها وأن الحضارات التي قامت بفعل هذه الآلهة تموت معها ، فلا شيء أشدَّ تخريباً من عَفْرِ الآلهة المَيِّتَةِ .

الفصل الثالث

شأن عظماء الرجال في تاريخ الأمم

ما تسفر عنه كل حضارة من تقدم كبير هو وليد صفوة قليلة من ذوى النفوس العالية على الدوام — طبيعة شأن هؤلاء — إنهم جماع مجهودات العرق كلها — أمثلة مقتبسة من الاكتشافات العظيمة — شأن عظماء الرجال السياسى — هم عنوان مثل عرقهم الأعلى — نفوذ كبار المتهوسين — يحول المحترعون من ذوى العبقرية الحضارة — التاريخ من صنع المتعصبين والمتهوسين .

عند ما بحثنا فى مراتب العروق وتفاوتها رأينا أن أعظم فارق بين الأوربيين والشرقيين هو ما لدى الأوربيين من صفوة رجال عالية ، ولئن حاول أن نبين فى بعض السطور حدود شأن هذه الصفوة .

يتألف من كتبية أفضل الرجال الصغيرة التى تشتمل عليها الأمة المتمدنة ، والتى تكفى إزالتها فى كل جيل لخفض مستوى هذه الأمة خفضاً عظيماً ، تجسّد قوى العرق ، وإلى تلك الكتبية يرجع الفضل فيما يتم من التقدم للعلوم والفنون والصناعة ، أى لجميع فروع الحضارة .

ويثبت التاريخ أن كل تقدم مدين لتلك الصفوة القليلة العدد ، والجماعة مع استفادتها من ذلك التقدم لا تحب أن يجاوز مستواها أبداً ، والجماعة هى التى كانت ضحاياها من عطاء المفكرين والمخترعين فى الغالب ، ومع ذلك ترى أن ازدهار جميع الأجيال وجميع ماضى العرق وقع بفعل تلك العبقرية الرائعة التى هى أزهار مجيبة لهما ، ومن أصحاب العبقرية يتكون مجد الأمة الحقيقى . ولكل فرد مهما كان

وضيعاً أن يباهى بهم ، ولا يظهر ذوو العبقريّة اتفاقاً ولا بمعجزة ، بل يُمثّلون تاج ماضٍ طويل ، وهم خلاصة عظمة عصرهم وعِرْقهم ، وكلُّ مساعدةٍ على تفتّحهم وارتقائهم تُعني مساعدةً على التّقدم الذي ينتفع به جميع البشر ، وإذا ما تركنا أحلام المساواة العامّة تُعْمي بصائرنا كنّا أولَ ضحايا هذه المساواة ، والمساواة لا تكون إلا في الانحطاط ، والمساواة حُلُمٌ ذوى المدارك الهزيلة الغامض الثقيل ، والمساواة لم تتحقّق في غير عصور الهمجية ، ويجب ، لكي تسود المساواة العالم ، أن يُخفّض بالتدريج كلّ ما فيه قيمة أحد العروق إلى أدنى مستوى في هذا العِرْق .

ولكن شأن ذوى النفوس العالية من الرجال إذا كان عاملاً عظيماً في تقدّم الحضارة ليس كما يقال عنه على العموم مع ذلك ، فتأثيرهم يقوم ، كما ذكرت ، على كونهم خلاصة مجهودات العِرْق ، وترى اكتشافاتهم على الدوام نتيجة سلسلة طويلة من الاكتشافات السابقة ، وتراهم يشيّدون بناءً من حجارة نَحَبَها غيرهم رويداً رويداً ، وقد اعتقد المؤرخون ، والمؤرخون مُبَسِّطُونَ إلى الغاية إجمالاً ، أنهم قادرون على قرْن كلِّ اختراع باسم رجل ، مع أن كلّ واحد من الاختراعات العظيمة التي حَوَّلَت الدنيا ، كالطباعة والبارود والبخار والكهرباء ، ليس وليد دماغ واحد ، ونحن حين ندرُس تكوين مثل هذه الاكتشافات نُبْصِرُ أنها نشأت دوّماً عن سلسلة طويلة من الجهود التحضيرية ، والحقُّ أن الاختراع النهائي ليس إلا تنويجاً لما تقدّمه ، ومن ذلك أن ملاحظة غيلو لِتَسَاوَى المدة في تَمَوُّجات المصباح المُعلّق مَهَّدَ السبيل لاختراع مقياس الزمان الدقيق (كَرُونُومِتر) الذي أسفر لدى المَلّاح عن إمكان اهتدائه إلى طريقه في البحر المحيط ، ومن ذلك أن نشأ بارود المدفع عن تحوّل النار اليونانية بالتدريج ، ومن ذلك أن الآلة البخارية تُمثّل مجموعة اكتشافاتٍ

تَطَلَّبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَعْمَالًا عَظِيمَةً ، وَمَا كَانَ لِيُونَانِيٍّ مُتَّصِفٍ بِعَبْقَرِيَّةٍ تَقُوقُ
عَبْقَرِيَّةَ أَرخَمِيدِسَ مِثْلَ مَرَّةٍ أَنْ يَكْتَشِفَ الْقَاطِرَةَ لِمَا لَا يَكُونُ لَدَيْهِ مَا يَسَاعِدُهُ عَلَى تَمَثُّلِهَا ،
وَهُوَ لَكِي يَنْتَهَى إِلَى صَنْعِهَا لِأَبَدِّ لَهْ مِنْ أَنْ يَنْتَظِرَ تَحْقِيقَ الْمِيكَانِيكَاءِ لِمُبْتَكِرَاتٍ تَقْتَضِي
جُهُودَ أَلْفِي سَنَةٍ .

وَلَيْسَ شَأْنُ أَعَاضِمِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ السِّيَاسِيَّةِ أَقَلَّ كَثِيرًا مِنْ شَأْنِ أَكْبَرِ الْمُخْتَرِعِينَ فِي
اسْتِقْلَالِهِ الظَّاهِرِ عَنِ الْمَاضِي ، وَقَدْ أَغْشَى مَالْمُحَرَّرِ كِي الْجَمَاعَاتِ الْأَقْوِيَاءِ الَّذِينَ
يُحَوِّلُونَ كَيْفَانَ الْأُمَمِ السِّيَاسِيَّةِ مِنْ سَنَاءٍ صَارِخٍ أَبْصَارَ بَعْضِ الْكُتَّابِ كَكُوسَانَ
وَكَارْتَلِيلَ وَغَيْرِهِمَا ، فَأَرَادَ هَؤُلَاءِ أَنْ يَجْعَلُوا مِنْ أُولَئِكَ أَنْصَافَ آلِهَةٍ تُغَيِّرُ بِعَبْقَرِيَّتِهَا
مَصِيرَ الْأُمَمِ ، وَمِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّهُ يُمْكِنُ أُولَئِكَ أَنْ يُكَدِّرُوا صَفْوَةَ تَطَوُّرِ أَحَدِ الْمُجْتَمِعَاتِ ،
غَيْرِ أَنَّهُمْ لَمْ يُعْطُوا قُدْرَةً عَلَى تَغْيِيرِ مَجْرَاهُ ، وَمَا كَانَ كَرُومُويلُ أَوْ نَابَلْيُونُ لِيَسْتَطِيعَ
بِعَبْقَرِيَّتِهِ أَنْ يَقُومَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْعَمَلِ ، وَمَا كَانَ نَفُوذَ أَعَاضِمِ رِجَالِ السِّيَاسَةِ لِيَدُومَ إِلَّا
عِنْدَ مَا يَغْرِفُونَ كَقِيصَرٍ وَرِيشْلِيُو أَنْ يُوجِّهُوا جُهُودَهُمْ إِلَى مَا يَلْتَمِسُ مَقْتَضِيَّاتِ الْوَقْتِ ،
وَمَا كَانَ سَبَبُ فَوْزِهِمُ الْحَقِيقِيِّ إِلَّا سَابِقًا لَهُمْ عَلَى الْعُمُومِ ، وَلَوْ ظَهَرَ قِيصَرٌ قَبْلَ زَمَانِهِ
بِقَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يُخْضَعَ الْجُمْهُورِيَّةُ الرُّومَانِيَّةُ لِحُكْمِ سَيِّدٍ وَاحِدٍ ،
وَلَوْ ظَهَرَ رِيشْلِيُو قَبْلَ زَمَانِهِ بِقَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ لَعَجَزَ عَنْ تَحْقِيقِ الْوَحْدَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ ،
وَفِي مِيدَانِ السِّيَاسَةِ يُبْصِرُ رِجَالُ السِّيَاسَةِ الْحَقِيقِيُّونَ مَا سَيُؤَلِّدُ مِنْ اِحْتِيَاجَاتٍ وَمَا
أَعَدَّهُ الْمَاضِي مِنَ الْخَوَاصِثِ فِيَهْدُونَ إِلَى الطَّرِيقِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُسَلَّكَ ، وَمِنْ الْمَحْتَمَلِ
أَنْ كَانَ النَّاسُ لَا يَرَوْنَ تِلْكَ الطَّرِيقَ ، يَبْدُو أَنْ مَقَادِيرَ التَّطَوُّرِ قَضَتْ بِحَقْفَرِ الْأُمَمِ
إِلَى مَصَائِرِهَا الَّتِي تَوَلَّى أُولَئِكَ الْعَبَاقِرَةُ أَمْرَهَا حِينًا مِنَ الزَّمَنِ ، وَأُولَئِكَ الْعَبَاقِرَةُ هُمْ ،
كَأَكْبَرِ الْمُخْتَرِعِينَ ، جَمَاعٌ نَتَاجُ عَمَلٍ سَابِقٍ طَوِيلٍ .

ومع ذلك يجب ألاَّ يذهب إلى ما هو أبعد مما تقدّم في تلك المقاييس بين صنوف
 عظماء الرجال ، فالحترعون ، وإن كانوا يُمثّلون دوراً مهماً في تطور الحضارة المقبل ،
 لا يُمثّلون أىَّ دورٍ مباشرٍ في تاريخ الأمم السياسى ، ولم يكن لدى أكبر الرجال
 الذين تمّ بفضلهم أهمُّ الاكتشافات المهمة ، المترجحة بين المحرث والبرق والمؤلف
 منها تراث البشرية العالم ، من الصفات الخلقية ما يقيمون به ديانة أو يدوِّخون به
 دولة ، أى ما يُغيّرون به وجه التاريخ تغييراً واضحاً ، والمفكر يُبصر كثيراً ما في
 العضلات من تعقيد فلا يكون ذا اعتقاد عميق ، والمفكر لا يبدؤ له غير القليل من
 الأهداف السياسية التي تستحق شيئاً من جهوده فلا يتبع أىَّ واحد منها ، والحترعون
 يستطيعون أن يُغيروا الحضارة مع الزمن ، والمتعصبون وحدّهم وهم من ذوى الذكاء
 المحدود ، ولكن مع أخلاقٍ فعّالة وشهواتٍ قوية ، هم الذين يقدرّون على تأسيس
 الأديان وإقامة الدول وقلب العالم ، وقد لبّت ملايين البشر نداء بطرس الناسك
 فانقضّت على الشرق ، وأسفرت كلمات مهوس كـ محمد عن خالق قوة كفت
 للانتصار على العالم اليونانى الرومانى القديم ، وألقى راهب غامض الأمر كلوثر
 أورة في النار والدم ، ولا يكون لصوت كصوت غليلو أو نيوتن سوى صدى
 ضعيف بين الجماعات ، فالحق أن عباقرة المخترعين يُعجّلون سير الحضارة ، وأن
 المتعصبين والمتهوسين هم الذين يخلّقون التاريخ .

ومن أىّ شيء يتألف التاريخ كما هو مسطور في الكتب إن لم يكن من قصة
 طويلة لمنازعات قام بها الإنسان لا بتداع مثل عالٍ وعبادته ثم هدمه ؟ وهل تجد
 أمام العلم الصّرف لثُل تلك المثل العليا قيمة أعظم من السّرّاب الباطل الذي
 يُحدثه الضياء فوق الرمال المثقلة في الصحراء ؟

ومع ذلك ترى أن المتهوسين من مُوجِدِي مِثْلِ ذلك السراب أو ناشريه هم الذين حَوَّلُوا العالَمَ تحويلاً عميقاً ، وهم لا يزالون يَحْنُون من أعماق قبورهم روحَ العروق تحت نيرِ أفكارهم ويؤثِّرون في أخلاق الأمم ومصيرها ، ولا نجهل أهمية شأنهم ، ولكن لا يَذْهَبُ عن بالنا أنهم لم يُوفِّقُوا في إنجاز عملهم إلا لأنهم تَقَمَّصُوا مِثْلَ عِرْقِهِمْ وزمنهم الأعلى وعَبَّروا عنه من حيث لا يَشْعُرُونَ ، والأمةُ لا تَقْدُ إلا بِتَقَمُّصِ أحلامها ، ومن ذلك أن موسى تَمَثَّلَ رغبة اليهود في الخلاص التي كانت تنطوى عليها جباههم المستعبدة أيام كانت تَمُرُّ بِهَا سِياطُ المصريين ، ومن ذلك أن بُدَّهَة (بوذا) وعيسى عَرَفَا أن يستمعا لِمَا في زمانهم من بُؤْسٍ لا حدَّ له وأن يُعَبِّرَا بالدين عن ضرورة الإحسان والرحمة التي أخذت تَلُوح في العالَمِ أيام الأُمِّ العالَمِ ، ومن ذلك أن حَقَّقَ مُحَمَّدٌ وَحْدَةَ أُمَّتِهِ السياسية بما بَشَّرَ به من الوَحْدَةِ الدينية بعد أن كانت أُمَّتُهُ تلك منقسمةً إلى ألوف من القبائل المتناجزة ، ومن ذلك أن نابليون تَقَمَّصَ المِثْلَ الأعلى في المَجْدِ الحربيِّ والزهو والدَّعَاية الثَّوْرِيَّة ، أَيْ تَقَمَّصَ مُمَيِّزَاتِ ذلك الشعب الذي طاف به في أوروبة مدة خمسَ عشرة سنة سعيًا وراء أشدِّ المغامرات حماقةً .

إِذَنْ ، ترى أن الذي يقود العالَمَ هو المبادئ ، ومن ثَمَّ أولئك الذين يَتَقَمَّصُونَهَا وَيَنْشُرُونَهَا ، والنصرُ يُكْتَبُ لتلك المبادئ عند ما تَجِدُ من المتهوسين والمؤمنين من يُصْغُونَ إليها ، ولا كبيرَ أهمية في أن تكون تلك المبادئ صحيحةً أو فاسدة ، والتاريخُ قد أثبتَ لنا أن أشدَّ المبادئ وَهْمًا هي التي فَتَنَتِ الناسَ أحسنَ من سواها ، على الدوام ، فَمَثَلَتِ أُمَمَ الأَدْوَارِ ، وباسم أكثر الأوهام خَدَعًا قُلُوبَ العالَمِ وانهارت حتى الآن حضاراتٌ كان يلوح خلودُها وقامت حضاراتٌ أخرى ، وليس ملكوتُ السماوات كما قال به الإنجيل هو الذي أُعِدَّ لضعفاء العقل ، بل

ملكوت الأرض هو الذى أُعِدَّ لهم على أن يكون عندهم من الإيمان الأعمى ما يُقَدِّرون به على رفع الجبال ، وعلى الفلاسفة الذين خَصَّصُوا قروناً لهدم ما شاهده المؤمنون فى يومٍ واحد أن يركعوا أحياناً أمام هؤلاء المؤمنين ، ومن المؤمنين يتألف قسمٌ من القوى الخفية التى تهيم على العالم ، والمؤمنون هم الذين أوجبوا ظهور أهمِّ الحوادث التى يُسَجِّلُ التاريخ مجراها .

أجل ، إن المؤمنين لم يَنْشُرُوا غيرَ الأوهام لا ريب ، بَيِّدَ أن البشرية عاشت حتى الآن ، وستعيش على الراجح ، بتلك الأوهام المرهوبة المُغْرِية الباطلة ، وليست تلك الأوهام سوى ظلال ، ويجب احترامها مع ذلك ، فبفضلها عَرَفَ آبَاؤُنَا الأمل ، وهم بما كان من عَدُوِّهم الجريء الأهوَج خَلَفَ تلك الظلال قد أخرجونا من الهمجية الأولى وقادونا إلى ما نحن فيه اليوم ، ومن المحتمل أن كانت الأوهام أقوى جميع العوامل فى نشوء الحضارات ، والوهم هو الذى أوجب شَيْدَ الأهرام ، وهو الذى أَدَّى إلى سَرِّ مِصْرَ بتأثيلٍ حجريةٍ ضخمة مدة خمسة قرون ، وبفعل الوهم شِيدَتْ كُنَائِسُنَا الكبرى فى القرون الوسطى ، وبفعل الوهم انقضى الغرب على الشرق للاستيلاء على أحد القبور ، وأسْفَرَ اتِّبَاعُ طائفة من الأوهام عن تأسيس أديان أخضعت نصفَ البشر لشرائعها وعن إقامة أعظم الإمبراطوريات وهدمها ، وفى سبيل الغواية ، لا الحقيقة ، بَدَلَتِ البشرية مُعْظَمَ جهودها ، وما كان للبشرية أن تَبْلُغَ الأهداف الوهمية التى تسعى إليها ، ولكنها وهى تَجِدُّ فى أثرها حَقَّقَتْ كلَّ رُقِيٍّ لم تكن لتطلبه .

البَابُ الْخَامِسُ

انْخِلَالُ اخْلَاقِ الْعُرُوقِ وَانْحِطَاطُهَا

الشيخ الاسلام

لعله الخ لونه في بيان من انما لا

الفِصْلُ الْأَوَّلُ

كَيْفَ تَذَوَّى الْحَضَارَاتُ وَتَنْظِفُنَّ

انحلال الأنواع النفسية — كيف يزول بسرعة ما اقتضى تكوينه قروناً كثيرة من القابليات الموروثة — يتطلب ارتفاع الأمة درجة رفيعة من الحضارة زمناً طويلاً على الدوام، ويتطلب هبوطها منها زمناً قصيراً في بعض الأحيان — أهم عامل في انحطاط الأمة هو انحطاط خلقها — كان عامل انحلال الحضارات لدى جميع الأمم واحداً حتى الآن — ما يبدو على بعض الأمم اللاتينية من عوامل الانحطاط — نحو الأثرة — قص خلق المبادرة والإرادة — هبوط الأخلاق والأدب — الشبهة الحاضرة — تأثير الاشتراكية المحتمل — أخطارها وقوتها — كيف تقود الحضارات التي تصاب بها إلى وجوه وحشية من التطور — الأمم التي قد تنصر الاشتراكية فيها .

الأنواع النفسية في عدم الخلود كالأنواع التشريحية ، ولا تظل أحوال البيئات التي يقوم عليها ثبات أخلاق الأنواع النفسية باقية على الدوام ، وتلك البيئات إذا ما تغيرت لم يُعَمَّ ما تمسكه من عناصر المزاج النفسى أن يخضع لتحويلات راجعة مؤدية إلى زواله ، ولو نظرنا إلى السُّنن الفيزيولوجية التي يَجْرَى حكمها على خَلَيَّات الدماغ كما يجرى على خَلَيَّات الجسم الأخرى والتي تلاحظ لدى كل كائن لَوَجَدْنَا أن زوال الأعضاء يتطلب من الزمن ما هو أقلُّ جدًّا من الزمن الذي يقتضيه تكوينها ، وكلُّ عضو لا يقوم بوظيفته لا يلبث أن يعجزَ عن القيام بهذه الوظيفة من قوِّره ، ومن ذلك أن عيون الأسماك التي تعيش في أهوار الكهوف تهزُل مع الزمن فيصبح هذا الهزال وراثياً في نهاية الأمر ، حتى إننا لو نظرنا إلى

قَصَرَ حياة الفرد لوجدنا أن العضو الذي تَطَلَّب تكوينه أُلوفَ القرون على ما يحتمل ، وذلك بملاءماتٍ بطيئة ومتراكمتٍ وراثية ، يَهْزُلُ بسرعة عظيمة عند ما ينقطع عن عمله . وما كان مزاجُ الناس النفسى لِيَشِدَّ عن هذه الشَّئْنِ الفيزيولوجية ، والخَلْيَةِ الدماغية التي لا تُمَارَسُ تَقِفُ ، هي أيضاً ، عن القيام بوظيفتها ، وقد تزول بسرعة قابلياتُ النفس التي اقتضى تكوينها عِدَّةُ قرون ، ولا تَنْشُبُ الشجاعةُ وقوة المبادرة والإقدام وروح المخاطرة وغيرها من الصفات الخَلْقِيَّةُ أن تَمَحِّيَ إذا لم يُتَحَ لها أن تُمَارَسَ ، وبذلك تُفَسِّرُ العِلَّةُ في وجوب انقضاء زمن طويل على الأمة حتى ترتقى إلى درجة رفيعة من التَّقَاةِ وفي انقضاء زمن قصير إلى الغاية حتى تَسْتَقْطِفَ في هُوَّةِ الانحطاط . ونحن إذا ما بحثنا في الأسباب التي أدت بالتتابع إلى انهيار الأمم ، وهي التي حَفِظَ التاريخ لنا خبرها كالفرس والرومان وغيرهم ، وَجَدْنَا أن العامل الأساسي في سقوطها هو تَغْيَرُ مزاجها النفسى تَغْيَرًا نشأ عن انحطاط أخلاقها ، ولستُ أرى أمةً واحدة زالت بفعل انحطاط ذكائها .

ووجهُ الانحلال واحدٌ في جميع الحضارات الغابرة ، وهو من التشابه ما يُسأل به مع أحد الشعراء عن كون التاريخ صفحةً واحدة وإن اشتمل على عِدَّةِ مجلدات ، والأمةُ ، بعد أن تَبْلُغَ تلك الدرجة من الحضارة والقوة حيث تَطْمَنُّ إلى أنها لا تكون عُرْضَةً لهجوم جيرانها ، تَبْدَأُ بالتمتع بِنِعَمِ السَّلَامِ والترَفِ التي يُمنُّ الثَّراءُ بها عليها ، فتَدْبُلُ المزايا الحربية وتُوجِبُ زيادةَ الحضارة حدوثَ احتياجاتٍ جديدة وتَنَمُّو الأثرَةِ ، وأبناء الوطن إذ لا يبقى لهم بذلك من مَثَلٍ عالٍ غيرُ التمتع السريع بالأموال التي تُحَصَّلُ على عَجَلٍ يتركون للدولة أمرَ إدارة الشؤون العامة فلا يلبثون أن يَفْقِدُوا جميع الصفات التي كانت سببَ عظمتها ، وهنالك يُغَيِّرُ على الأمة الكثيرة

التمدن جيران من البرابرة أو من شباه البرابرة ذوو احتياجاتٍ ضعيفة إلى الغاية مع مثَلٍ عالٍ قوى جداً ، ثم يقيم هؤلاء حضارةً جديدةً بأنقاض الحضارة التي قلبوها رأساً على عَقِب ، وعلى هذه الصورة هَدَمَ البرابرةُ إمبراطوريةَ الرومان وهدَمَ العربُ إمبراطوريةَ الفرس مع ما كان لدى تَيْنِكَ الإمبراطوريتين من تنظيم هائل ، وليست صفات الذكاء هي التي كانت تَعُوزُ الأممِ المتهورة لا ريب ، وما كان بين الغالبين والمغلوبين من فَرْقٍ في ذلك فلا يحتمل القياس ، وفي زمنٍ كانت تَحْمِلُ رومة فيه بذورَ الانحطاط القريب كانت تشتمل على أروع الألباء والمتفنين والأدباء والعلماء ، وإلى ذلك الدور من تاريخ رومة يَرْجِعُ تقريباً جميعُ الآثار التي أوجبت عظمتها ، ولكن رومة كانت قد خَسِرَتِ العنصرَ الأساسي الذي لا يقوم مقامه أيُّ نُمُوٍّ في الذكاء ، كانت قد خَسِرَتِ الأخلاق^(١) ، وكان لدى الرومان الأوّلين احتياجاتٌ ضعيفة جداً ، وكان لديهم مثَلٌ عالٍ قوى جداً ، وكان هذا المَثَلُ الأعلى الذي هو عظمة رومة يستولى على النفوس فيستعدُّ كلُّ رومانيٍّ للتضحية بأسرته وثروته وحياته في سبيله ، ولَمَّا أُخِثَت رومة قُطِبَ العالم وأغنى مدن الدنيا قَصَدَهَا الغرباء من كلِّ صَوْبٍ وَحَدَّبَ فَنَالُوا حَقُوقَ الرومانيِّ منها في نهاية الأمر ، وهؤلاء الغرباء لم تَمِلْ نفوسهم إلى غير التمتع بِتَرَفِ رومة فلم يبالوا بمجدها إلا قليلاً ، وهنالك غَدَت رومة فُنْدُقاً واسعاً ، وهنالك عادت رومة لا تكون رومة ، وهي ، وإن لاحت ذات حياةٍ إذ ذاك ، لم تكن إلامِيتَةً منذ زمن طويل .

وعِلْلُ انحطاطِ كتلك تَهْدَدُ حضاراتنا الرفيعة ، وإلى تلك العلل تضاف عِلْلُ أخرى صادرة عن تطور النفوس بفعل الاكتشافات العلمية الحديثة ، والعلمُ قد جَدَّدَ

(١) قال مسيو فوستل دوكلوانج : « لم يكن المرض الذي كان المجتمع الروماني يألم منه هو فساد الطباع ، بل فتور العزيمة ، ومن ثم وهن الأخلاق » .

مبادئنا ونزاع كل سلطان من مبادئنا الدينية والاجتماعية ، والعلم قد أثبت للإنسان مكانه الضعيف في العالم وعدم اكتراث الطبيعة المطلق له ، والإنسان قد رأى أن الذي يُسميه حرية ليس إلا جهلاً بالعلل التي تستعبده وأن من مقتضى طبيعته أن يُستعبد في شبكة من الضرورات ، والإنسان قد أبصر أن الطبيعة تجهل ما نُسَميه بالرحمة وأن كل تقدم نشأ عن الطبيعة تمَّ بانتخاب شديد مؤدَّ بلا انقطاع إلى سحق الضعفاء في سبيل الأقوياء .

وأوجبت جميع تلك المبادئ الجامدة الشديدة المناقضة لما تقوله المعتقدات القديمة التي فتنت آباءنا حدوث مصادمات مزعجة في النفوس ، وهي قد أحدثت في بعض الأدمغة العادية من فوضى المبادئ ما يظهر أنه آية الإنسان في هذا الزمان ، وتلك المصادمات قد أدَّت في الشبيبة المتفننة والمتقنة إلى ضرب من عدم المبالاة القائمة الهادمة لكل عزيمة وإلى عجز تام عن الولوع بأية قضية وإلى عبادة مباشرة شخصية للمآرب دون سواها .

وفسّر أحد وزراء المعارف العامة ملاحظة أحد الكتاب المعاصرين الصائبة القائلة « إن الحسَّ النسبيَّ يهيمن على الفكر في هذا العصر » ، فصرّح مسروراً في خطبة له جاء فيها : « ان استبدال المبادئ النسبيّة بالمبادئ المجردة في مختلف المعارف البشرية هو أعظم فوز تمَّ للعلم » ، ونحن نقول إن هذا الفتح الذي أُعلنت جدّته هو قديم في الحقيقة ، فقد أتمته فلسفة الهند منذ قرون طويلة ، ولا نرى ما يقتضى التهنية على ذيوعه في الوقت الحاضر ، فالخطر الحقيقي على المجتمعات الحديثة ينجم عن فقد الناس لكل ثقة بقيمة المبادئ التي تقوم عليها ، ولا أعلم منذ بدء العالم أن أي تمدن أو أي نظام أو أي معتقد وفق للبقاء مستنداً إلى مبادئ

ليس لها غير قيمة نسبية ، وإذا لاح أن المستقبل لتلك المبادئ الاشتراكية التي يرفضها العقل فذلك لأن هذه المبادئ وحدها هي التي يتكلم الرُّسل عنها باسم الحقائق المطلقة ، والجماعات تُقبل دوماً على أولئك الذين يُحدِّثونها عن الحقائق المطلقة ، والجماعات تُحتقر ما سواها في كل وقت .

وعلى من يَؤدُّ أن يكون من رجال الدولة أن يَعْلَم كيف ينفذ روح الجماعة ويدرك أحلامها ويترك المجرّدات الفلسفية ، والأمور لا تتغير أبداً ، وما يُصنع من المبادئ عنها هو الذي قد يتغير كثيراً ، وفي تلك المبادئ يجب أن يُعرَف كيف يُؤثّر . ولا ريب في أننا لا نعلم من العالم الحقيقي سوى الظواهر ، سوى أحوال وجدانية ذات قيمة نسبية كما هو واضح ، بيد أننا إذا نظرنا إلى الأمر من الوجهة الاجتماعية أبصرنا للجيل المُعَيَّن أو للمجتمع المُعَيَّن من أحوال العيش ومن سنن الأخلاق ومن النظم ما هو ذو قيمة مطلقة مادام ذلك المجتمع لا يَقْدِر على البقاء بغيره ، وقيمة تلك المُتَومَّات إذا ما غدت موضع جدلٍ والشك إذا ما ساور النفوس قضي على المجتمع بالهلاك .

تلك هي حقائقُ يمكن أن تُعلم بإقدام ، فلا تجدُ علماً يَقْدِر على إنكارها ، ولا تؤدي مخالفتها إلا إلى نتائج مضرّة ، وما يَبْثُّه اليوم بعض ذوى الرأى من العدميّة الفلسفية في أناسٍ من ضِعاف النفوس فيجعل هؤلاء يستنبطون من فورهم كونَ نظامنا الاجتماعيّ ذا جورٍ مطلق وكون جميع المراتب مخالفةً للصواب ويوجي إليهم بحقد على الأمور الراهنة ويقودهم إلى الاشتراكية والفوضى تَوّاً .

ورجالُ الدولة المعاصرون شديدو الاعتقاد بتأثير النظم ضعيفو الإيمان بتأثير المبادئ ، والعلمُ يَدُلُّهم مع ذلك على أن النظم وليدة المبادئ وأنها لا تستطيع البقاء

من غير استناد إليها ، فالمبادئ هي المحرّكات الباطنية للأمور ، والمبادئ إذا ما زالت تقوّضت أركان النّظم والحضارات الخفية ، ومن أخرج الساعات في حياة الأمة هي الساعة المرهوبة التي تهبط فيها مبادئها المُسنّة إلى ظلام المدفن حيث ترقد الآلهة الميّتة .

وإذا ما طرّحنا العِللَ جانباً وأوضنا المعلولات وجَدنا انحطاطاً بيّناً يهدّد تهديداً جديّاً حياة معظم الأمم الأوربية الكبرى ولا سيما الأمم التي تُعرّف بالأمم اللاتينية والتي هي لاتينية في الحقيقة بالتقاليد والتربية إن لم تكن بالدم ، فهذه الأمم تُخسر كلَّ يوم قوة المبادرة والإقدام والإرادة والقدرة على السير ، ويكاد قضاء احتياجاتها المادية الزائدة يصبح مثلاً أعلى الوحيد ، وفيها تُبصر انحلال الأسرة وتداعى المقوّمات الاجتماعية ، وفيها تَرى انتشار السُّخْط والارتباك بين جميع الطبقات من غنيّها إلى فقيرها ، ويُشبّه الرجل المعاصر السفينة التي أضاعت بوصلتها فهامت على وجهها كما تشاء الرياح ، فتراه تاهماً كما تهوى المصادفة في الفضاء الذي كان عامراً بالآلهة فجعله العلم غامراً ، وتراه قد خسر الإيمان ففقد الأمل دفعةً واحدة ، ويلوح أن الجماعات بعد أن أصبحت سريعة الانفعال شديدة التقلب وبعد أن عاد لايزجرها زاجرٌ مقصّيٌ عليها بأن تكون مذبذبةً بلا انقطاع بين أشدّ ضروب الفوضى وأثقل ضروب الاستبداد ، أجلّ ، تُثارُ الجماعات بالألفاظ ، ولكن آلتها في يومٍ لا تلبث أن تغدو ضحاياها ، والجماعات تُبغى الحرية بحرارة في الظاهر ، والجماعات تُرفض الحرية على الدوام في الحقيقة فتطلب من الدولة ثبات أن تصنع لها قيوداً ، والجماعات تُطيع بعمى أكثر الطغاة غموضاً وأضيّق المستبدين نظراً ، وأما المُتفَيّهقون الذين يعتقدون قيادتهم للجماعات مع أنهم يسرون وراءها على العموم فإنهم يخلطون

ما يَحْفَظُهَا دَوْمًا إلى تَبْدِيلِ سَيِّدِهَا مِنَ التَّرَقِّ وَعَدَمِ الصَّبْرِ بِرُوحِ الاستقلالِ الحَقِيقِيَّةِ
الَّتِي تُحَوِّلُ دُونَ الخُنُوعِ لَأَيِّ سَيِّدٍ كَانَ .

ومهما يكن نظام الدولة السياسيُّ الأسمى فإن الدولة تُمَثِّلُ الأُلُوْهِيَّةَ الَّتِي تَتَوَجَّهُ
إِلَيْهَا جَمِيعُ الأحزاب ، فمن الدولة يُطْلَبُ مَا تُثَقِّلُ وَطَأْتُهُ كُلَّ يَوْمٍ مِنَ التَّنْظِيمِ وَالْحِمَايَةِ
وَمَا يَتَنَاوَلُ أَدَقَّ شُؤْنٍ الْحَيَاةِ مِنَ الشَّكْلِيَّاتِ الِيزَنْطِيَّةِ الجائِرةِ ، وتَعْدِلُ الشَّيْبَةِ
بِالتَّدرِيجِ عَنِ الأَعْمَالِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ تَمييزًا وَمِبَادِرَةً وَنَشَاطًا وَجُهودًا شَخْصِيَّةً وَإِرَادَةً ،
وَالشَّيْبَةُ تُفَرِّعُ مِنَ أَصْغَرِ التَّيْبَعَاتِ ، وَالشَّيْبَةُ تَكْتَفِي بِأَحَقَرِ مَنَاصِبِ الدَّوْلَةِ ذَاتِ
الرُّوَاتِبِ ، وَيَجْهَلُ التَّجَارُ طُرُقَ المِستَعْمَرَاتِ وَلَا يَعْمُرُ المِستَعْمَرَاتِ غَيْرُ المَوْظُفِينَ^(١) ،
وَتُبْصِرُ لَدَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ قِيَامَ المُنَاقَشَاتِ الشَّخْصِيَّةِ الفَارِغَةِ إِلَى الغَايَةِ مَقَامَ النِّشَاطِ
وَالْعَمَلِ ، وَتُبْصِرُ لَدَى الجُمُوعِ قِيَامَ الحِمَاسَاتِ أَوْ الغَضَبَاتِ مَقَامَ النِّشَاطِ وَالْعَمَلِ ،
وَتُبْصِرُ لَدَى المُتَقَفِّينَ قِيَامَ ضَرْبٍ مِنَ الخُنُوعِ الدَّامِعِ العَاجِزِ الغَامُضِ وَقِيَامَ المُنَاقَشَاتِ
السَّامِدَةِ حَوْلَ بُؤْسِ الْحَيَاةِ مَقَامَ النِّشَاطِ وَالْعَمَلِ ، وَتُبْصِرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ نُمُوَّ

(١) أَهْلُ العِبَارَاتِ البارِزةِ الآتِيَةِ مِنَ الحُطْبَةِ الَّتِي أَلْفَاها فِي ٢٧ مِنْ نَوَفَبرِ سَنَةِ ١٨٩٠ وَكَلِمَةُ
وِزَارَةِ المِستَعْمَرَاتِ مَسِيوِ إِيْتِيَانِ وَهِيَ :

« يَبْلُغُ عَدَدُ سَكَّانِ كُوشَنَشِينَ ١٨٠.٠٠٠.٠ شخص ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ السَّكَّانِ ١٦٠٠ فرَنَسِي ،
وَمِنْ هَؤُلَاءِ الفَرَنَسِيِّينَ ١٢٠٠ مَوْظِفٌ ، وَيَدِيرُ شُؤْنَهَا مَجْلِسُ اسْتِعمَارِي مُنْتخَبٌ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ
المَوْظُفِينَ ال ١٢٠٠ ، وَلَهَا نَائِبٌ ، ثُمَّ تَوَدُونَ أَلَّا تَسُودَ القُوضَى ذَلِكَ البَلَدُ !
« ... وَالآنَ ، أَتَعْرِفُونَ مَاذَا يُوْدِي إِلَيْهِ ذَلِكَ النِّظَامُ ؟ هُوَ يُوْدِي إِلَى الظَّاهِرَةِ القَائِلَةِ بِأَنَّ المَوْظُفِينَ
يَسْتَنْفِدُونَ سَعَةً مِلايِينَ مِنْ مِيزَانِيَتِكُمْ الَّتِي خَفَضْتَ إِلَى ٢٢ مِليُونًا .

« وَفِي سَنَةِ ١٨٧٧ حَاولَتْ أَنْ أَقْلِلَ عَدَدَ المَوْظُفِينَ ، فَأَقْصَيْتُ المَالِ المُخَصَّصَ لَهُمْ إِلَى ٣٥٠.٠٠٠.٠
فَرَنْكٍ مِنْ ٩ ، وَقَدْ اتَّخَذْتُ هَذَا التَّدْبِيرَ فِي شَهْرِ أَكْتُوبَرِ ، ثُمَّ حَلَّ شَهْرُ دِيسَمْبَرِ فَسَقَطَتِ الوِزَارَةُ
الَّتِي كُنْتُ مِنْهَا ، فَلَمَّا كَانَ شَهْرُ مَارَسِ التَّالِي عَادَ جَمِيعُ المَوْظُفِينَ المِسرَحِينَ إِلَى مَنَاصِبِهِمْ . »

أثرهٍ لأحدٍ لها ، والفردُ عاد لا يبالي بغير نفسه ، وتُلقَى الوجداناتُ سلاحها ، وتهبطُ الآدابُ العامة وتتنطفيءُ مقداراً فمقداراً ، ويفقدُ الرجلُ كلَّ سلطانٍ على نفسه ، والرجلُ غدا جاهلاً كيف يضبطُ نفسه ، ومن لم يعرف أن يضبطُ نفسه لم يلبث أن يضبطه الآخرون .

ومن العسير تغييرُ تلك الحال العامة ، ويجب للوصول إلى ذلك أن تُحوَّلَ تربيتنا اللاتينية المحزنة قبل كلِّ شيء ، فهذه التربية تُجرِّدُ من كلِّ مبادرة وكلِّ نشاط أولئك الذين قد يتصفون بشيءٍ منها وراثاً ، وهي تُطْفِئُ كلَّ بصيصٍ من الاستقلال الذهنيِّ ما دامت لا تهبُّ للشبيبة من المطامح غيرِ الفوز في المسابقات الكريهة ، وتلك المسابقات ، وهي لا تتطلب غيرَ جهودِ الذاكرة ، تُؤدِّي من حيث النتيجة إلى وضعها على رأس كلِّ عملٍ أصحابُ الأدمغة الذين أوجب استعدادهم المنحطُّ للتقليد عجزهم عن الاستقلال الذاتيِّ والجهدِ الشخصيِّ ، ومن قول أحد المرَبِّين الإنكليز لعزيزٍ وحين زيارة هذا الأخير لمدارس بريطانيا العظمى : « إنى أحاول أن أصبَّ الحديد في روح الأولاد » ، فأين ما يُحقَّقُ به مثلُ ذلك الحُلم لدى الأمم اللاتينية من المرَبِّين والبرامج ؟ ومن المحتمل أن يُؤدِّي النظام العسكريُّ إلى تحقيق ذلك ، والنظامُ العسكريُّ وحده هو الذي يستطيع أن يكون مؤثراً في ذلك على كلِّ حال ، ومن أسباب النهوض الرئيسة عند الأمم التي يعتريها الوهن هو تنظيمُ الخدمة العسكرية العامة الشديدة فيها وكونها مُهَدَّدةً بحروبٍ طاحنة دوماً .

وبذلك الانحطاط الخُلُقِيُّ العامُّ ، وبعجزِ أبناء الوطن عن ضبط أنفسهم بأنفسهم ، وبعدم اكتراثهم الذي يَنِمُّ على الأثرة ، تبدو الصعوبةُ لدى مُعظم الأمم اللاتينية في العيش تحت قوانينٍ حرةٍ بعيدة من الاستبداد والفوضى ، ومن السهل أن ندرك

كُونَ تِلْكَ الْقَوَانِينِ مُحَبَّبَةً بَعْضَ الشَّيْءِ لِلْجَمَاعَاتِ مَا دَامَتِ الْقَيْصَرِيَّةُ تَعِدُّ الْجَمَاعَاتِ بِالمساواةِ فِي الْعَبوديةِ عَلَى الْأَقْلِ إِنْ لَمْ تَعِدْهَا بِالْحَرِيَّةِ الَّتِي لَا تَبْلَى بِهَا أَبَدًا ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَعْسُرُ فِهْمَهُ هُوَ أَنْ تُبْصِرَ الطَّبَقَاتِ الْمُنَوَّرَةَ تَرْضَى النُّظْمَ الْجُمْهُورِيَّةَ بِأَقْصَى الصَّعُوبَةِ ، وَذَلِكَ مَا لَمْ تَنْظُرْ إِلَى ثِقَلِ الْمُؤَثَّرَاتِ الْموروثةِ ، أَفَلَا تُتَّحُ بِمِثْلِ تِلْكَ النُّظْمِ لَدَوَى الْأَفْضَلِيَّةِ ، وَذَوَى الذِّكَاءِ عَلَى الْخُصُوصِ ، فُرْصَةُ الظُّهُورِ ؟ إِنْ عَيَّبَ تِلْكَ النُّظْمَ الْحَقِيقِيَّ الْوَحِيدَ لَدَى طُلَّابِ الْمساواةِ بِأَيِّ ثَمَنٍ هُوَ أَنْهَا تُؤَدِّي إِلَى تَكْوِينِ أَرِستُوقْرَاطِيَّاتٍ ذَهْنِيَّةٍ قَوِيَّةٍ ، وَبِالعَكْسِ تَرَى أَنَّ أَشَدَّ النُّظْمِ ضِمًّا مِنْ نَاحِيَةِ الْخُلُقِ وَنَاحِيَةِ الذِّكَاءِ هُوَ النُّظْمُ الْقَيْصَرِيُّ بِأَنْوَاعِهِ ، وَالنُّظْمُ الْقَيْصَرِيُّ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْمَزِيَّةِ إِلَّا أَنَّهُ يُؤَدِّي بِسَهُولَةٍ إِلَى الْمساواةِ فِي النِّدَالَةِ وَالضَّرَاعَةِ فِي الْمَدَلَّةِ ، وَالنُّظْمُ الْقَيْصَرِيُّ شَدِيدُ الْمَلَامَةِ لَخُسِيسِ الْاِحْتِيَاجَاتِ فِي الْأُمَمِ الَّتِي هِيَ فِي دَوْرِ الْاِنْخِطَاطِ وَالتِّي تَمِيلُ إِلَى الْعُودَةِ إِلَيْهِ عَلَى الدَّوَامِ ، وَتَنْجَذِبُ هَذِهِ الْأُمَمُ إِلَى رِيَشِ خُوْذَةِ أَيِّ قَائِدٍ كَانَ ، فَإِذَا كَانَتِ الْأُمَّةُ فِي ذَلِكَ الْوَضْعِ جَاءَتْ سَاعَتُهَا وَانْقَضَى زَمَانُهَا .

وَيَعَانِي نِظَامُ الْأَجْيَالِ الْقَدِيمَةِ ، الَّذِي أَبْصَرَ التَّارِيخُ ظُهُورَهُ فِي الْخَضَارَاتِ عِنْدَ أَقْصَى فِجْرِهَا وَأَقْصَى اِنْخِطَاطِهَا ، تَطَوُّرًا وَاحْتِمًا فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ فَتَرَاهُ الْيَوْمَ يُبْعَثُ بِاسْمِ الْاِشْتِرَاكِيَّةِ ، وَسَيَكُونُ هَذَا التَّعْبِيرُ الْجَدِيدُ لاسْتِبْدَادِ الدَّوْلَةِ أَقْصَى أَطْوَارِ النُّظْمِ الْقَيْصَرِيِّ لَا رَيْبَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ وَهُوَ غَيْرُ شَخْصِيٍّ يَتَفَلَّتُ مِنْ جَمِيعِ دَوَاعِي الْوَجَلِ الَّتِي تَرْدَعُ أَقْبَحَ الطَّغَاةِ .

وَتَبْدُو الْاِشْتِرَاكِيَّةُ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ أَشَدَّ الْأَخْطَارِ الَّتِي تُهَدِّدُ الْأُمَمَ الْأُورُوبِيَّةَ ، فِيهَا سَيَسِمُ ، لَا رَيْبَ ، ذَلِكَ الْاِنْخِطَاطُ الَّذِي يُعِدُّهُ كَثِيرٌ مِنَ الْعِلَلِ ، وَهِيَ نَذِيرُ خَاتِمَةِ بَعْضِ حَضَارَاتِ الْغَرْبِ عَلَى مَا يَحْتَمِلُ .

ويجب ألاَّ يُنظر إلى التعاليم التي تنشرها الاشتراكية لتَبَيَّنَ أخطار قوتها ، بل إلى ما توحى به من الإخلاص ، فالاشتراكية معتقدٌ جديد لتلك الجماعة العظيمة من المحرومين طيبَ العيش والذين توجب أحوال التمدن الحاضر الاقتصادية فيهم حياة قاسية إلى الغاية ، وستكون الاشتراكية ذلك الدين الجديد الذي سيعمُر السماوات الخاوية ، وستقوم الاشتراكية عند جميع أولئك الذين لا يهتمون بالبؤس بلا وهمٍ مقامَ الجنَّات الساطعة التي كانوا يُبصرونها من زجاج نوافذ كنائسهم ، ويرى ذلك الكيانُ الدينيُّ القبلُ زيادةَ عدد المؤمنين به يوماً فيوماً ، وهو سيكون له شهداءُ عما قليل ، وهناك يصبح من المعتقدات الدينية التي تُثير الأمم والتي هي ذاتُ سلطان مطلق على النفوس .

في بيان الملامح
مفيدة لغير
هي السادة الذين
لا يهتمون

ومن الواضح أن تودى عقائدُ الاشتراكية إلى نظام منحطٍ من العبودية قاتل لكلِّ قوةٍ مبادرةٍ وكلِّ استقلالٍ في النفوس الخاضعة لسلطانه لا ريب ، ولكن ذلك الوضع يبدو فقط لعلماء النفس المطلعين على أحوال عيش الناس ، وبصائرٍ مثل تلك مما يمتنع على الجماعات ، وإقناعُ الجماعات يستلزم براهينَ أخرى ، وهذه البراهينُ لم تُقتبس من دائرة العقل قط .

ولا مرأى في مخالفة العقائد التي تُبصر ظهورها للذوق السليم ، ولكن ألم تكن العقائد الدينية التي سَيرتنا في قرون كثيرة مخالفة للذوق السليم أيضاً ؟ وهل منعها ذلك من إخضاع أشدِّ العباقرة بصيرةً لأحكامها ؟ ألاَّ إن الإنسان في موضوع المعتقدات لا يُصغى إلاَّ إلى صوت مشاعره اللا تنبئية ، ألاَّ إن هذه المشاعر ميدانٌ مبهم لا محلَّ للعقل فيه على الدوام .

إذن ، هنالك عِدَّةُ أممٍ أوربية ستُحمل على الخضوع لطور الاشتراكية المرهوب

بفعل المزاج النفسى الذى أورثها إياه ماضٍ طويل ، وستكون الاشتراكية إحدى مراحل الانحطاط الأخيرة ، والاشتراكية حين ترث حضارات كثيرة إلى وجوه منحلة من التطور تجعل الغارات المخربة التى تهددنا أمراً سهلاً .

وإذا عدوت إنكلترة لم تجد في أوربة عرفاً يحوز من الإقدام الكبير والمعتقدات الثابتة ومن الاستقلال الخلقى ما يكفي للخلاص من ذلك الدين الجديد الذى يُبصر ظهوره ، وإذا ما نُظر إلى نجاح المذاهب الاشتراكية في سواء ألمانيا رُئى أن ألمانيا ستذهب ضحية الاشتراكية ، ومما لا شك فيه أن الاشتراكية التى ستُفضى بها إلى الخراب ستُضفّو عليها صيغ علمية صارمة تصلح لمجتمع خيالى لا يُنتجه البشر أبداً .

ومع ذلك ستكون الاشتراكية نظاماً جائراً فلا يُكتب له دوام ، وهى ستجعل الناس يأسفون على عهد طيبريوس وكاليجولا فتعيد إليهم ذلك العهد ، ومما يُسأل في بعض الأحيان : كيف كان الرومان في زمن الاباطرة يُطبقون بسهولة نزوات أمثال ذينك الجبّارين القاسية ؟ والجواب عن ذلك هو أن الرومان أيضاً عرّفوا النفي والطرْد بفعل المنازعات الاجتماعية والحروب الأهلية فخسروا أخلاقهم ، فعُدّوا أولئك الطغاة آخر وسيلة للنجاة ، والرومان كانوا يصيرون على أولئك لما كان من عدم معرفتهم كيف يستبدلون غيرهم بهم ، وهم لم يستبدلوا غيرهم بهم في الحقيقة ، فقد جاء بعدهم دور الدّوس الأخير تحت أقدام البرابرة ، جاءت نهاية العالم ، فعلى هذا المدار يدور التاريخ في كل زمان .

الفصل الثاني

خلاصات عامة

ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب أنه ليس سوى خلاصة قصيرة ، سوى إجمالٍ تركيبيٍّ للمجلدات التي خصصناها لتاريخ الحضارات ، فمن الصعب ، إذن ، تكشف الأفكار التي اشتمل عليها كشفًا آخر ، وتراني أحاول ، مع ذلك ، أن أعرض المبادئ الأساسية التي تيمُّ على فلسفة هذا الكتاب في قضايا موجزة إلى الغاية :

— لكلِّ عِرْقٍ صفاتٌ نفسية ثابتة ثبات الصفات الجُمائية تقريباً ، والنوعُ

النفسى ، كالنوع التشريحيُّ ، لا يتحول إلا ببطءٍ عظيم .

— يُضاف إلى الصفات النفسية الثابتة الموروثة التي يتألف من اجتماعها مزاج العِرْقِ النفسى عناصرٌ ثانويةٌ ناشئة عن مختلفِ تَغَيُّراتِ البيئات ، وذلك كما يحدث لدى جميع الأنواع التشريحية ، وتتجدد تلك العناصر الثانوية بلا انقطاع فيكون للعِرْقِ بذلك تَغَيُّرٌ ظاهر على شئ من الاتساع .

— لا يُمثِّلُ المزاج النفسى للعِرْقِ خلاصةَ أفرادهِ الأحياء وحدهم ، بل يُمثِّلُ ، على الخصوص ، المزاج النفسى للأجداد الكثرين الذين أعانوا على تكوينه ، والأموات ، لا الأحياء ، هم الذين يُمثِّلون أهمَّ دور في كيانِ الأمة ، والأموات هم مُوجدو أدب الأمة وعوامل سيرها اللاشعورية .

— تلازم الفروقُ التشريحية العظيمة التي تَفْصِلُ بين مختلفِ العروق البشرية

الفروق النفسية التي لا تَقِلُّ عنها أهمية ، والعروق ، إذا ما قابلنا بين ذوى المستوى المتوسط من أبنائها ، بدت الفروق النفسية بينها ضعيفةً فى الغالب ، وتبدو هذه الفروق عظيمة عند المقابلة بين أعلى العناصر فى تلك العروق ، فهناك يرى أن الذى يميزُ العروقَ العليا من العروق الدنيا على الخصوص هو اشتغالُ العروق العليا على ما لا تحتويه العروق الدنيا من ذوى الأدمغة النامية إلى الغاية .

— تسود الأفراد الذين تتألف منهم العروق الدنيا مساواةً واضحة ، والعروقُ كلما ارتقت فى سُلَّم الحضارة اختلف أفرادها شيئاً فشيئاً ، ويتجلى أثر الحضارة المحتوم فى تفاوت الأفراد والعروق ، فإلى التفاوت الزائد ، لا إلى المساواة ، تَسِيرُ الأممُ إِذَنْ .

— حياةُ الأمة وجميعُ مظاهرها حضارتها صَدَى لروحها ، وهما دلائلُ منظورةٌ لأمر حقيقى غير منظور ، وما الحوادثُ الخارجيةُ إلا صورةٌ ظاهرةٌ للحمّة الخَفِيّةِ التى تُعَيِّنُها .

— أخلاقُ الأمة على الخصوص ، لا المصادفةُ ولا الأحوالُ الخارجية ولا النُظُمُ السياسية ، هى التى تُمَثِّلُ الدورَ الأساسى فى تاريخها .

— بما أن عناصر حضارة الأمة دلائلُ خارجيةٌ على مزاجها النفسى وعنوانُ طُرُزٍ لإحساسها وتفكيرها فإنها لا تنتقل من غير تغيير إلى أم أخرى ذاتِ أمزجة مختلفة عن مزاجها ، والعناصرُ الوحيدة التى يمكن أن تنتقل هى الأشكالُ الخارجية السطحية التى لا أهمية لها .

— تؤدى الفروق العميقة التى تفصل بين الأمزجة النفسية لمختلف الأمم إلى تَبَيُّنِ هذه الأمم للعالم الخارجى على وجوهٍ شديدة التباين ، وينشأ عن هذا شدة اختلافها

في طُرُز الشعور والتمييز والسير، ومن ثمَّ اختلافها في جميع المسائل عند المصافحة، وما مُعْظَم الحروب التي تملأ التاريخ إلا ناشئة عن تلك الاختلافات، وما حروبُ الفتوح والحروب الدينية وحروب الأسر المالكة في الحقيقة إلا حروبُ عروق على الدوام.

— لا ينتهي جَمْعُ من الناس مؤلفٌ من أصول مختلفة إلى تكوين عِرْق، أي إلى حيازة روح عامة، إلا إذا اكتسب، بتوالد مُكَرَّر في عِدَّة قرون وبجياة متشابهة في بيئات متماثلة، مشاعرَ واحدة ومصالحَ واحدة ومعتقداتٍ واحدة.

— لا تَجِدُ لدى الأمم المتمدنة عروقاً طبيعية، بل تَجِدُ عندها عروقاً مصنوعة نشأت عن أحوال تاريخية.

— لا يُؤَثِّرُ تَغْيَرُ البِئِثَاتِ تأثيراً عميقاً في غير العروق الجديدة، أي عند اختلاط العروق القديمة التي أسفر توالدها عن انحلال أخلاقها الموروثة، فالوراثَةُ وحدها هي التي تَقْدِرُ على مكافحة الوراثة، ولا يؤدي تَغْيَرُ البِئِثَةِ إلى غير التخریب في العروق التي لم يَقْضِ التوالد على ثبات أخلاقها، وأَهْوَنُ على العِرْقِ القديم أن يَهْلِكَ من أن يخضع لتحوّلاتٍ تستلزمها ملائمةُ بيئاتٍ جديدة.

— تكون حيازة الأمة لروح جامعة متينة التركيب آيةً بلوغ هذه الأمة أَوْجَ عظمتها، ويكون انحلال هذه الروح نذير انحطاطها، ويكون دخول عناصرٍ أجنبية في الأمة من أصحِّ الوسائل لبلوغ مثل ذلك الانحلال.

— تَخْضَعُ الأنواع النفسية لعوامل الزمن كما تَخْضَعُ الأنواعُ التشريحية، فهي تَهْرَمُ وتموت مثلها، وقد تزول تلك الأنواع بسرعة مع أنها تتكون ببطء كبير على الدوام، فيكفي أن يقع اضطرابٌ عميق في قيام أعضائها بوظائفها حتى تُعَانِي تحولاتٍ

راجعة مؤديةً إلى هلاك سريع في الغالب ، فالأُممُ ، وإن اقتضى اكتسابها لمزاج نفسى قروناً طويلة ، تفقد هذا المزاج في وقت قصير أحياناً .

— يجب أن توضع المبادئ بجانب الأخلاق كعامل رئيس في تطور الحضارة ، ولا تؤثر هذه المبادئ إلا بعد أن تتحول بتطور بطيء إلى مشاعر فتصبح جزءاً من الأخلاق ، فهناك تتفقت من تأثير الجدال ولا تزول إلا بعد طويل زمن ، وتشتق كل حضارة من عدد قليل من المبادئ الأساسية التي يجمع عليها .

— تجد المبادئ الدينية بين أهم المبادئ التي توجه الحضارة ، وعن مختلف المعتقدات الدينية نشأ على وجه غير مباشر معظم الحوادث التاريخية ، وقد اقترن تاريخ البشرية بتاريخ آلهتها ، وكان ظهور آلهة جديدة دليلاً على فجر حضارة جديدة في كل وقت ، والآلهة وهى بنات أحلامنا تبلى من السلطان ما يؤدى معه تغيير اسمها وحده إلى قلب العالم من فوزه رأساً على عقب .

الفهرس

مقدمة المترجم	(٥ - ٨)
مقدمة المؤلف في الطبعة الثانية عشرة	(٩ - ١٩)

المقدمة

مبادئ المساواة في الزمن الحاضر

وعوامل التاريخ النفسية

ظهور مبدأ المساواة وتقدمه - نتائجه - ماذا كلف تطبيقه -
تأثيره الراهن في الجماعات - المسائل التي نعالجها في هذا الكتاب - البحث
عن أهم العوامل في تطور الأمم العام - أيشق هذا التطور من النظم؟ - أليس
لعناصر كل حضارة من نظم وفنون ومعتقدات إلخ ، أسس نفسية خاصة بكل
أمة؟ - مصادفات التاريخ والسنن الثابتة (٢١ - ٢٥)

الباب الأول

صفات العروق النفسية

الفصل الأول

روح العروق

كيف يقسم الطبيعيون الأنواع - تطبيق مناهجهم على الإنسان -
وجه العيب في التقسيم الحاضر للعروق البشرية - أسس التقسيم النفسي - المثل
المتوسطة للعروق - كيف يؤدي البحث إلى تبين تلك المثل - العوامل
النفسية التي تؤدي إلى تعيين مثال العرق المتوسط - تأثير الأجداد والأبوين -
ما عند أفراد العرق من أسس نفسية مشتركة - تأثير الأجيال الغابرة العظيم في

الأجيال الحاضرة - أسباب هذا التأثير الرياضية - كيف امتدت الروح الجامعة من الأسرة إلى القرية فإلى المدينة فإلى الإقليم - محاسن مبدأ المدينة ومضاره - الأحوال التي يتعذر معها تكوين روح جامعة - مثال إيطالية - كيف حلت العروق التاريخية محل العروق الطبيعية (٢٩ - ٣٧)

الفصل الثاني

حدود تغير أخلاق العروق

تغير أخلاق العروق ، لاثباتها ، هو القاعدة الظاهرة - أسباب ذلك - ثبات الأخلاق الأساسية وتغير الأخلاق الثانوية - تشبيه الأخلاق النفسية بصفات الحيوان الثابتة والمتغيرة - تؤثر البيئة والأحوال والتربية في الأخلاق النفسية الثانوية فقط - إمكانات الخلق - أمثلة في أزمنة مختلفة - رجال الهول - ماذا كانوا يصنعون في أدوار أخرى - كيف تثبت الأخلاق القومية على الرغم من الثورات - أمثلة مختلفة - الخلاصة (٣٩ - ٤٣)

الفصل الثالث

نظام مراتب العروق النفسى

يقوم التقسيم النفسى ، كالتقسيمات التشريحية ، على عدد قليل من الصفات الثابتة الأساسية - تقسيم العروق البشرية النفسى - العروق الأولى - العروق الدنيا - العروق الوسطى - العروق العليا - العناصر النفسية التي يوجب اجتماعها هذا التقسيم - أهم هذه العناصر - الخلق - الأدب - يمكن تغير الصفات الذهنية بالتربية - صفات الخلق ثابتة ، ويتألف منها العنصر الثابت في كل أمة - شأن هذه الصفات في التاريخ - سبب عدم تفاهم مختلف العروق وعدم تأثير بعضها في بعض - أسباب تعذر حمل أمة متأخرة على انتحال حضارة راقية (٤٥ - ٥٣)

الفصل الرابع

تفاوت الأفراد والعروق التدريجي

يكون التفاوت بين أفراد العرق الواحد بنسبة ارتقاء هذا العرق - ما بين أفراد العروق المتأخرة من مساواة نفسية - يجب تقدير الفروق بين العروق بالمقابلة بين طبقاتها العليا ، لا بالمقابلة بين طبقاتها الوسطى - يؤدي تقدم الحضارة إلى زيادة التفاوت بين الأفراد ، وإلى زيادته بين العروق - نتائج هذا التفاوت - الأسباب النفسية التي تحول دون اتساعه كثيراً - أفراد العروق العليا كثيرو التفاوت ذكاء وقليلو التفاوت أخلاقاً - كيف توجب الوراثة رجوع الأفضليات الفردية في العرق إلى مثاله المتوسط - تؤيد المشاهدات التشرحية ما بين العروق والأفراد والجنسين من التفاوت النفسي التدريجي .
(٥٥ - ٦٢)

الفصل الخامس

تكوين العروق التاريخية

كيف تكونت العروق التاريخية - الأحوال التي تؤدي إلى امتزاج عروق مختلفة لتكوين عرق واحد - تأثير عدد الأفراد المتواجهين وتفاوت أخلاقهم وبيئاتهم إلخ - نتائج التوالد - أسباب انحطاط المولدين العظيم - تقلب ما يسفر عنه التوالد من الأخلاق النفسية الجديدة - كيف تثبت هذه الأخلاق - أدوار التاريخ الحرجة - التوالد عامل جوهري في تكوين العروق الجديدة وهو ، أيضاً ، عامل قوى في انحلال الحضارات - أهمية نظام الطوائف - تأثير البيئات - لا تؤثر البيئات إلا في العروق الجديدة التي

هى فى دور التكوين بعد أن أوجب توالدها انحلال أخلاقها الموروثة —
لا تأثير للبيئات فى العروق القديمة — أمثلة مختلفة — معظم العروق التاريخية
بأوربة لا يزال فى دور التكوين — نتائج سياسية واجتماعية — لماذا أوشك دور
تكوين العروق التاريخية أن ينقضى (٦٩ — ٦٣)

الباب الثانى

كيف تتجلى الأخلاق النفسية للعروق

فى مختلف عناصر الحضارات

الفصل الأول

عناصر الحضارة مظهر خارجى لروح الأمة

عناصر الحضارات هى مظاهر خارجية لروح الأمم التى أوجدتها —
تختلف أهمية هذه العناصر باختلاف الأمم — تمثل الفنون والآداب والنظم
إلخ ، شأنًا أساسيًا بحسب الأمم — أمثلة عن المصريين والأغارقة والرومان
فى القرون القديمة — يمكن أن يكون لمختلف عناصر الحضارة تطور مستقل
عن سير هذه الحضارة العام — أمثلة من الفنون — ماذا تدل عليه الفنون —
تعذر الاستدلال على مستوى الحضارة بأحد عناصرها فقط — العناصر التى
تكون بها أفضلية الأمة — قد تكون العناصر الشديدة الانحطاط فلسفيا
عالية جدًا من الناحية الاجتماعية (٨٣ — ٧٣)

الفصل الثاني

كيف تتحول النظم والديانات واللغات

لا تستطيع العروق العليا والعروق الدنيا أن تحول عناصر حضارتها فجأة — ما تبديه الأمم التي غيرت دياناتها ولغاتها وفنونها من مناقضة ظاهرة لذلك — ما اعتور البهيمية والبرهمية والإسلام والنصرانية من تحولات عميقة بحسب العروق التي انتحلها — ما يعتور النظم واللغات من تغير بحسب العروق التي انتحلها — نعم الألفاظ التي تعد متقابلة في مختلف اللغات على آراء وطرز تفكير مختلفة جداً — تعذر ترجمة بعض اللغات لهذا السبب — السبب في أن حضارة إحدى الأمم في كتب التاريخ تبدو ، أحياناً ، خاضعة لتحولات عميقة — حدود تأثير الحضارات تأثيراً متقابلاً (٨٥ — ٩٦)

الفصل الثالث

كيف تتحول الفنون

تطبيق المبادئ السابقة على دراسة تطور الفنون عند الأمم الشرقية — مصر — الأفكار الدينية التي تشتق منها فنونها — ما صارت إليه هذه الفنون بانتقالها إلى مختلف العروق كالأثيوبيين والأغارقة والفرس — تأخر الفن الإغريقي في دوره الأول — بطوء تطوره — انتقال الفرس للفن الإغريقي والفن المصري والفن الآشوري وتطور هذه الفنون لديهم — يتوقف ما تعانيه الفنون من التحول على العرق ، لا على المعتقدات الدينية — أمثلة من التحولات العظيمة التي خضع لها الفن العربي بحسب العروق التي دانت بالإسلام — تطبيق مبادئنا في البحث عن أصول الفن في الهند وتطوره — استقت الهند واليونان من مصادر واحدة ، غير أنهما انتهتا إلى فنون لا نسبة بينها بسبب تباين عروقهما — التحولات الواسعة التي خضع لها فن البناء في الهند بحسب العروق التي تسكنها وعلى الرغم من تشابه المعتقدات (٩٧ — ١١٣)

الباب الثالث اشتقاق تاريخ الأمم من أخلاقها

الفصل الأول كيف تُشتقُّ النظم من روح الأمم

يشتق تاريخ كل أمة من مزاجها النفسى على الدوام — أمثلة مختلفة —
كيف تشتق نظم فرنسة السياسية من روح العرق — ثباتها الحقيقى تحت
تقلبها الظاهر — تسير أحزابنا السياسية كلها إلى أهداف سياسية واحدة
وإن اختلفت الأسماء — مثل أحزابنا الأعلى هو النظام المركزى والقضاء على
خلق المبادرة الفردى فى سبيل الدولة — كيف أن الثورة الفرنسية لم تصنع
غير تنفيذ برنامج نظامنا الملكى السابق — تشتق نظم الأمم من أخلاقها على
الدوام (١١٧ — ١٢٢)

الفصل الثانى

تطبيق المبادئ السابقة على البحث المقارن فى تطور

الولايات المتحدة بأمريكا والجمهوريات

الإسبانية الأمريكية

الحلق الإنكليزى — كيف تكونت الروح الأمريكية — شدة الانتخاب
الناشئ عن أحوال الحياة — زوال العناصر الدنيا القسرى — الزنوج
والصينيون — أسباب رخاء الولايات المتحدة وانحطاط الجمهوريات الإسبانية
الأمريكية على الرغم من تماثل النظم السياسية — الفوضى القهرية فى
الجمهوريات الإسبانية الأمريكية نتيجة لانحطاط أخلاق العرق. (١٢٣ — ١٣١)

الفصل الثالث

كيف يؤدي تغيير روح العروق إلى تغيير تطور الأمم التاريخي

تأثير العناصر الأجنبية يحول روح العرق وحضارته — مثال الرومان —
لم تسقط حضارة الرومان بالمغازي الحربية ، بل بمغازي البرابرة السلمية —
لم يفكر البرابرة في هدم الإمبراطورية قط — لم تكن لغاراتهم صفة الفتوح —
كان رؤساء الفرنج الأولون يعدون أنفسهم موظفين في خدمة الإمبراطورية
الرومانية — احترم أولئك الرؤساء حضارة الرومان على الدوام ، وهم لم
يفكروا في غير إدامتها — لم يعدل رؤساء البرابرة عن عد القيصر رئيساً لهم إلا
من القرن السابع — لم يكن تحول الحضارة الرومانية التام نتيجة هدم ، بل نتيجة
انتحال حضارة قديمة من قبل عرق جديد — المغازي الحديثة في الولايات
المتحدة — المنازعات الداخلية وما توجهه من انقسام إلى دول مستقلة متنافسة — مغازي
الأجانب في فرنسا ونتائجها (١٣٣-١٤٠)

الباب الرابع

كيف تتغير أخلاق العروق النفسية

الفصل الأول

شأن الأفكار في حياة الأمم

المبادئ الموجهة للحضارات قليلة العدد على الدوام — بطوء نشوئها وبطوء
زوالها — لا تؤثر المبادئ في السير إلا بعد تحولها إلى مشاعر — تصبح
المشاعر إذ ذاك جزءاً من الخلق — الحضارات تكون على شيء من

الثبات بسبب بطء تطور المبادئ - كيف تستقر المبادئ - لا تأثير للمعقول في ذلك - تأثير التوكيد والنفوذ - شأن المؤمنين والرسول - ما يعتور المبادئ من تشويه بهبوطها إلى الجماعات - لا يلبث المبدأ الذي يجمع عليه أن يؤثر في جميع عناصر الحضارة - يكون لأهل كل جيل بفعل وحدة المبادئ إدراكات متوسطة يتأثلون بها في أفكارهم وأعمالهم - نير العادة والرأى - لا يخف ذلك النير إلا في أدوار التاريخ الحرجة حيث تخسر المبادئ القديمة نفوذها من غير أن تقوم مبادئ أخرى مقامها - الدور الحرج هو الدور الوحيد الذي يباح فيه الجدل في الآراء - لا تدوم العقائد إلا بعدم الجدل فيها - لا تستطيع الأمم أن تغير مبادئها وعقائدها من غير أن تغير حضارتها (١٤٣-١٥٦)

الفصل الثانى

شأن المعتقدات الدينية في تطور الحضارات

تأثير المبادئ الدينية العظيم - يتألف من هذه المبادئ أهم عنصر في حياة الأمم - يشق معظم الحوادث التاريخية ، كالنظم السياسية والاجتماعية ، من مبادئ دينية - يولد مع كل مبدأ دينى جديد حضارة جديدة على الدوام - قوة المثل الدينى الأعلى - تأثيره فى الأخلاق - هو يوجه جميع الملكات نحو غرض واحد - تاريخ الأمم السياسى والفنى والأدبى هو وليد معتقداتها - يؤدى أقل تغيير فى حال معتقدات الأمة إلى سلسلة من التحولات فى كيانها - أمثلة مختلفة (١٥٧ - ١٦٢)

الفصل الثالث

شأن عظماء الرجال فى تاريخ الأمم

ما تسفر عنه كل حضارة من تقدم كبير هو وليد صفوة قليلة من ذوى القوس العالية على الدوام - طبيعة شأن هؤلاء - إنهم جماع مجهودات العرق

كلها - أمثلة، مقتبسة من الاكتشافات العظيمة - شأن عطاء الرجال السياسى -
هم عنوان مثل عرقهم الأعلى - نفوذ كبار المهوسين - يحول المخترعون من ذوى
العبقرية الحضارة - التاريخ من صنع المتعصبين والمتهوسين . . . (١٦٣-١٦٨)

الباب الخامس

انحلال أخلاق العروق وانحطاطها

الفصل الأول

كيف تذوى الحضارات وتنطفئ

انحلال الأنواع النفسية - كيف يزول بسرعة ما اقتضى تكوينه قروناً
كثيرة من القابليات الموروثة - يتطلب ارتقاء الأمة درجة رفيعة من الحضارة زمنياً
طويلاً على الدوام، ويتطلب هبوطها منها زمنياً قصيراً فى بعض الأحيان - أهم عامل
فى انحطاط الأمة هو انحطاط خلقها - كان عامل انحلال الحضارات لدى
جميع الأمم واحداً حتى الآن - ما يبدو على بعض الأمم اللاتينية من عوامل
الانحطاط - نمو الأثرة - نقص خلق المبادرة والإرادة - هبوط الأخلاق والأدب -
الشبيهة الحاضرة - تأثير الاشتراكية المحتمل - أخطارها وقوتها - كيف تقود
الحضارات التى تصاب بها إلى وجوه وحشية من التطور - الأمم التى قد تنتصر
الاشتراكية فيها (١٧١ - ١٨١)

الفصل الثانى

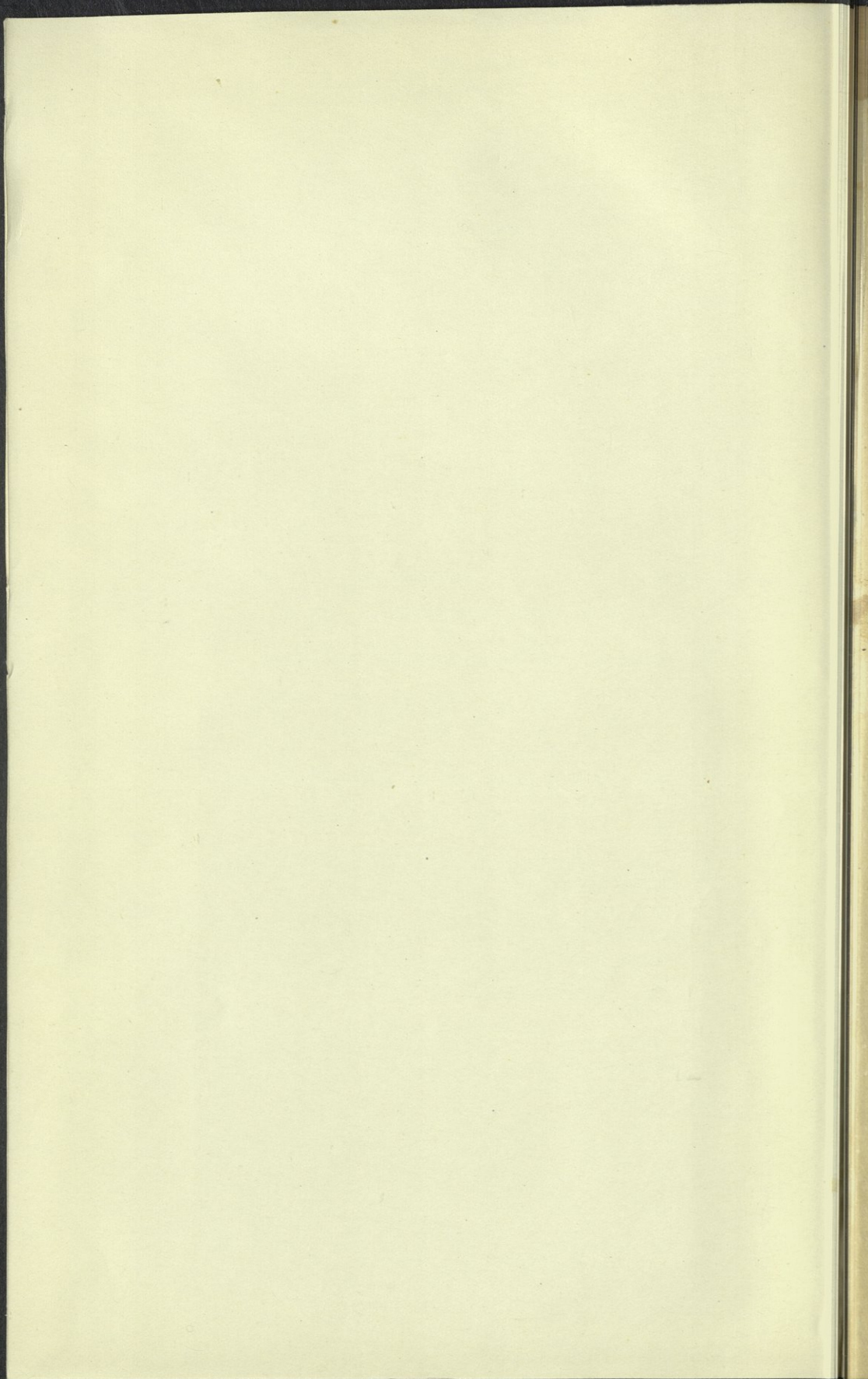
خلاصات عامة (١٨٣ - ١٨٦)

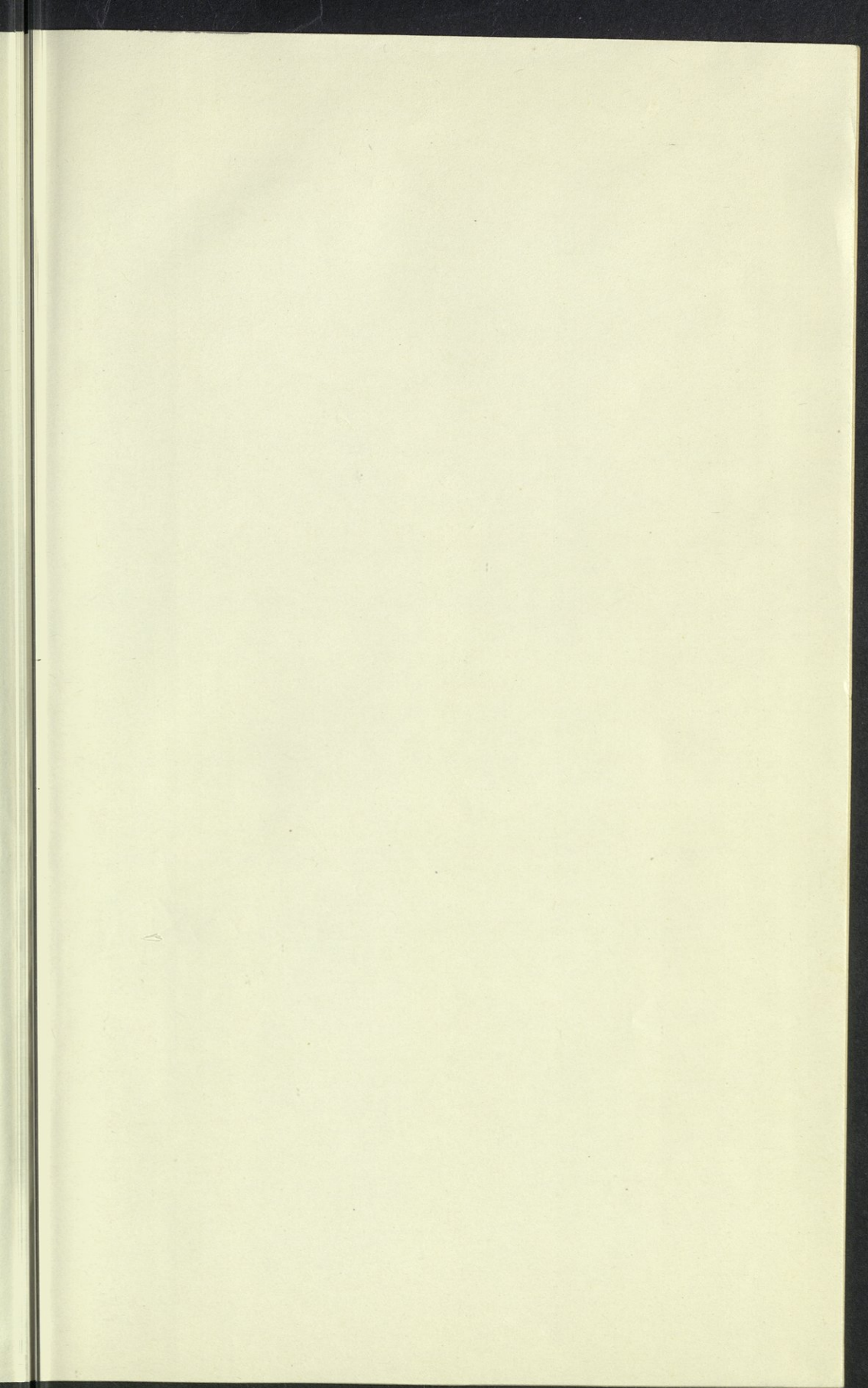
190-2797

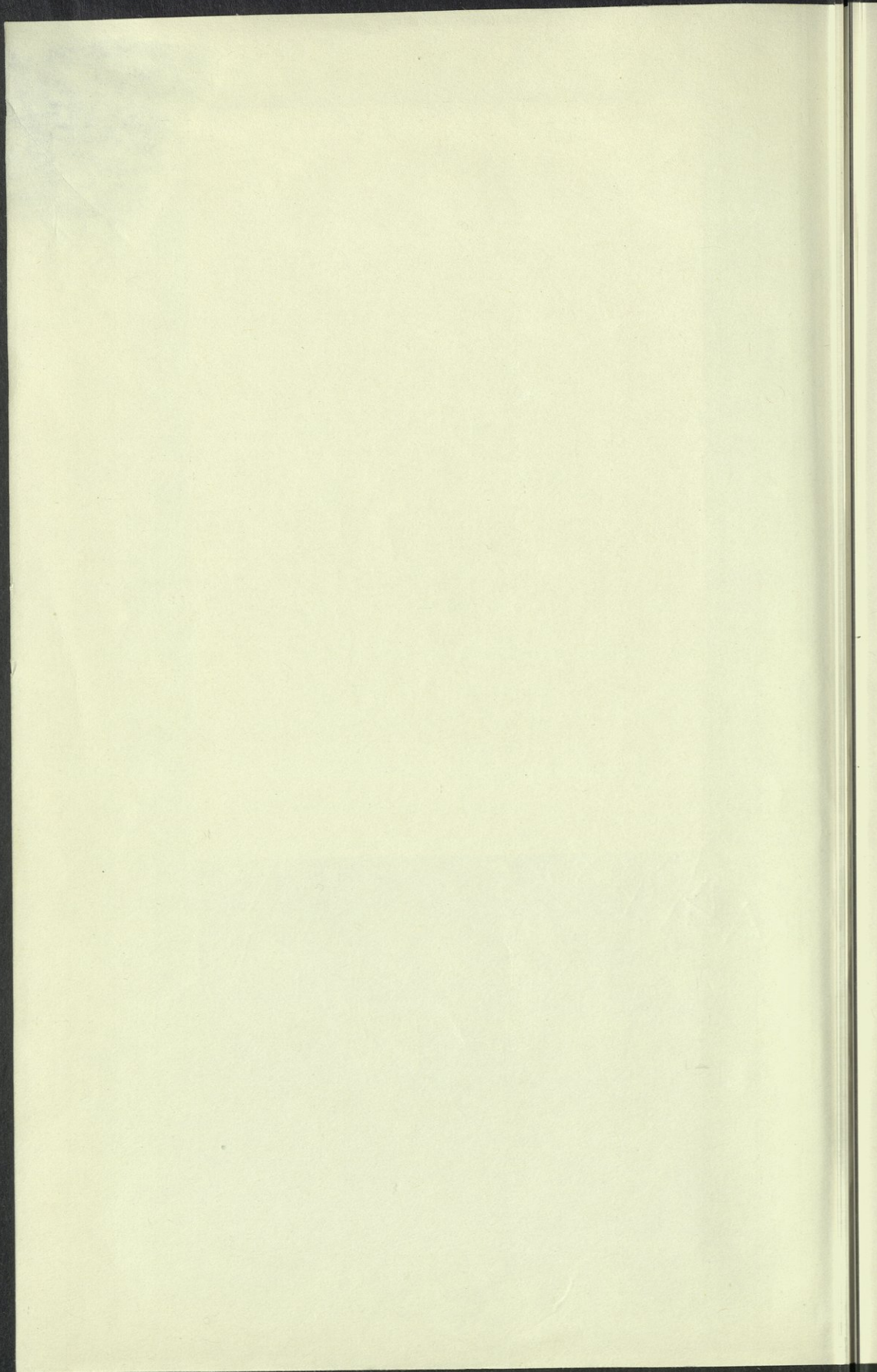
للأستاذ المترجم :

- | | |
|----------------------|---|
| للدكتور غوستاف لوبون | (١) حضارة العرب (طبعة ثانية) |
| » » » | (٢) حضارات الهند |
| » » » | (٣) روح الجماعات |
| » » » | (٤) السنن النفسية لتطور الأمم |
| » » » | (٥) روح التربية |
| » » » | (٦) حياة الحقائق |
| » » » | (٧) الآراء والمعتقدات (طبعة ثانية) |
| » » » | (٨) روح الثورات والثورة الفرنسية (طبعة ثانية) |
| » » » | (٩) روح الاشتراكية |
| » » » | (١٠) روح السياسة |
| » » » | (١١) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى |
| لإميل لودفيغ . . . | (١٢) بسمارك |
| . . . » » | (١٣) نابليون |
| . . . » » | (١٤) ابن الإنسان |
| . . . » » | (١٥) الحياة والحب |
| لإميل درمنغم . . . | (١٦) حياة محمد (طبعة ثانية) |
| لسيديو | (١٧) تاريخ العرب العام |
| لإيسمن | (١٨) أصول الحقوق الدستورية |

(1) 1000 (1000)	1000
(2) 1000	1000
(3) 1000	1000
(4) 1000	1000
(5) 1000	1000
(6) 1000	1000
(7) 1000	1000
(8) 1000	1000
(9) 1000	1000
(10) 1000	1000
(11) 1000	1000
(12) 1000	1000
(13) 1000	1000
(14) 1000	1000
(15) 1000	1000
(16) 1000	1000
(17) 1000	1000
(18) 1000	1000
(19) 1000	1000
(20) 1000	1000
(21) 1000	1000
(22) 1000	1000
(23) 1000	1000
(24) 1000	1000
(25) 1000	1000
(26) 1000	1000
(27) 1000	1000
(28) 1000	1000
(29) 1000	1000
(30) 1000	1000
(31) 1000	1000
(32) 1000	1000
(33) 1000	1000
(34) 1000	1000
(35) 1000	1000
(36) 1000	1000
(37) 1000	1000
(38) 1000	1000
(39) 1000	1000
(40) 1000	1000
(41) 1000	1000
(42) 1000	1000
(43) 1000	1000
(44) 1000	1000
(45) 1000	1000
(46) 1000	1000
(47) 1000	1000
(48) 1000	1000
(49) 1000	1000
(50) 1000	1000
(51) 1000	1000
(52) 1000	1000
(53) 1000	1000
(54) 1000	1000
(55) 1000	1000
(56) 1000	1000
(57) 1000	1000
(58) 1000	1000
(59) 1000	1000
(60) 1000	1000
(61) 1000	1000
(62) 1000	1000
(63) 1000	1000
(64) 1000	1000
(65) 1000	1000
(66) 1000	1000
(67) 1000	1000
(68) 1000	1000
(69) 1000	1000
(70) 1000	1000
(71) 1000	1000
(72) 1000	1000
(73) 1000	1000
(74) 1000	1000
(75) 1000	1000
(76) 1000	1000
(77) 1000	1000
(78) 1000	1000
(79) 1000	1000
(80) 1000	1000
(81) 1000	1000
(82) 1000	1000
(83) 1000	1000
(84) 1000	1000
(85) 1000	1000
(86) 1000	1000
(87) 1000	1000
(88) 1000	1000
(89) 1000	1000
(90) 1000	1000
(91) 1000	1000
(92) 1000	1000
(93) 1000	1000
(94) 1000	1000
(95) 1000	1000
(96) 1000	1000
(97) 1000	1000
(98) 1000	1000
(99) 1000	1000
(100) 1000	1000







DATE DUE

~~25 SEP 1972~~

~~JAFET LIB.~~

~~2 JUL 1969~~

J. LIB.

~~7 AUG 1970~~

~~JAFET LIB.~~

~~11 JAN 1991~~

لوبيون، غوستاف
السنن النفسية لتطور الامم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01009773

301.35:144

لوبيون، غوستاف.

السنن النفسية لتطور الامم

301.35

1444

